حضرموت

إزاحة النقاب عن بعض غموضها

تأليف
دانيال فان در ميولين والدكتور. هـ. فون فيسمان

ترجمة وتقديم وتعليق
الدكتور محمد سعيد القدال

حضرموت

إزاحة النقاب عن بعض غموضها

تأليف
دانيال فان در ميولين
و
الدكتور. هـ . فون فيسمان

ترجمة وتقديم وتعليق
الدكتور محمد سعيد القدال
جامعةعدن/كلية التربية/ المكلا
١٩٩٧

ساهم فى مراجعة التحقيق الأساتذة :
د. أحمد محمد بن بريك ،مصطفى زين العيدروس،
سالم عمر الخضر ، عبده عبد الله بن بدر
المراجعة اللغوية : د. مبارك حسن الخليفة

الناشرون دار جامعة عدن للطباعة والنشر
بالتعاون مع سفارة مملكة هولندا بصنعاء

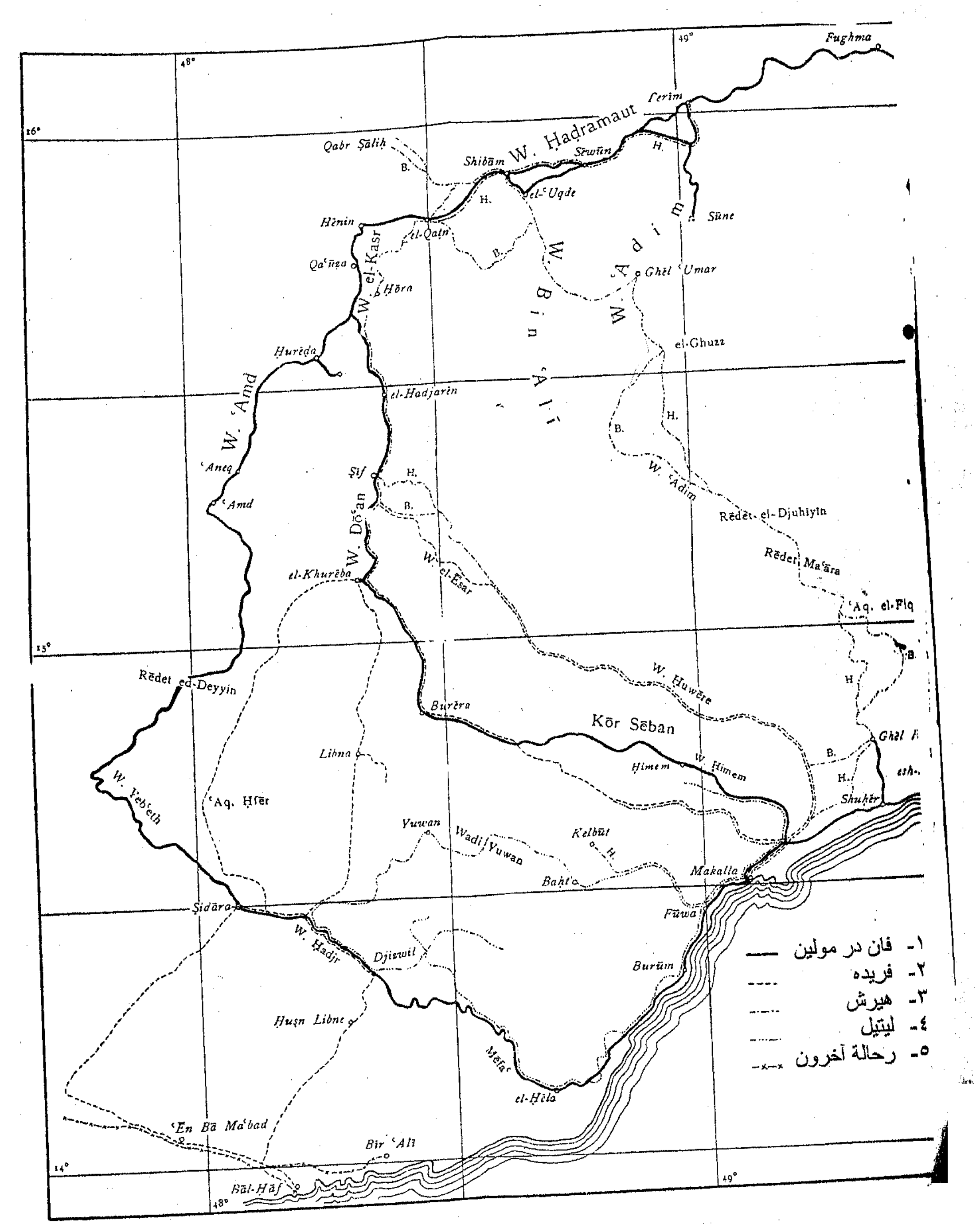
الطبعة الأولى
١٩٩٨م



الجمهورية اليمنية . عدن . مدينة الشعب ص.ب ١١٠١٦ ☎ ٣٨٤٩٨٦ فاكس ٣٨٥٣٣٥
REPUBLIC OF YEMEN . ADEN. MADINAT AL-SHAAB P.O.BOX 11016 ☎ 384986 FAX : 385335

المحتويات

حضرموت
خريطة للطرق التي سلكها الرحالة



تقديم الترجمة العربية

ألف هذا الكتاب الكلونيل فان در ميولين (١٨٩٤ ـــ ١٩٨٩) قنصل هولندا فى جده ، بعد رحلة إلى حضرموت فى صيف عام ١٩٣١ استغرقت ستة أسـابيع ، وصحبه فيها صديقه العالم الجغرافي الألماني الدكتور فون فيسمان . بدأت الرحلة من المكلا إلى وادى دوعن ثم وادى حضرموت ، ورجعا إلى المكلا عـن طريـق وادى عمد وريدة الدّيّن ووادى حجر .
ولعل السؤال الأول الذى يتبادر إلى الذهن هو : لماذا قمت بترجمة هذا الكتـاب ؟ لعبت الصدفة الدور الأول. كنت فى زيارة لجامعة بيرقن بالنرويج فى صيف عـام ١٩٩٥ ، وأحضر لى أحد السودانيين هذا الكتاب لمعرفته بصلتى بحضرمـوت . فقمت بتصويره لأن أيامي هناك لم تكن تسمح بالاطلاع عليه . ثم اتصلت بالدكتور صالح باصرة وكان وقتها قائما بأعمال رئيس جامعة عدن ، وأبديت له رغبتـى فى ترجمة الكتاب ، فوافق فورا . وأخذت أقرأ فيه ، حتى أتـأكد أنـه يستحق الترجمة فعلا ، ولا أكون قد أخذت به فى لحظة اندفاع . هكذا كانت البداية .
وبعد أن قرأته بدت لى أهمية ترجمته لعدة أسباب . أولها أن الكتاب يصـور فـى لحظة بلّورية جوانب من الحياة فى حضرموت فى عام ١٩٣١ . فالكتاب ضرب من أدب الرحلات رفيع المستوى . وأدب الرحلات له عشاقه الذين يجدون فيه صـورا لمجتمعات لم يروها إما لبعد المكان أو الزمان . والتجربة الشخصية هـي التـي تكسبه تلك الحيوية التى تفتقدها كتب العلوم الاجتماعية . فيساعد أدب الرحـلات فى ملء فجوات إنسانية كم تحتاجها الدراسات الاجتماعية .
والسبب الثاني ، أنه يساعد فى فتح باب للدراسات الاجتماعية التى تبحـث عـن الأوضاع التى كانت عليها حضرموت وما آلت إليه . فقد شهدت حضرموت منـذ تأليف الكتاب أحداثا وأحداثا ، بعضها كان عاصفا ، بداية بتوقيع اتفاقية الاستشارة عام ١٩٣٧ حتى الوحدة اليمنية عام ١٩٩٠ والأحداث التى تلتها . كما شهد العالم خلال تلك الحقب المنصرمة أحداثا أكثر عنفا مما شهدته حضرموت . فـالى أي مدى تأثرت حضرموت اجتماعيا وسياسيا وثقافيا ؟ وما مدى ذلك الأثر على بنيتها وعلى نسيجها الاجتماعي ، فربما ساعد ذلك على كشف جوانـب مـن إيقاعـات تطورها ، وإلى أي مدى تسارعت تلك الإيقاعات و إلى أي مدى قعد بها خطوها ؟
السبب الثالث ، أن الكتاب يصور بكثير من الصدق انطباع الأوربيين عن الحيـاة فى البلاد العربية . وإذا كانت حضرموت هي النموذج الذى تناوله الكتاب ، فـإن الانطباع الأوربي لا يختلف كثيرا بالنسبة للمنطقة العربية فى وجهتـه ومـداه . ولعن بحاجة للوقوف عند تلك الانطباعات ، لأنها تبرز إيجابيات مجتمعنـا كما

تشير إلى سلبياته. هذا لا يعنى أن نأخذ بتلك الانطباعات دون تمحيص وروية، بل علينا أن نتدبرها .

السبب الرابع ، أن المسافة قد تباعدت فى العقدود الأخيرة بين القارئ الحضرمي والقارئ العربي عامة واللغة الإنجليزية . فتصبح للترجمة ضرورتها لتقريب تلك الشقة التى تباعدت .

وأخيرا ، لعلى بهذه الترجمة أدفع بعضا من دين حضرموت علي ، منذ أن احتضنتني يافعا عام ١٩٤٠ حتى استضافتني للعمل بها عام ١٩٩٣ .

والسؤال الثانى الذى يتبع الأول : ما هي الأهداف التى دفعت قنصل هولندا للقيام بهذه الرحلة إلى حضرموت ؟ الرحلة لها أهداف متشابكة . أولها ، أن عددا كبيرا من الحضارم يعيشون فى مستعمرات هولندا فى جزر الهند الشرقية ، وأصبح لهم وزن اقتصادي واجتماعي وسياسي . فكانت هولندا تريد أن تقف على الأوضاع فى موطن الحضارم الأم ، عسى أن يساعدها ذلك فى ضبط حكمها فى مستعمراتها هناك ، خصوصا بعد أن احتدم الصراع بين العلويين والارشاديين المناوئين لهم . كما تعرض نفر من رعاياها فى حضرموت لبعض المشاكل . ووضح المؤلف ذلك قائلا :" أصبحت للحكومة الهولندية رغبة واهتمام كبير لمعرفة الحقائق الصحيحة عن الأوضاع فى الوطن الأصلي لعدد كبير من رعاياها " .(الفصل السادس ص.) فالرحلة لها هدفها السياسي المرتبط بسياسة هولندا الاستعمارية.

والهدف الثانى ، أن المؤلف ورفيقه فون فيسمان ، يعشقان الترحال وارتياد المناطق المحفوفة بالصعاب، لكنها صعاب محسوبة الخطى وليست طيشا . والهدف من تلك الرحلات هو تعريف أوربا على مناطق مجهولة بالنسبة لها . فقد كانت بئر برهوت وقبر هود ، بل حضرموت كلها غير معروفة تماما لأوربا إلا من ثنايا بعض مجهودات الرحالة الذين استعرض المؤلف مجهوداتهم بصدق فى مقدمته . وحقق فان در ميولين وفون فيسمان سبقا كشفيا . فكانا أول أوربيين يصلان إلى قبر هود وبئر برهوت .

وربما كان هناك هدف علمي . الدكتور فون فيسمان رجل أكاديمي ، فاهتم بجوانب جغرافية وجيولوجية ونباتية وحيوانية . فقدم إسهاما مقدرا . وقام المؤلف بأخذ العديد من الصور الفوتغرافية الرائعة ، التى تمثل سجلا حيا لحضرموت فى ذلك الوقت ، وما زالت تحظى بالتقدير . واقيم معرض دائم لتلك الصور فى سيؤن قبل عامين .

ويمكن أن نستنتج من ثنايا الكتاب هدفا رابعا ، ولكنه استنتاج يحتاج لمزيد من الفحص وليست هذه المقدمة المقام المناسب لذلك . كانت حضرموت تمر بظروف قاسية من الاضطرابات والحروب القبلية . وقد عبرت قيادات المجتمع الحضرمي للمؤلف عن قلقها من تلك الحالة . وتوصلوا جميعا إلى أن السبب هو انعدام

سلطة مركزية قوية تقبض على الأمور بحزم . وعبر الحضارم عن ضرورة تدخل قوة خارجية لتنهي تلك الصراعات . ورغم أن المؤلف أكد لهم بضرورة أخذ الأمور فى أيديهم ، إلا أن صعوبة مثل ذلك الأمر فى حينه قد مهد الطريق لتدخل بريطانيا عام ١٩٣٧ بمعاهدة الاستشارة . وكان فان در ميولين واضحا فى رده على الحضارم عندما طلبوا تدخل هولندا المباشر ، فقال : "طالما أن الهولنديين لا يمكنهم دخول أبواب حضرموت إلا بإذن من بريطانيا ، فإن الاتصال بين حكومتنا والقوى المصطرعة فى تلك البلاد يبقى صعبا ... يمكننى فقط أن أنصح بالنضال من أجل الوحدة ... وإذا لم يستطيعوا تحقيق هذا بأنفسهم ، فإن التعاون مع السلطات البريطنية فى عدن ، التى لجأوا إليها فى أوقات سابقة، يبدو أنه السبيل الوحيد "(الفصل الرابع عشر ، ص.) . فهل كان جانب من تلك الرحلة بتنسيق مع السلطات البريطانية فى عدن ، نسبة لصلات هولندا الوثيقة مع الحضارم؟ ليس هناك دليل حتى الآن ، ولذلك تبقى علامة الاستفهام تحلق فى الجو ، بالذات بعد تتابع الأحداث وتسارعها فى تلك الوجهة .

ويبقى سؤال آخر وإن لم يكن أخيرا : ما هي الانطباعات الأساسية التى خرج بها المؤلف عن حضرموت ؟ اختلط فان در ميولين خلال رحلته بقطاعات مختلفة من المجتمع الحضرمي . فاتصل بعلية القوم من حكام وتجار وقيادات دينية وقبلية . تعرف على المحضار وزير السلطنة القعيطية ، وباصرة حاكم دوعن ، و علي بن صلاح سلطان شبام، والسلطان الكثيري علي بن منصور. وقابل الزعماء الدينيين الأثرياء من آل الكاف وآل العطاس وآل السقاف وغيرهم . وعاش فى القصور والمنتجعات والبساتين وحمامات السباحة ، حتى خال فى لحظات أنه فى حلم من ألف ليلة وليلة. من الجانب الآخر احتك بشخصيات عادية من جنود وبدو . وسار فى دروب وعرة وقاسى وطأة الظمأ وشظف العيش . سار تحت حماية الدولة ، كما تعرض لخطر الموت . فتمكن من خلال تلك العلاقات المتنوعة أن يجس بعضا من نبض الحياة فى حضرموت . وهذا جانب هام غاب عن كثير من الرحالة الذين افتقدوا مقدرات فان در ميولين الدبلوماسية واللغوية ومكانته الرسمية ، فانفتحت أمامه أبواب انغلقت أمام غيره من الرحالة . وأخذت صوره القلمية تترى تباعا ، تمتد من خلالها العلاقات الاجتماعية وتتشابك وتنفذ إلى نسيج المجتمع الحضرمي . صور حية تكاد فى بعض الأحيان أن "تتقراها يداي بلمس".

لاحظ المؤلف أن تجربة الحضرمي العادي مع الأجانب محدودة ، إما لأنهم بدو منصرفون إلى حياة الرعي والتنقل ، أو لانتشار الزعم الخاطئ بأن الأوربيين كفار لا دين لهم ، أو لعدم وجود الأوربيين أساسا فى البلاد . وسبب هذا بعض المضايقات ،لكنها أتت من القلة وكان أغلبها عابرا .

شاهد العديد من مظاهر الحروب القبلية التى تفت من عضد المجتمع وتنهك قواه الإنتاجية . فتخربت المزارع وذبل الشجر ، وانحصر الناس فى قراهم وداخل حصونهم أسرى واقع مرير . وشاهد فى إحدى القرى صورة لذلك الخراب قال عنها : "رأينا هنا فى لحظة لمحات خاطفة من الفقر المدقع ورتابة الحياة والجوع فى قرية من هذا الجزء من حضرموت ، حيث هلك السكان وامتصت الحرب قواهم ، والرجال الذين عاشوا هربوا من مآسيها إلى بلاد أجنبية " (الفصل الثانى عشر ، ص.) . ولكنه لاحظ من الجانب الآخر " أن التباين بين الثراء الكبير لكثير من السادة وفقر السواد الأعظم من الناس لا يخلق شعورا حادا هنا ... ولاحظنا القليل من الحسد والصراع الطبقي فى حضرموت " . (الفصل الثانى عشر ، ص.) . ولعل هذا التمييز بين الصراع القبلي والصراع الطبقي فيه شيء من تعسف ، فكلاهما صراع اجتماعي له جذوره المتقاربة قبلية كانت أو طبقية .

وشد انتباه المؤلف مظهر هام فى الحياة الاجتماعية . فيقول : "الحياة هنا ديمقراطية . ففى غرفة الاستقبال المحشوة بالناس ، يجلس العبيد والخدم والأطفال وصاحب الدار ، ويشربون من نفس الإناء، ويعبون لأنفسهم القهوة من نفس فناجين الآخرين .." . (الفصل الخامس ، ص.) . وكرر ذكر الظاهرة مرة أخرى قائلا : "الجنود وخدم المنزل والمواطنون العاديون فى القرية يجتمعون فى مجلس الأغنياء ويأكلون معا ، ويشربون من نفس الإناء ويشاركون فى نفس الحديث " (الفصل الثانى عشر ، ص.) . ويقول عن البدو :" والبدو ديمقراطيون إلى حد بعيد ، فإذا أرادوا أن يستفسروا عن شيء لا ينتظرون اللحظة المناسبة وإنما يصيحون من مؤخرة القافلة : يا حرمل ، أو يا قنصل . فأرد عليهم فى الحال بنفس الصوت : يا حاج ، أو يا سيباني " . (الفصل الثالث ،ص.) . ولكن هذه الظاهرة لا تلغى التراتب الاجتماعي الحاد ، وإنما تعود إلى سببين . الأول المجتمع البدوي الذى يمتد نسيجه إلى خلايا المجتمع . والحياة البدوية متقاربة ، والقيادة فيها طوعية . الثانى أن نظام الرق الذى ذكره إنما هو رقيق الخدمة المنزلية ، وهو جزء من مؤسسة المنزل ، ولكن له حدودا قاطعة لا يتعداها .

قدم المؤلف وصفا للعديد من جوانب الحياة فى حضرموت . فتناول بعضا من العادات والتقاليد ، والمجالس، والرقص ، والأكل ، وزينة النساء بشكل عابر وسبب ذلك حسب قوله لأن "عالم المرأة وحياة الاسرة يبقى دائما كتابا مغلقا بالنسبة لنا (الفصل الثانى عشر ، ص.) . ولكنه توقف عند كرم أهل البلاد . فذكر أنهم وصلوا ليلا إلى منزل فى إحدى القرى، وكان بالمنزل حفل عرس . فأوقف صاحب الدار العرس وهيأ لهم مرقدا . فكتب فان در ميولين يقول :" ولعله من المناسب أن نتقدم بالعرفان لحفاوة العرب . فمن من الغربيين كان سيخفى امتعاضه إذا توقف حفل زواجه بمجيء قافلة من الناس المرهقين

الجوعى؟ ومن منا كان سيفتح داره فورا للمسافرين أبناء الطريق ، ويقوم بنفسه بإحضار الماء لإطفاء ظمئهم ، ويعد لهم فى الحال الطعام الذى يقيم أودهم ؟ " (الفصل الخامس، ص.) . وتحدث فى مناسبة أخرى قائلا : "فغادرنا المدينة ونحن فى تعجب من الكرم العربي" (الفصل الثانى ، ص.) . وذكر له أحد مضيفيه بأن " تقديم الضيافة للمسافر الذى يطرق الباب ليلا ، واجب مقدس فرضه الدين . (الفصل الثانى عشر ، ص.) .

وصف المؤلف المدن التى زارها وصفا رائعا ، بالذات المكلا والشحر وشبام وسيؤن وتريم . فقدم صورا حية لمبانيها وشوارعها وهندستها المعمارية وعدد سكانها . وفصّل فى وصف بعض المنازل وأسلوب تأثيثها . ووضّح طغيان أثر المهجر المادي والحضاري . وتجد هجرة الحضارم هذه الأيام اهتماما أكاديميا . فدشنت جامعة بيرقن بالنرويج عام ١٩٩٦ مشروعا باسم "برنامج المحيط الهندي" ، لدراسة الهجرة الحضرمية إلى أفريقيا وآسيا .ثم تبعتها جامعة استكهولم وجامعة لندن وعقدت كل واحدة مؤتمرا فى نفس الموضوع .

والتفت المؤلف إلى الأحياء الشعبية البائسة والقرى الفقيرة . ووصف ليل الصحراء وصفا يميل كثيرا إلى الرومانسية . فقال :" وأخيرا تأتى اللحظة التى نستلقى فيها على أسرّتنا ، ونحدّق بارتياح عميق نحو السماء فوقنا وإلى كتل الصخر السوداء المرعبة التى تمتد فى الأفق . ونسمع أصوات الحيوانات بالقرب منّا وهي تمضغ طعامها فى سكينة أو تحك جلدها ، فيضفى علينا كل ذلك إحساسا بالرضى، ونشعر وسط جلال هذه الطبيعة مع هذه الحيوانات الأليفة وتابعيها البدائيين ، أنها نعمة كبرى أن تركنا الحضارة الغربية خلفنا ونعيش فى حضن أمنا الأرض . (الفصل؟ص؟)

واتجه جانب كبير من اهتمام المؤلف نحو الآثار ، التى تجد اهتماما من السواح حتى يومنا هذا . فزار عددا من المواقع الأثرية أهمها : أنقاض قوم عاد (الفصل الثالث) ، المشهد (الفصل الخامس) ، جبل غمدان (الفصل السادس)، أنقاض صغيرة خارج تريم (الفصل العاشر) ، وادى سون (الفصل الحادى عشر) ، قلعة قسم ، وقلعة العرّ (الفصل الثانى عشر) ، وكرّس فصلا كاملا لزيارة قبر هود وبئر برهوت (الفصل الثانى عشر) .

تبقى ملاحظة هامة . لماذا اختار المؤلف ورفيقه الجغرافي فصل الصيف الحار فى مايو ويونيو لزيارة حضرموت ؟ وقد كلفهما هذا الاختيار مشاقا ما كان أغناهما عنها لو اختارا فصلا آخر من العام .

أضفنا بعض الحواشى التى رأينا أنها ضرورية . فقد تعرض المؤلف لبعض الأشياء التى لم تعد مألوفة لجيل هذه الأيام ، وبعضها أصبح من تراث الماضى ، مما استوجب شرحها . كما ذكر أشياء أخرى بطريقة عابرة ، فوقفنا عندها

وفصلناها . وصححنا بعض الأسماء التي لم يكن دقيقا فيها . فالتحقيق الذى قمنا به هو إضافات تساعد القارئ على متابعة الكتاب دون عائق يقف في مجرى تسلسله . وإذا قدر للكتاب طبعة ثانية ، فلعله يحظى بالمزيد من التحقيق من الذين لهم باع أطول في هذا المجال .

واستعنت ببعض الأساتذة الحضارم لضبط أسماء الأعلام والأماكن عند ترجمتها إلى اللغة العربية وفي كثير من الحواشي . وكان من الضروري الاستعانة بهم ، فأهل مكة أدرى بشعابها . فتفضل أربعة من الزملاء في كلية التربية بالمكلا بتقديم يد العون ، وأثبت أسماءهم في واجهة الكتاب . وقدم نفر آخر من الحضارم مساهمات جيدة . وهم السيد عباس حسن الكاف والأستاذ شيخ عباس الكاف والدكتور عبد الله باشماخ والدكتور محمد سعيد داود والأستاذ محمد جوبان والدكتور محمد بن غوث ، فلهم مني جزيل الشكر . وفي مجال الكمبيوتر أتقدم بالشكر إلى الأستاذ أبوبكر بن شيخ والأستاذ صالح قمزاوي و أيضا الأستاذ أمين بابكر عبد النبي بجامعة حضرموت. والشكر موصول إلى عميد كلية التربية الدكتور محمد أحمد فلهوم لمساعداته القيمة . وأشكر بصفة خاصة الدكتور صالح علي باصرة رئيس جامعة عدن لاهتمامه المتواصل بالترجمة . وأشكر جامعة عدن التي ستتولى طباعة الكتاب . فإليهم جميعا يعود الفضل لما في الكتاب من محاسن . والشكر أجزله لسفارة هولندا في صنعاء لمساهمتها السخية لطبع الكتاب . وإذا وجد في الكتاب قصور فهو قطعا مسئوليتي .

محمد سعيد القدال

المكلا: يناير ١٩٩٧

تقديم: سنوك هورخرونية

فى عام ١٩٠٤ كتب "ديفيد جورج هوقارث" (Hogarth) قصته الرائعة حول اكتشاف شبه الجزيرة العربية ، التى سماها "اختراق شبه الجزيرة العربية" ، وتحتوى على سجل أمين عن تطور معرفة الغربيين بشبه الجزيرة العربية . وقال فى مذكرته التمهيدية : " ما زالت أجزاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية معزولة عن أعين الغربيين " ، ولكنه عبر فى نفس الوقت عن أمله فى أن " الأوربيين سوف يكملون بلا شك اختراق شبه الجزيرة العربية " حالما تتوفر ظروف أكثر ملاءمة من الظروف السائدة فى الزمن الذى نشر فيه كتابه. وإذا قدر لهوقارث أن يعيش فى زماننا وأن يعد طبعة معدلة لكتابه ، ربما بدأها قائلا بأن فترة الثمانية وعشرين عاما التى انقضت ، تفوق أي فترة أخرى طولا فيما قدمته من جهد لاكتشاف شبه الجزيرة العربية للعلم الغربي . وشبه الجزيرة هذه "إذا حصرت فى أضيق أبعادها وهو خط العرض الثالث عشر ، فإن مساحتها تبلغ مليون وربع ميل مربع " . ولن ينسى أن يشير إلى معضلة القرون التى تظهر على خرائط شبه الجزيرة العربية كقطعة بيضاء تسمى الربع الخالى . وقد أزال عنها الستار مؤخرا رحالتان بريطانيان هما بيرترام توماس (Thomas) وفلبى (Philby) (١) .ولكن بالرغم من الظواهر المشجعة التى تنبئ بأن الجهل بشبه الجزيرة العربية في انحسار ، إلا أن الكاتب إذا راجع فصله عن " شبه الجزيرة العربية المجهولة " وسجل المعرفة الجديدة التى تم التوصل إليها ، فسوف يبدى عدم رضاه عندما يقول : "ولكننا نعرف عنها أكثر من معرفتنا بالقطب المتجمد " .

إن الجهل بجانب كبير من هذه الأرض ، يعزى إلى فقر وجفوة تربتها ، مما يلقى على الرحالة أعباء جسدية وذهنية ثقيلة ، فى الوقت الذى لا يوجد فيها ما يبشر إلا بمزايا قليلة بالنسبة للاستثمار الغربي . ولكن العلم الغربي لا يسعى لاهثا فقط وراء الربح المادي ، ولا تعوق أهدافه البعيدة المدى الصحارى الجرداء . على أن قسوة الطبيعة ليست وحدها هي التى تعوق الرحالة فى شبه الجزيرة العربية ، بل لعله تخوف سكانها

من الأجانب ، الذى اتخذ شكل تعصب ديني . وقد دفع العديد من البـــاحثين الأوربييــن أرواحهم ثمنا لهذا التعصب .

وفى هذا الصدد فإن الحرب العالمية كانت لها نتائج غير مباشرة ذات أثر إيجابي بالنسبة للملكية الثنائية فى الحجاز ونجد ، وتوابعها ، فالذى يتمتع بحماية الحاكم الوهابي القوي ابن سعود يمكنه أن يسافر ويستكشف فى أمان . وتنطبق نفس المـــيزة علـــى الذيــن يستضيفهم الإمام يحيى القابض على زمام دولته. كلاهما حاكم مستنير ويدرك لحد مـــا أهمية الكشوف العلمية بالنسبة لبلاده . ففتحا الأبواب للزوار من الغرب، تحت شـــروط محددة يحفها الحذر. وبالتدريج أخذ مواطنوهما يعتادون ، بل وأخـــذوا يـــألفون أولئـــك الأغراب الدخلاء ، الذين كانوا يشمئزون منهم فى الماضي .من الجانب الآخـــر، علـــى الأجانب فى المناطق الشاسعة من شبه الجزيرة العربية التى لا تخضع لحكام أقويـــاء أن يشتروا فى أحسن الأحوال بعض الضمانات ، لكنها ليســت دائمــا مأمونـــة الجـــانب لا بالنسبة لسلامة أرواحهم ولا سلامة ممتلكاتهم . وغالبا ما يكتشف الأجنبي بعد مســـيرة بضعة أميال ، أن السكان ينقسمون إلى عدة كيانات سياسية صغيرة فى عداء مع بعضها البعض ، وأنه مرغم فى كل مرة أن يتفاوض مع زعيم جديد لقبيلة أو مقاطعـــة ، هـــذا عندما لا يقف تعصبهم الديني عقبة ويمنعونه بحزم من المرور بأرضهم .

تنتمى لهذه المناطق غير المضيافة – أو بالأصح كانت تنتمى حتى وقت قريـــب جـــدا – مجموعة الوديان التى تمتد فى وسط وجنوب شبه الجزيرة العربية ، محاذيـــة للســـاحل الجنوبي وتفصلها عنه سلسلة من الجبال ، وهي بلاد حضرموت . وقد ورد الاسم فـــى "سفر التكوين" . واشتهرت حضرموت فى الأزمان القديمة بتصدير البخور والمرّ . وتدل آثار ونقوش الفترة التى سبقت الإسلام على ماض عريق ورخاء .

لكن رخاء الأيام الخوالى قد ولى منذ قرون تحت وطأة ظروف غير مواتية ، وخلفه دمار يبعث على الأسى . صحيح أن الإسلام وجد طريقه منذ وقت مبكر إلى هذه البـــلاد ، وأن العلم الإسلامي قد شكل، ضمن أشياء أخرى ، طبقة بين السكان من التابعين المتفـــلتين ، ولكن النسق السياسي لهذا الدين لم يفلح فى أن يجعل من حضرمـــوت أرضـــا آمنـــة . فالحروب القبلية التى مزقت الناس ، جعلت البلاد مغلقة عمليا أمام الـــزوار الأجـــانب ،

حتى ولو كانوا مسلمين . ومنعت السكان فى نفس الوقت من استغلال أرضهم حسب جهدهم وهم فى أمن وأمان . وبما أن الحضارم لهم قدرة حققوا بها نجاحا فى ظروف الاستقرار ، فقد أخذت أعداد كبيرة منهم تتسرب منذ قرون إلى اليمن ومصر وسوريا . ثم اتجهوا فى القرون الثلاثة الأخيرة إلى الهند وجزر الهند الشرقية . ومن بين كل أجزاء الجزيرة العربية فإن حضرموت هي موطن الهجرات الأول .

نجح الحضارم فى الأزمان الغابرة فى تأسيس سلطنات فى جاوا (مثل : سياك ، بونتياك) . ولكنهم اقتنعوا الآن بالتجارة والمعاملات المالية . وبعضهم أثرى وعاد إلى بلاده . وآثر بعضهم الآخر أن يستمتع بعيدا عن اضطرابات حضرموت ويمارس المتع التى لا تتوفر هناك . ويبلغ عدد الحضارم فى جاوا بين سبعين وثمانين ألفا وبينهم مليونيرات . وفى عام ١٨٨٦ نشر ل. سى. فان دن بيرخ (Van den Berg) – مستشار حكومة هولندا فى جزر الهند الشرقية – كتابا احتوى على أرقام عن استيطان الحضارم فى أرخبيل الهند الشرقية . واحتوى كذلك على وصف للأرض الأم لأولئك المهاجرين . وقد جمع معلوماته من الحضارم فى جاوا . وهناك محاولات فى القرن التاسع عشر للتعرف على هذه الأرض المتميزة عن طريق الفحص الشخصي ، لكنها لم تأت بالنتائج المرجوة .

قال "هوقارث" فى الفصل عن اكتشاف "الأراضى الحدودية الجنوبية" إن حضرموت أكثر جزء مهم فى تلك الأراضى . وقال إنها بقيت لفترة طويلة مصدر يأس للباحثين فى تاريخ وجغرافية شبه الجزيرة العربية . وقد أثرى الرحالة المقتدرون مثل فون فريده (Von Wrede) و"هيرش" (Hirsch) و"بينت" وزوجته (The Bents) معرفتنا كثيرا بالساحل وبمنعرجات الطرق إلى المكلا والشحر ، التى لا بدّ من اجتيازها حتى نتوغل إلى حضرموت الداخل . و نشأت هنا مؤخرا بيروقراطية نشطة لحد ما ، وهي تقع عمليا تحت الحماية البريطانية ، ولا تضع عراقيل كثيرة أمام الزوار الأوربيين . وبالرغم من أن نفوذ سلطان المكلا يمتد أيضا إلى جزء صغير من المنطقة الداخلية ، إلا أن حضرموت الداخل تقع خارج نطاقه ، وأغلب أمراء الإمارات المختصمين مع بعضهم البعض ليسوا ميالين إليه (٢) . ولذلك فإن الرحالة السالف ذكرهم ما استطاعوا إلا أن

يلقوا نظرة عجلى على جزء صغير من ذلك الوادي الغامض. والذين نجحوا منهم في الوصول إلى مدينة حضرمية ، سرعان ما طردوا منها ويكون من حسن طالعهم إذا استطاعوا أن ينجوا بحياتهم . وأي رحلة هادئة إلى الجزء المأهول من البلاد محفوفة بالصعاب . ومن العصيّ على الرحالة البحث عن أسرار "بئر برهوت" ، ذلك المكان الملعون الذى يعتبر مقرا مؤقتا لأرواح الكفرة ، والذى تنبعث منه غازات سامة . ومن العصيّ أيضا الحجّ إلى المكان الذى كان مقدسا قبل الإسلام والذى يعتقد الحضارم أنه قبرالنبي هود .

بعد أن استعرض هوقارث بدقة ما أنجزه وما لم ينجزه كل من "فريده" و"هيرش" و "بينت" وزوجته، اختتم حديثه بملاحظة صادقة قائلا : "سوف يزور حضرموت لاحقا، أي شخص يجد حماية تامة ويجد عونا دافقا فى سعيه، مثلما وجد "قلاسر" (Glaser) فى رحلته الكشفية إلى مأرب واليمن . ثم استمر يقول : "إن الاهتمام بحضرموت يجب ألاّ يتراجع ... ويقال إنها المكان الوحيد لنشاط بركاني فى أرض شبه الجزيرة العربية ؛ ولكن على الرحالة أن يشاهد دخان بئر برهوت ، ذلك المكان الذى صبّ عليه "علي" لعنة كبرى ، حسب (Jihan - Numa) . ويضاف إلى ذلك كما يبدو أن لمجتمعها خصائص متميزة تشكل اهتماما كبيرا للدارسين للحياة السامية ."

حتى الآن نحن ما زلنا فى عام ١٩٠٤، وفى عام ١٩٣١ لم نمض بعيدا .

لقد اقتنع فان در ميولين خلال السنوات الخمس التى قضاها فى منصب قنصل ثم قائما بالأعمال فيما بعد فى جده ، أن الوقت قد حان لتوسيع نشاط البعثة الهولندية إلى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية ، بجانب مملكة ابن سعود الثنائية ، وإنه من مصلحة هولندا إقامة علاقات وديّة مع الإمام يحيى فى اليمن ، وإذا أمكن أيضا أن يضمن استقبالا مناسبا لممثل هولندا فى حضرموت ، وهى موطن كثير من العرب الذين يعملون بجدّ ويجدون لهم حظا فى ممتلكات هولندا فى جزر الهند الشرقية(٣). وحصل على موافقة حكومة هولندا للقيام بهذه المهمة ، وكانت الموافقة مصحوبة بحذر فيما يختص بحضرموت ، وهذا أمر طبيعي . وكان التفويض الذى حصل عليه من حكومة عدن من شأنه أن يضمن له دخول المنطقة الساحلية فى يسر ، أما أن ينجح فى الوصول إلى

حضرموت الداخل ، فهذا أمر لا يمكن التنبؤ به بأي درجة من اليقين . بالرغم من أن نفوذ البريطانيين قد ازداد بعد الحرب العالمية ، إلاّ أنهم حصروا صلاتهم المباشرة في تلك البلاد بوجه خاص على الاستطلاعات الجوية التى حصلوا منها على صور فوتغرافية رائعة .(٤)

حتى هنا فى حضرموت فإن الأوضاع قد تحسنت قليلا منذ المحاولات الأخيرة التى تمت لاكتشافها. فقد ازداد عدد الحضارم الذين أثروا فى جاوا ، وأصبح الكثيرون منهم رعايا لحكومة هولندا . وأصبح من الممكن فى حضرموت الاستفادة من العلاقات الدولية الطبيعية فى دائرة أكثر اتساعا مما كانت عليه قبل ربع قرن مضى . ولكن لسوء الحظ ما زالت هذه البلاد تفتقد الوحدة المطلوبة لتأمين ينابيع الرخاء وتأمين سلامة الأرواح والممتلكات . وفى هذا الصدد فإن العادات البربرية الجاهلية مازالت سائدة . وكان على فان درميولين" لاجتياز هذه الصعاب ، أن يعتمد على التجربة التى اختزنها من وضعه الأول عندما كان موظفا فى حكومة هولندا فى جاوا ، ثم دبلوماسيا فى شبه الجزيرة العربية فيما بعد، وعلى طلاقته فى اللغتين العربية والملاوية، وعلى شخصيته . كل ذلك مكنه من أن يستفيد إلى أقصى مدى من الأوضاع التى تحسنت . وبحق فقد كانت رحلته عبر حضرموت إنجازا ظافرا .

من الواضح أن رحلة فان درميولين كانت لحدّ ما رحلة استكشافية . وكان التفويض الذى حصل عليه سياسيا ، وما كان فى مقدوره فى الفترة التى حددت له ، أن يضيف معها أبحاثا جغرافية وإثنوغرافية متميزة. ولكن إذا استطاع أن يخترق حضرموت ، وأن يجعل من ذلك النجاح خدمة للعلم، فقد حقق ذلك بفضل تعاون صديقه الجغرافي الألماني فون فيسمان (Dr. von Wissman) . ولم يأل الصديقان جهدا فى الاستفادة من الأسابيع الستة وتمكنا من تكريسها لرحلتهما إلى الساحل والداخل . واستطاعا أن يكسبا عطف شخصيات ذات نفوذ مما شجعهما فى عملهما . وتمكنا ليس فقط من التعرف على المدن الرئيسية ، ولكن أيضا من الكشف النهائي عن بئر "برهوت" ، وحصلا على معلومات مفصلة عن البقعة المقدسة بالنسبة للحضارم ، التى يحج إليها أعداد كبيرة من السكان خلال ثمانية أشهر من السنة الهجرية . وفحصا بدقة متناهية الآثار ، وأخذا العديد من

الصور ، وتمكن "فون فيسمان" من جمع معلومات موثّقة مكّنته من رسم أول خريطة لحضرموت ، تعتمد على المقاييس والمسح . ولم يطردا من البلاد تصحبهم اللعنات كما حدث للذين سبقوهم ، بل كانت تتردد فى كل مكان التمنيات بعودتهم سريعا بسلام .

ويقع على عاتق الرحالة الذين جاءوا من بعدهما أن يكملوا ما بدآه فى وقتهما الضيق ، حتى يكتمل وصف شامل لخصائص بلاد حضرموت وسكانها . ومازالت نفس الملاحظة تنطبق على شبه الجزيرة العربية الشاسعة . ونأمل أن الطريق الذى أضاءه فان درميولين وفيسمان سوف يمضى فيه أشخاص متفانون فى خدمة العلم ولهم استعداد وامكانيات أفضل ، ويوسعون الأبحاث الجريئة التى بدآها .

وسوف يكون محزنا أن يسير فى ذلك الطريق ليس البحّاثة الحاذقون ، بل من هم على نقيضهم مثل "هلفريتز" (Hans Helfritz) ، الذى جاء بعد فترة وجيزة من الرحلة الموصوفة فى هذا الكتاب ، ونجح بضربة حظ أن يقوم برحله خاطفة ومعه آلة تصويره إلى المنطقة الساحلية ومدينتين فى الداخل ، وظهرت الصور التى التقطها فى عدد من الصحف الأوربية فى مارس وإبريل عام ١٩٣٢ . هذا "الباحث" لا يعرف اللغة العربية ، وغير ملم إطلاقا بالبلاد العربية وأهلها ، ويجهل ما حققه الرحالة الذين سبقوه إلى شبه الجزيرة العربية وخاصة إلى حضرموت . ولم يسمع حتى بالذين سبقوه بفترة وجيزة ، لأنه يتحدث عن نفسه باعتباره مكتشف مدينة "تريم ... التى لم تطأها قدم شخص أبيض من قبل" على حدّ قوله . ويسمى سكان حضرموت المتوحشين ويتحدث عن أكلة لحوم البشر فى شبه الجزيرة العربية . وأسوأ ما فى الأمر أنه يعطى وصفا لرحلة عودته إلى المكلا ، التى إذا صدقت الأحداث التى أوردها فهي تبرهن أنه يفتقد الدماثة فى اختلاطه بأهل البلاد . مثال ذلك : عيّن أحد الزعماء خمسة من البدو ليتولوا إرشاده، ويقال إنهم هددوا بقتله، ولم ينقذ حياته إلاّ انفجار بعض النسوة العابرات بالضحك . وبينما نقدر ملكات " هلفريتز" كمصور فوتوغرافي ، علينا أن نعترف بها إذا كانت حضرموت ما زالت مغلقة أمام جوابى الآفاق غير المقتدرين . إن هذا "المؤرخ للموسيقى" الذى تمثل نوته الموسيقية نغما نشازا أكثر من كونها سيمفونية لبيتهوفن ، عليه أن يترك استكشاف شبه الجزيرة العربية للمؤهلين للمهمة الذين باستطاعتهم توسيع معرفتنا

بالبلاد وتحسين موقف الأهالى نحو الأجانب . إن رحلات مثل رحلة "هلفريتز" لا يأتى منها إلا الضرر .

لقد وضع فان درميولين وفون فيسمان أساسا متينا للتعرف على حضرموت بدقّة . ومهدّا السبيل للرحالة من بعدهما ، الذين إذا كانت لهم نفس صفات التواضع والأمانة ، ونفس الفهم لنفسية الرجل العربي ، يمكنهم أن يكملوا المهمة . كما غرسا بمسلكهما بذور الاحترام والتقدير لأوربا. وأتمنى أن يكافأ كل منهما على عملهما الجاد بالتقدير العميق الذى يستحقه تفانيهما .

ليدن ، إبريل ١٩٣٢

هوامش

(١) بيرترام توماس وفيلبي من أشهر الرحالة الأوربيين

(٢) اللقب الرسمي للسلطان هو : سلطان دولتي الشحر والمكلا

(٣) يشير هنا إلى أحد الأهداف الأساسية للرحلة وهو توثيق علاقة هولندا مع حضرموت

(٤) وقعت بريطانيا معاهدة الحماية مع السلطان القعيطي عام ١٨٨٨

تقديم المؤلف

كانت لي تجربتى مثل كثير من الرحالة الذين ألفوا كتبا . لقد بذلت كثيرا من الجهد والصبر حتى استطعت أن أستكشف منطقة مجهولة . ولكن كان تنسيق ونشر المادة التى جمعتها ، أكثر الجوانب مشقة فى كل المشروع . وبما أن رفيق دربي قد تركنى بعد أن فرغ من خرائطه ورسوماته ، فقد واجهت مهمة شاقة فوق التصور . ولولا عون أصدقاء أوفياء فى المركز الهولندي للدراسات الشرقية ، وجامعة ليدن ، وبالذات برفسور "هورقرونج (C. Snouck Hurgronje.) ، والدكتور "آرندونك" (C . van Arendonk) ، والدكتور "كرامرس" (J.H. Kramers) ، لما استطعت أن أصل بهذه المهمة إلى نهايتها الناجحة . وقد وقع جانب كبير من ذلك العبء على الدكتور آرندونك، فقد أخذ على عاتقه مشقة مضاهات وضبط التهجئة لأكثر من ٢٠٠٠ إسما جغرافيا ظهرت فى الكتاب والخرائط . لقد أعاننى بإخلاص دون منة فى هذا الجهد الذى يفوق قدرتى على الثناء .

وبرزت مشكلة أخرى ، وهي كتابة النص باللغة الإنجليزية . وكنت سعيد الحظ بالمساعدة التى لقيتها من "مس باربر" (Miss M. Barber.) من "الهيج" ، التى استطاعت بتفانيها أن تجتاز مهمة الترجمة الشاقة . وتكرمت "مسز ديوفنداك" (Mrs Duyvendak) من ليدن بوضع اللمسات الأخيرة والمساعدة فى مراجعة المسودات .

ومن بين المستشرقين الهولندين فإن البرفسور "هورقرونج" له معرفة شاملة ومفصلة عن حضرموت. وهو يدرك أكثر من أى شخص آخر ، أن عملنا كان طابعه تحضيريا عاما . ولكن التقدير الذى لقيته منه هو جائزتى الكبرى . فإليه أستاذى الذى علمنى لغة ودين العرب أهدى بكل تواضع نصيبى من هذا الكتاب عرفانا منى .

وأتقدم بالشكر إلى وزارة الخارجية الهولندية لمساهمتها فى إخراج هذا الكتاب . فما كان لهذه الرحلة أن تتم أبدا بدون التفويض الرسمي من وزارة الخارجية . ليس هذا فحسب ، بل منذ صدور ذلك التفويض وأنا أتلقى المزيد من الدعم والتقدير من وزارة الخارجية أكثر مما كنت أتوقع . ولكل هذا أتقدم إليهم بعميق عرفانى .

وأتمنى أن يحظى هذا الكتاب باهتمام السلاطين والسادة والشخصيات المرموقة الذين اتصلنا بهم فى حضرموت . فأصدقاؤهم "حرمل" و"القنصل" يعتزون بذكريات الأحاديث الثرى ، وبالكرم الفياض والمودة ، وفوق كل شيىء بالثقة التى أبدوها نحو الأجانب من الغرب .

وعسى أن تجد خريطة "فون فيسمان" ورسوماته قبولا من الحضارم فى داخل البلاد وخارجها

فان در ميولين

ليدن -- مايو -- ١٩٣٢

مقدمة

عرض تاريخي موجز لمجهودات الرحالة فى حضرموت

الجزيرة العربية بلاد عظيمة . عظيمة فى اتساعها وعظيمة فى تاريخها . ورغم ذلك فهي تبدو من الوهلة الأولى أنها تفتقد السحر والإغراء ، وأنها دائما تقاوم من يسعى إلى الاقتراب منها . وتتحدى صخورها الجرداء أكثر المتسلقين جرأة . وياله من لهيب حار ذاك الذى تضطرم به تلك القمم الشماء الملتهبة التى لا يسقط عليها ظل . ولكم تتسم ألوانها الداكنة السوداء بالقسوة فى أرض تشعّ بالضوء والحرارة . وعندما نقترب من شبه الجزيرة العربية نلمح أيضا سهلا رماديا وبحرا من الرمال يضطرم بأمواج عالية محدوْدبة ساكنة لا حراك فيها . والهواء الذى يهب على تلك الأرض يرتعش فيحيل أي شيء غائما ومعالمه غير واضحة . والسماء لا لون لها مثل الرصاص المصهور الذى يؤذى النظر. الجزيرة العربية عظيمة وغامضة ، ولكنها لا تغرى ولا تسحر الذى يعبر صخورها الجرداء الملتهبة وشعابها الساحلية .

ورغم أنها كالبحر الشاسع الذى يبعث على السأم ، إلا أن صحراء الجزيرة العربية لها تأثير ساحر لا يفسر ولا يقاوم بالنسبة لكل من يلج أرضها الممتدة الصامتة . ولا يأخذ بك ذلك السحر دفعة واحدة، وإنما يأتى ببطء وبعد التحلى بأعلى درجات الصبر والمحاولات الدءوبة . وبعدها يتكشف للإنسان بالتدريج جلال الجمال الملهم لهذه الأرض ، وصلابة أهلها وشجاعتهم الصامدة ، وإيمانهم الذى لا ينازعه الشك . ثم يشرق على الإنسان إدراك غائم بكنوز الحضارة التى تراكمت لكل البشرية، والتى تحكى عن الصراع الدائب ضدّ قوى الطبيعة القاسية الصارمة .

لقد انكشفت أسرار كل مناطق العالم لأعين الغربيين الفاحصة ، ولكن الجزيرة العربية ما زالت تحمى أسرارها . فالمسيحيون المحتقرون والمكروهون لا يسمح لهم إلا نادرا بدخول هذه الأرض التى اختارها الله مهبطا لآخر أنبيائه ، فلم تنجح إلا أعداد قليلة من اختراق حدودها . ولكن لن يمضى وقت طويل حتى يتم اختراق الجزيرة العربية طولا وعرضا . وتكتشف آثار المعينيين والسبئيين والحميريين فتحكى عن فصول جديدة لتاريخ الحضارة الإنسانية وهى لمّا تزل فى مهدها .

وقد حقق اكتشاف الجزيرة العربية حتى الآن تقدما بطيئا وشاقا . وفي الواقع فـإن عمـر تلك الاكتشافات لا يتعدى قرنين ونصف . وخلال تلك الفترة فإن الرحالة الذين جابوا تلـك البلاد قد تعاقبوا على فترات متباعدة . و شدّ انتباههم منطقتـان ، همـا الحجـاز أرض الحرمين مكة والمدينة ، واليمن التى سماها الرومان "اليمن السعيدة " والتى تزخر بتـاريخ الحضارات القديمة .

ولم تبق فى الحجاز أسرار بالنسبة للغربيين . فرحلـة نيبـور وجماعتـه عـام ١٧٦٣ وضّحت الأمر وفتحت الطريق (١). وقام بيركهارت قبـل قـرن بـأول مهمـة علميـة كشفية(٢) . وأعقبه بيرتون (٣). وفى عام ١٨٨٤ – ١٨٨٥ قام البرفسور "هورقرونـوج" متخفيا تحت اسم "عبد الغفار" بأبحاثه في مكة . وقد أرغمته شكوك أحد الأوربيين الأغبياء فى جده على ترك عمله والعودة إلى بلاده . ولكنه تمكن من إنقاذ المادة التى جمعها لكتابه الكلاسيكى"مكة" الذى لا يضاهى . ودون التقليل من أعمال الرحالـة الآخريـن ، فـإن الرحالة "داوتى" (Daýoughty) يستحق التنويه. فقد ظل متجـولا مـدى عاميـن فـى الصحراء يقاسم القبائل البدوية شظف العيش ، حتى وصل إلى حافة المجاعة عندما حـلّ بشمال الجزيرة العربية.ونجا هو وزوجته من الموت بأعجوبة عندما اقتربـا مـن مكـة. وكتابه،الذى حظي مؤخرا بالتقدير الذى يليق به،هوفى الحقيقة ملحمة عـن حيـاة البـدو الرحل .

وأجرى "قلاسر" (Glaser) أبحاثا عن اليمن لبضع سنوات . لكنه عاد إلى بلاده قبـل أن يكمل إعداد مادته الغزيرة القيمة . وبدأت تتخذ أخيرا الخطوات لنشر تراثه العلمي . وكان بيركهارت قد قتل وهو فى خضم حركته الكشفية . وقبلـهما سـافر "هـالفى" (Halevy) متنكرا فى شخصية يهودي يمني وجاب المناطق غير المطروقة فى الجـوف ونجـران ، وأتيحت له الفرصة لرؤية أرض سبأ وبقايا آثار سدّ مأرب الشهير . لكنه عاد مبكرا، ولـم ينجز أكثر من إزاحة جانب من النقاب الذى مازال يغطـى أرض "مملكـة الجنـوب" . وبالرغم من الإنجاز العظيم الذى قام به العديد من العلماء المقتدريـن ، إلا أن الأعمـال القياسية عن اليمن سوف تأتى ولعلها تظهر قريبا كانت حضرموت فى وقت مـا وثيقـة الصلة باليمن . ويعود الاسم فى الواقع إلى وادى حضرموت ومدن القطن وشبام وسـيؤن

وتريم . وكان هذا الوادي فى عهد السبئيين يمتد عدة أميال فى عرضه وتغطيه تربة خصبة مكونة من مزيج من رمل وطين ، وكان بحق جنة على الأرض وذلك بسبب النظام المتطور جدا للخزانات وقنوات الري . وتمتد المناطق المحيطة جنوبا حتى المكلا والشحر على ساحل المحيط وتشمل الاسم الأكثر شهرة : "حضرموت" . وفى الصفحات التالية ، عندما نعنى "حضرموت الداخل" فسوف تستعمل هذه الكلمات .(٤)

ظهر الاسم منذ القدم فى سفر التكوين (الفصل العاشر ، ٢٦). وهناك عدة آراء حول معنى الاسم ، لكن لم يتم التأكد علميا من أي منها . والحضارم أنفسهم لهم عدة اجتهادات حول أصل الكلمة وتاريخها . ولعل أكثرها قبولا لديهم ما يتصل بنبيهم هود . فقد كانت آخر كلمات هود عندما وصل نهاية رحلة عمره ولم يستجب أهل عاد لدعوته أن قال "حضر الموت" ، وهو يشير بهذا التعبير إلى قرب أجله كما يشير إلى نهاية قوم عاد الذين دمرهم الله . (٥)

كانت حضرموت فى عهد الرومان ضمن "اليمن السعيدة" . ألم تكن فى ذلك الحين هي أرض الصبر والمرّ والبخور ؟ ألم يكن الطريق التجاري المهم من الهند إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط يمرّ بموانئ جنوب الجزيرة العربية عبر حضرموت واليمن ومنها إلى مصر وسوريا ؟ (٦) ولا شكّ أن حدود مملكتا السبئيين والحميريين قد امتدت حتى وديان حضرموت . وعندما انهارت المملكتان واختفى نظام الري الرائع ، وانتهت الحضارة ، احتفظت الصحراء بالسر فاحتضنت أعمال الري العظيمة لمدى قرون تحت كثبان الرمل التى تراكمت تدريجيا بفعل رياح الصحراء المحرقة . وانفرط عقد الوحدة ، ولم تستطع الشعوب المتحضرة أن تحافظ على بقائها ، واحتل أبناء إسماعيل مكانهم . ومنذ ذلك الوقت عانت اليمن وحضرموت من حياة الفقر وتحطمت العلاقة المثمرة بين المنطقتين . ووجه "فلاسر" ناظريه نحو وديان حضرموت ، ووضع بالفعل أول خريطة كروكية للمنطقة بين اليمن وحضرموت مستعينا بالبيانات التى جمعها من أفواه البدو. ولكن أدرك قلة من الرحالة الذين يريدون البحث فى حضرموت أن الطريق إليها ليس عبر اليمن وإنما عن طريق الموانى على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية .

يعتبر "فريده" أول رحالة علمي ينجح في التوغل في منطقة حضرموت وفي جمع مادة غزيرة وقيّمة . ومعلوماتنا عن هذا الرجل الفذ قليلة . قال عنه "مالتزان" (Heinrich F von .Maltzan) الذى حقق كتابه، إنه ولد فى "وستفاليا" وعمل فى ربيع عام ١٨٣. ضابطا فى الجيش اليوناني ، ثم فى آسيا الصغرى ومصر . وحوالي عام ١٨٤٣ قام برحلته الخالدة . ويبدو أنه عاد مؤخرا إلى مصر لينشر سجل رحلاته . ولم يتمكن من نشر أعماله فى بلاده لأنه كان يعتبر لدى بعض ذوى الشأن مخادعا وتقاريره جامحة الخيال ولا تصدق . وكاد "فريده" أن يحظى باعتراف علمي فى إنجلترا حيث أدرجت الجمعية الجغرافية الملكية خلاصة لتقريره فى مجلتها . وتم العثور على ناشر ، لكن لسوء الحظ انتحر المترجم الذى كان يقوم بترجمة التقرير . ولم يعثر إلا على نصّ التقرير فقط، أما الخرائط والرسومات الملونة فقد ضاعت .

أدار "فريده" ظهره لأوربا بعد أن أصيب بخيبة أمل كبيرة . وعند زيارتنا لحضرموت أشار البدو المرافقون لنا إلى كومة من الحجارة فى مكان ليس بعيدا عن المكلا ، وقالوا إنها مقبرة لرجل مسيحي قتل قبل مائة عام عندما حاول التوغل فى بلادهم . واعتقدت ورفيقي أنهم يقصدون "فريده" الذى ربما لقي خيبة أمله الأكبر فى تلك البقعة . و اكتشفنا بعد الاستقصاء الدقيق أن "فريده" استقر أخيرا فى الجيش التركي ومات فقيرا ومجهولا فى مستشفى فى استنبول لقد اقتفينا لبعض الوقت طريق "فريده" فى رحلتنا فى الغدو والرواح . واستفدنا كثيرا من مذكراته المفصلة وخريطته . لكن لدينا تحفظا حول الرحلة التى ادعى إنه قام بها من الخريبة في وادى دوعن إلى عمد وحورة وسهوة وباه السافى ثم عودته إلى عمد والخريبة. وأثبت فون فيسمان عند مسحه لوادي دوعن أن "فريده" قد وصف الوادي وصفا مختلفا عن حقيقته ، حيث وضع القرى التى تقع فى أعلى المجرى من وادى عمد فى أسفله ، ووصف العقبة التى تقود من عمد إلى الجنوب بأنها انحدار متدرج، وفشل فى كل أجزاء وصفه ، مما جعل فون فيسمان يقتنع تماما أنه لم يقم بتلك الرحلة . أما قصة مغامراته حتى حدود بحر السافي ، حيث غاص مقياس رسمه فى رمال متحركة ، فمصدرها الأقاصيص التى سمعها من وادى دوعن عن القوافل التى تغرق فى الرمال أوفى بحيرات الملح التى تغطيها طبقة من الرمال . أما تحقيقنا للأجزاء

الأخرى من رحلته حتى صيف فى وادى دوعن وهى آخر مكان فـــى رحلتـــه شـــمالا ، ووادي حجر ، فإن وصفه للأرض جيد ودقيق . وما زلنا نرى فى "فريده" الرحالة الأعظم فى حضرموت . فقد ألهب التجربة. والذين جاءوا من بعده قدموا أقل مما قدم.

وتمضى الأعوام حتى يناير ١٨٩٣ عندما جاء رحالة آخر وحـــاول أن يقتفـــى نمـــوذج "فريده" اللامع ، ولكنه نموذج أفضى إلى خيبة أمل إثر أخرى . هذا الرحالة هـــو "ليـــو هيرش" (Leo Hirsch) الذى نشر تجاربه عن تلك الرحلات عام ١٨٩٧ بعنوان " رحلـــة إلى جنوب الجزيرة العربية ، أرض المهرة وحضرموت " . واستغرقت رحلة "هـــيرش" من الساحل إلى الداخل نصف عام . فقد سافر من عدن إلى الشحر ، ثم إلـــى ســـيحوت وقشن ، ثم عاد إلى المكلا . وهناك تخلت عنه الشجاعة للحظات فعاد إلى عدن . وفـــى عدن تسلح بتوصيات جديدة من السلطات البريطانية ، ورجع مرة أخرى إلـــى المكـــلا . وكان عليه أن ينتظر هناك لفترة شهر حتى يحصل على الإذن بالسفر إلى الداخل . نجـــح "هيرش" أكثر من "فريده" فى التوغل حتى حضرموت الداخل . فكان أول أوربي يشـــاهد مدن شبام وسيؤن وتريم . ولكن ما كان بإمكانه السفر أكثر من ذلك . ولم يمكث ســـوى بضع ساعات مع مضيفه فى تريم، ثم أرغمه السادة بأسلوب لا يخلو مـــن تـــهديد علـــى العودة من حيث أتى.

وبعد "هيرش" حاول :ثيودور بينت " وزوجته القيام برحلة إلى وادى حضرموت . ووصلا المكلا فى ديسمبر ١٨٩٣ وذلك بعد بضعه أشهر من رحلة "هيرش" الناجحة . واســـتطاعا أن يبدءا رحلتهما فى نهاية الأسبوع ، ولكن لم يسمح لهما أن يتعديا شبام . وعليـــه فقـــد تأجلت رحلة النصارى إلى قبر هود وبئر برهوت عقدا من الزمان . و نشرت مسز بينـــت أحداث هذه الرحلة عام ١٩٠٠ .

هكذا نأتى إلى نهاية القائمة القصيرة للرحالة الذين سبقونا إلى حضرموت . ولكنا حصلنـــا على تقرير كتبه ضابطان بريطانيان قاما برحلة إلى حضرموت ، وحسب علمنا فإن نتائج رحلتهما لم تنشر . أما أحدهما وهو "وارنـــر" (W.H.Lee Warner) فقـــد كتـــب مجـــرد "مذكرات عن حضرموت" وكانت ملحقا لمقالة كتبها "كوكـــران" (Cochrane.A.R) فـــى "المجلة الجغرافية". (مجلد :lxxvii عام ١٩٣١ ص. ٢٠٩ -٢٢٢) . وكان "وارنر" قـــد

ذهب عام ١٩١٨ فى مهمة دبلوماسية إلى شبام ولم يتعدها . وقام سرب من سلاح الطيران الملكي فى عدن برحلة كشفية هامة بقيادة قائد السرب "كوكران" ، الذى أعطى فى مقالته سالفة الذكر "استطلاع جوي على حضرموت" انطباعا عن المنطقة التى شاهدها من الجو . فشاهد قبر هود وقام بتصويره ، لكنه لم يتمكن من العثور على بئر برهوت .

ولم يقدر للدكتور " ويلهم هاين" (Wilhelm Hein.Dr) أن تطأ قدماه أرض حضرموت الداخل . فقد وصل عام ١٩٠٢ إلى قشن مصحوبا بزوجته . وعاش هناك شهرين فى شبه أسر ، ولكنه استفاد من فترة أسره وجمع معلومات هامة عن حضرموت ضمنها دراسته التى نشرها فى "المجلة الجغرافية" فى فينا عام ١٩١٤.(مجلد ٥٧ ، ص. ٣٢ - ٥٨) .

وقامت الحكومة المصرية بناء على طلب من حكومة الشحر والمكلا بتكليف المستر ليتيلى (Little.H.O) للقيام بمسح جغرافي وجيولوجي للمنطقة غرب المكلا حتى وادى حجر بهدف العثور على ثرواتها المعدنية . وتمخض عن هذا البحث كتاب "جغرافية وجيولوجيا المكلا" الذى نشرته المطبعة الحكومية فى القاهرة عام ١٩٢٥ . ونحن ممتنون لاستفادتنا من الخريطة التى تضمنها هذا العمل القيّم .

ولا يمكن أن ننهى هذه القائمة عن أولئك الذين كرّسوا أنفسهم لاكتشاف حضرموت دون أن نذكر العمل الذى قام به الدكتور "بيرخ" (van den Berg) . فقد قام بتكليف من الحكومة الهولندية، ودون أن تطأ قدماه أرض جنوب الجزيرة العربية ، بتأليف كتابه "حضرموت والمستعمرات العربية فى الأرخبيل الهندي " الذى نشر فى بتافيا عام ١٨٨٦ . وقد استعان فى كتابه بعلماء الحضارم فى بتافيا. واستطاع أن يضع خريطة لحضرموت. ومن الطبيعي أن يكون بالكتاب والخريطة جوانب قصور عديدة ، ولكنه قدّم خدمة جليلة . وقد استعان ضباط سلاح الطيران الملكي بخريطته فى رحلاتهم ، وأدخلوا عليها إصلاحات هامة .

هوامش

(١) نيوبور (١٧٦١ -- ١٨٦٧) رحالة دنمركي . قام برحلة فى القرن الثامن عشر إلى اليمن مع أربعة رحالة أوربيين . ومات أربعتهم بالملاريا . ألف نيوبور ثلاثة مجلدات عن تلك الرحلة . كما ألف الدكتور توركيل هانس كتابا عنها بعنوان : من كوبنهاجن إلى صنعاء ، ترجمة : محمد أحمد الرعدي . (بيروت ، ١٩٨٣)

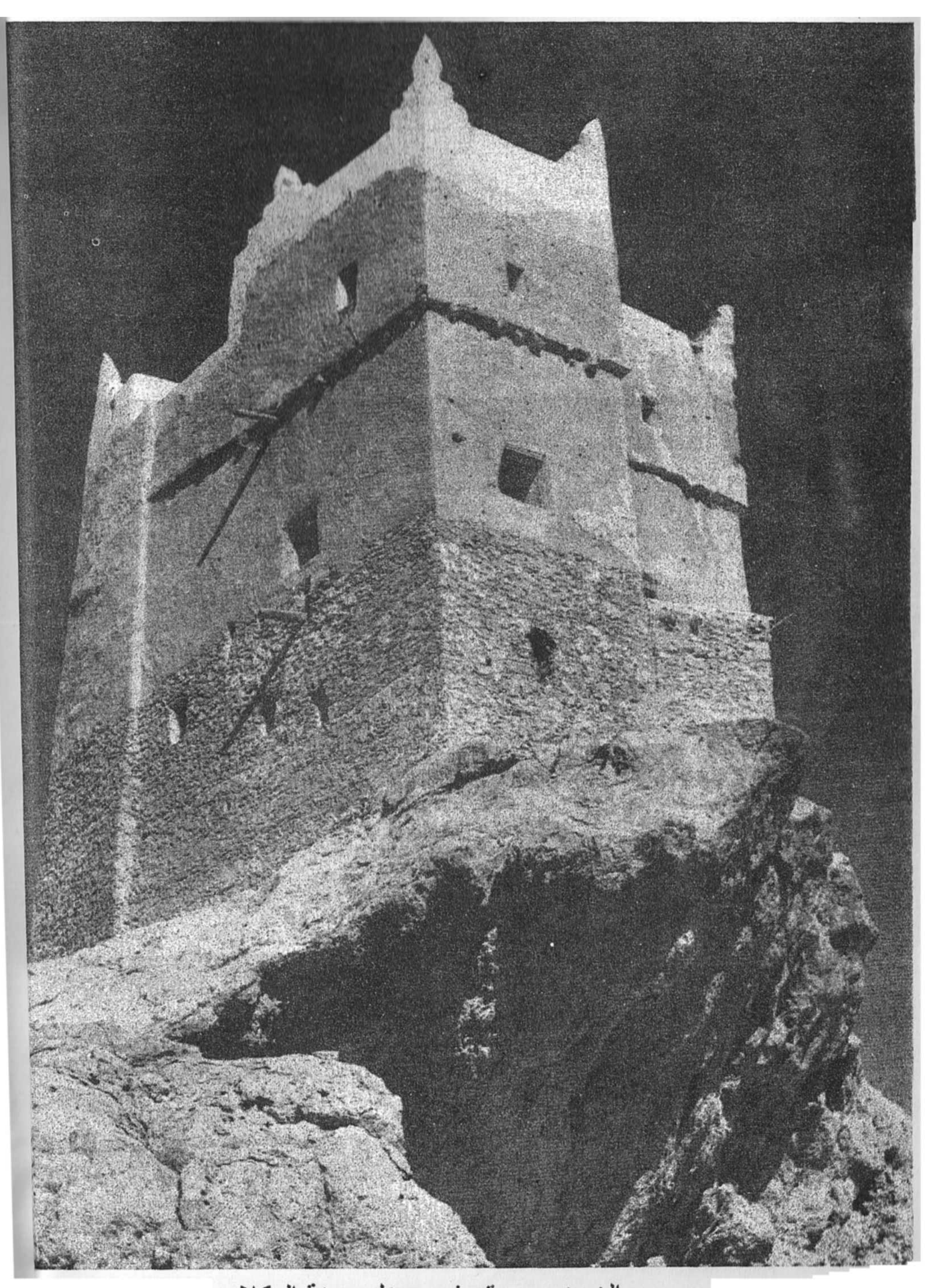
(٢) جون لويس بيركهارت : ١٧٨٤ - ١٨١٨ . رحالة ومستشرق سويسري . قام برحلات في البلاد العربية ، فزار مصر وسوريا ومكة وبلاد النوبة (شمال السودان) .

(٣) السير رتشارد فرانسس بيرتون : ١٨٢١ - ١٨٩٠ . رحالة ومستشرق بريطاني • ذهب إلى مكة عام ١٨٥٣ متخفيا مع حجاج من السند • أول من عرّف أوربا على الساحل الصومالي . على أن أهم رحلاته كانت إلى البحيرات الكبرى فى وسط أفريقيا ، وفتحت الطريق للرحالة الذين جاءوا من بعده .

(٤) أخذ المؤلف بالتعبير الشائع عن حضرموت ، بينما تشمل حضرموت مساحة أكبر من التي حددها .

(٥) هذه أضعف الروايات عن أصل كلمة حضرموت ، فهي لاتستقيم مع الدراسات الفيلولوجية ، لأن اللفظ بهذا النطق من لغة عرب شمال الجزيرة العربية التى لم تنتشر فى ذلك الوقت إلى الجنوب .

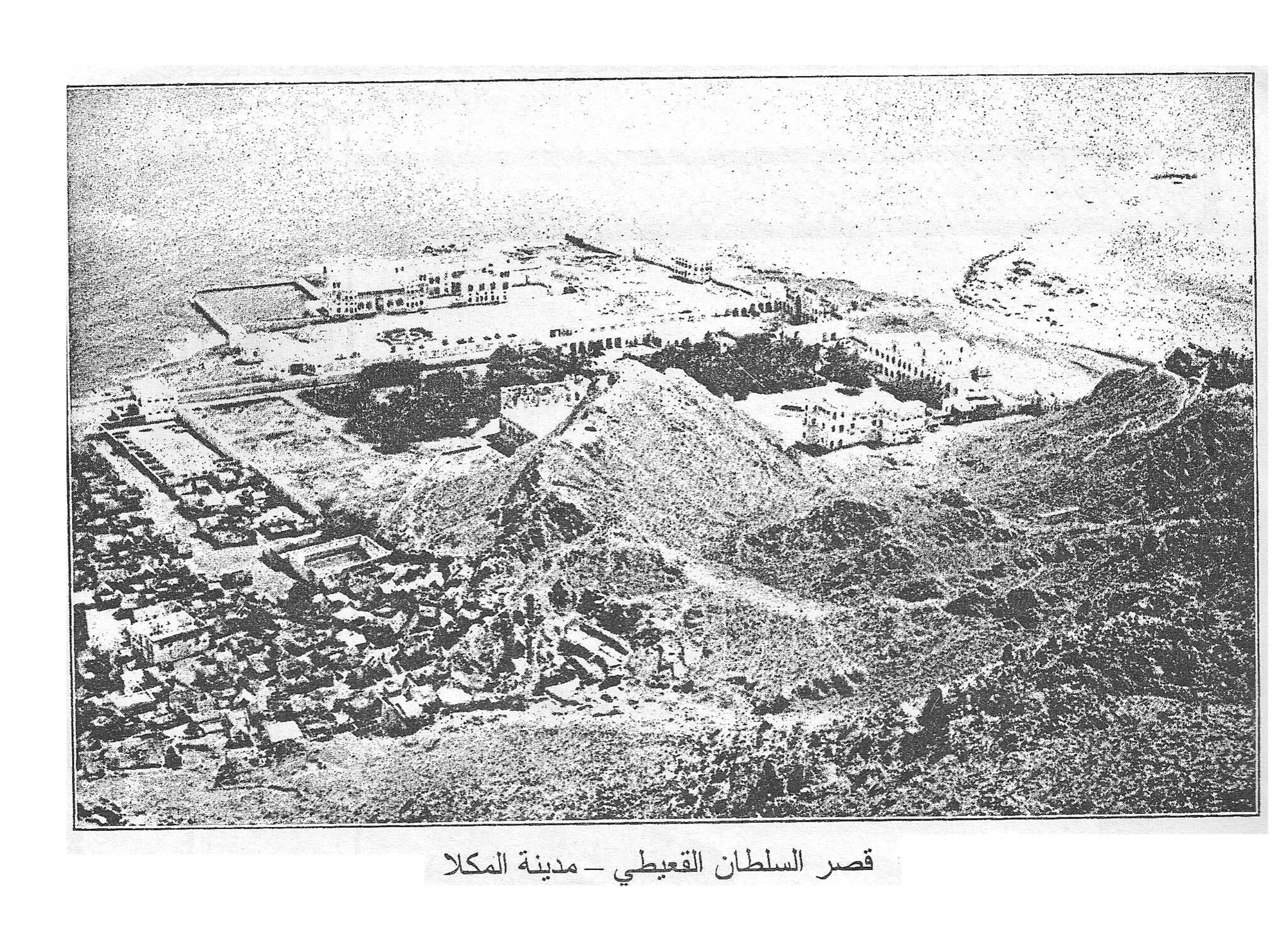
(٦) تذهب الدراسات التاريخية والأركيولوجية الحديثة إلى أن "اليمن السعيدة" تشمل رقعة واسعة فى شبه الجزيرة العربية وليست جغرافية اليمن الحالية . كما أن تجارة المّر والبخور واللبان كان مصدرها إقليم ظفار .



حصن الغويزي – يقع في مدخل مدينة المكلا



الفصل الأول
الرحيل: عدن -- المكلا



قصر السلطان القعيطي – مدينة المكلا

نحن مدينون برحلتنا إلى المكلا للحكومة الهولندية التى أوكلت إلينا تلك المهمة . وسوف تتضح فيما بعد الروابط العميقة بين حضرموت وإندونيسيا ، كما ستتضح رغبة الحكومة الهولندية للتعرف الدقيق على الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى الجزيرة العربية لآلاف العرب الذين يشكلون عنصرا هاما فى النسيج الاجتماعي لتلك البلاد . ولم يتم استيعاب الحضارم فى وحدة الشعوب الإندونيسية ، وظل العديد منهم شديد التمسك بعلاقته مع وطنه الأم ، على أن يعود فىيوم ما وينتظر ساعة البعث والحساب فى تلك البقعة الطاهرة. إن المهمة التى أوكلت للدكتور "بيرخ" ليضع هذا الكتاب ، كانت نتيجة للاحتياجات العملية لتلك الحكومة فيما يخص تنوع الشعوب الإندونيسية. وكان هو نفس الهدف بالنسبة للمهمة التى أوكلت إلينا .

ورغم إدراكي للصعوبات التى واجهت المسيحيين الغربيين للدخول إلى أرض الحضارم المتعصبين ، إلاّ أنه كان لديّ بعض الأمل فى نجاح المهمة ، وذلك لسببين .

أعطتنى السنوات التى قضيتها فى الخدمة المدنية فى حكومة هولندا فى إندونيسيا قناعة بأن الحضرمي ممتنّ من المعاملة التى لقيها من حكومتنا هناك ، ومن فرص ادخار المال الذى ساعده على عبور دروب الحياة . وبصفتى موظفا فى الحكومة الهولندية فى إندونيسيا ، فقد اتضحت لى مشاعر الترحاب بين العائلات الحضرمية التى لها علاقات مع الإندونيسيين ، وكان الحوار الذى يدور بلغة الملايو غالبا ما يحدث العجائب .

والسبب الثانى أننى قضيت عدة سنوات ممثلا لحكومتى فى جدة وهى ميناء مكة المكرمة. وكانت معرفتى بأوضاع المسلمين فى الأراضى المقدسة ، وبالنظام الوهابي الذى رسخه حديثا ابن سعود العظيم فى بلاده . وكان الحديث الذى يدور بلغة الملايو ، سببا فى جذب مستمعين وسط الدوائر التى ليست لها صلة بجزر الهند الشرقية .

وحتى لا تكون الرحلة مجرد مهمة دبلوماسية ، بل تخدم أيضا غرضا علميا ، كان من الضروري أن أصطحب معى رفيق درب يتولى هذا الجانب . وقد وافق الدكتور هيرمان فون فيسمان على المشاركة فى المغامرة فى حضرموت . وكنا قد التقينا من قبل فى جدة ونما بيننا إعجاب مشترك . وقد استقى فون فيسمان تجربته فى الأسفار والبحث مع الدكتور راثجينز (Rathjens.Dr.C) من همبورج ، حيث قاما بالترحال فى الحجاز

واليمن . إن الخريطة الضخمة للمنطقة التى سافرنا فيها ، والاسكتشـــات ، والمعلومـــات الجغرافية والجيولوجية والنباتية ، التى تضمنها هذا الكتاب ، هي من جهده .

فى نهاية إبريل ١٩٣١ ، التقينا فى عدن . وما كان لخططنا أن تكلل بالنجاح لولا تعـــاون السلطات البريطانية . لقد كان "بينت" وزوجته مكتئبين من مسلك حكومة عدن نحوهمـــا . وكان حظ "هيرش" أفضل ، وربما كان حظنا أفضلهم جميعا . فقد وعدنا المقيم السياســـي البريطاني الكولونيل "رايلى" (R ýeilly) بالمساعدة ، وبشرنا بأن حظنا فى النجاح أفضـــل من الذين سبقونا . ونبهنا إلى أن مشكلتنا الكبرى ستكون فصل الصيف الذى يجعـــل وادى حضرموت صعب الاحتمال ، كما سيحل وقت الرياح الموسمية الغربية قريبـــا . وعـــبر أيضا عن اعتقاده بأننا لا نستطيع العودة إلى عدن بحرا عندما يبدأ هبوب تلك الريح ، كما أن الرحلة برا من المكلا إلى عدن ستكون شاقة ومرهقة، وربمـــا مســـتحيلة ، ذلـــك لأن بعض القبائل الساحلية تشتبك من وقت لآخر فى حروب مع بعضها البعض . ولذلـــك رأى "رايلى" ضرورة عودتنا إلى الساحل بنهاية مايو سواء إلى المكلا أو الشحر .

على أن هذه النظرية لا تتفق مع الحقائق . أولا ، تهب الرياح الموسمية الغربية أحيانا مـــا بعد نهاية مايو . ونحن لم نرجع إلا فى نهاية يونيو ، ثم أبحرنا إلى عدن ، وكانت رحلـــة جيدة لحد ما . ثانيا ، علمنا من القبطان ومن التجار فى المكلا أن السفن لا تتوقف عـــن الإبحار فى فترة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، على الرغم من أن الشحن والتفريـــغ محفوف بالمخاطر فى السواحل المفتوحة فى الشحر والمكلا ولا يتيسر إلا خلال ســـاعات محدودة من اليوم ، وبالتحديد فى فترة ما بعد الظهيرة . وخلال الليل تلتجئ الســـفن إلـــى خليج بروم .

وعرفنا الكولونيل "رايلى" بالكولونيل "ليك" (Lake) الذى يعرف الكثـــير عـــن المنطقـــة المحيطة وبقبائلها . هذا الرجل الهادئ له نظرة دقيقة عن البلاد والناس . وكان قد رافـــق الكولونيل "كوكران" والضابط الطيار "ركاردس"(Rickrads) فى رحلتهما الاستطلاعية فوق حضرموت . وقدم لنا معلومات قيمة . وسمعنا منه عن الكولونيل "بسكون" (Boscawens) ورحلة الصيد التى قام بها فى نوفمبر ١٩٢٩ ووصل حتى تريم . ويستحق قنصل هولنـدا فى عدن منا جزيل الشكر .

وفى مساء الأول من مايو أبحرت السفينة الصغيرة " أيامونت" (Ayamonte) مـن ميناء عدن وعلى ظهرها مجموعتنا الصغيرة . وكان معى فقط خادمى صالح الذى رافقنى مـن جدة . كما رافقنى فى رحلة سابقة إلى اليمن ، وبرهن على مقدرته فى الرحلات الشاقة عبر المناطق الغريبة .

وكانت الرحلة ناجحة بالرغم من أن السفينة العتيقة "أيامونت " كانت تسير بسرعة ستة أميال فى الساعة. وقطعنا المسافة إلى المكلا التى تبلغ ٢٣٠ ميلا فى أربعين ساعة . وفى ظهيرة اليوم الثالث من مايو وصلنا إلى المجارى المفتوحة التى تقود إلى المكلا . وخلال اليوم كنا نرى الساحل باستمرار ، ورأيناه أكثر وضوحا صبيحة اليوم الثالث من مايو . وكانت "بئر علي" ببراكينها البنية –السوداء وأمامها كثبان الرمل الصفراء – البيضاء ، كانت تومض فى الشمس تحت السماء المبيضّة – الزرقاء . وهناك منحدرات متصدعة خلف الصخور البركانية ، ويبلغ ارتفاع نتوءات الهضبة الجيرية ...٦٠ قدما. وأخذت الصخور الجيرية تبدو أصغر وأصغر ،واختفت تماما بعد "بئر علي" . وقبل أن نعبر "راس الكلب" كانت التلال الرملية تنحدر نحو الجبال ، وكأنها فى تشكيل عسكري . ثم يأتى مدخل وادى حجر ، وهو الوادى الوحيد فى المنطقة الذى يوجد به ماء باستمرار. وفى الحقيقة فإن الماء لا يظهر من القارب ، ولكن العين التى ملت من رؤية الصخور والرمال انتعشت بمنظر النبات الكثيف . وأمكننا حتى التميز بين الأشجار والميناء وبعض أكواخ الصيادين . وتتعاقب الجبال ذات الصخور الخضراء – الرمادية مع حطام الصخور الجيرية والصخور الرملية بألوانها المحمرّة – البنيّة . وتمتد الطبقات فى اتجاه شمالي شرقي ، ولكن كثيرا منها فى تقاطع عرضي . ثم تعبر علينا أرض شبه مستوية ساحلية من طراز عتيق جذاب . ثم تظهر بروم بخليجها الذى يحمى من الرياح الموسمية الجنوبية الغربية . وتنحصر المدينة بين جبال لا تترك سوى مساحة صغيرة لبستان من النخيل ومزارع للذرة والذرة الشامية . ثم ظهر قصر أبيض ومسجد بمئذنة وبعض المنازل الحجرية وشاطىء وقوارب صيد ، صورة جميلة مثيرة للدهشة فى هذه البقعة من الصخور الجرداء والصحراء .

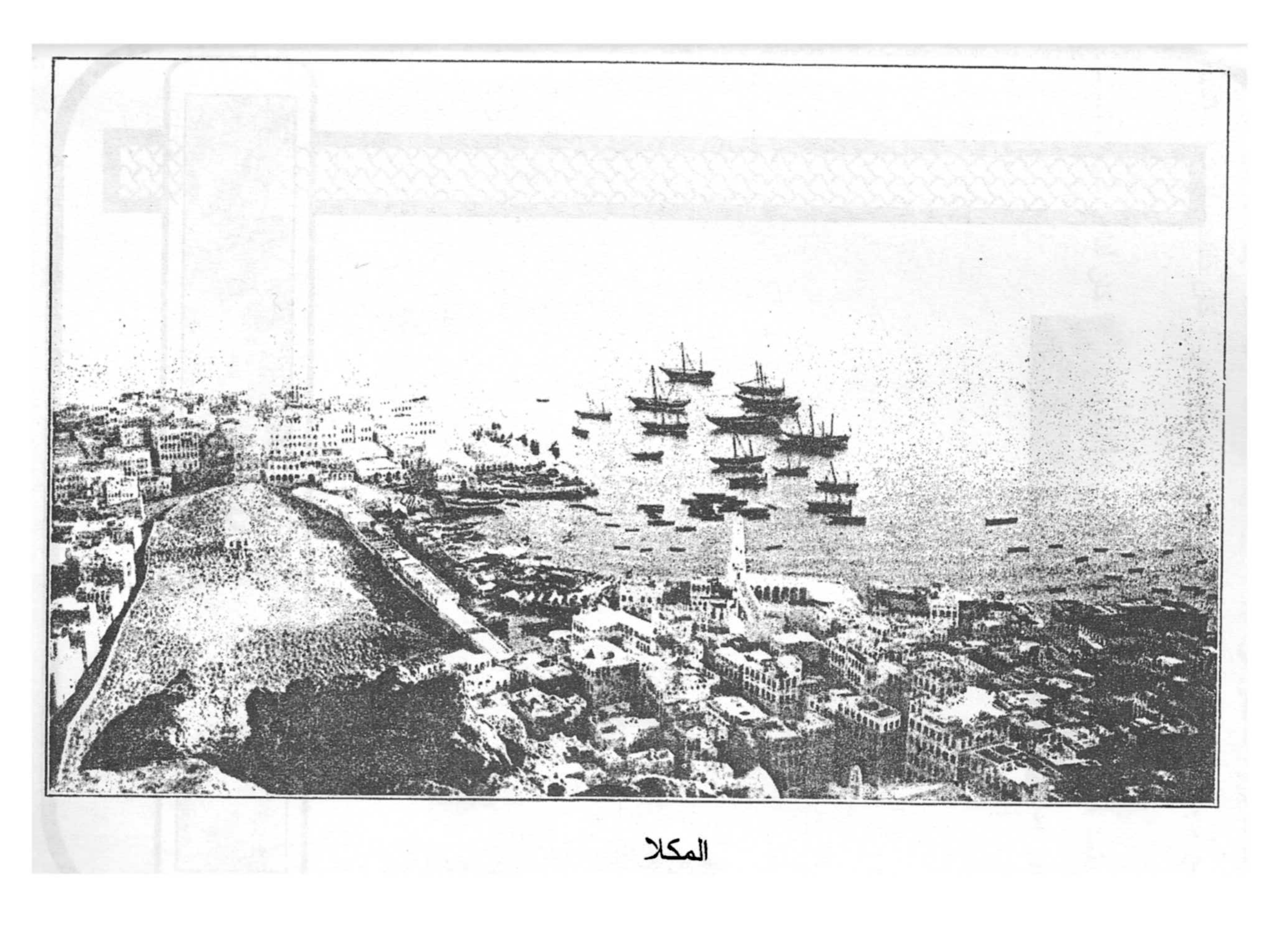
وما إن أخذت بروم تتلاشى فى الهواء الساخن المرتعش الذى خيم على الأرض ، حتـــى بدأ يتضح أمامنا شيء أبيض وخلفه حائط منحدر من الصخر . كان ذلك هدفنـــا . إنـــها المكلا .

وسوف يتخذ هناك القرار الخاص برحلتنا إلى حضرموت . وإذا كان لنا أن نتوغل إلـــى الداخل من هنا، فإن فرصتنا قد حانت .



الفصل الثانى

المكلا



المكلا

المكلا جمالها أخاذ . وهى البوابة إلى حضرموت الغامضة التى ظلت موصدة أمام الأجانب لفترة طويلة. وتمتد المكلا مثل شريط أبيض على حافة المحيط الأزرق عند سفح جبل مائل شديد الانحدار بصخوره المحمرة – البنية . وتصادم أمواج البحر المدينة باستمرار . وتبقى المنازل البيضاء ذات الطوابق المتعددة مستقيمة صامدة . السياج الذى يحيط بسطوح المنازل مشيد من أعمدة ناصعة البياض . والمآذن شكلها مخروط قوي وهو الشكل الذى يتميز به الأسلوب الحضرمي . يقوم قصر السلطان الجديد فى أقصى اليسار، وخلفه القصر القديم . ويقف القصر الجديد على صخور سوداء بالقرب من البحر . ولون القصر ضارب إلى الصفرة ، وأبوابه ونوافذه من الطوب الأحمر، وشرفاته فاتحة الاخضرار . إننا أمام لوحة تحيطها أشجار جوز الهند والنخيل والمانجو والباباي . وهي لوحة ذات جمال بهيج لا يترك مجالا لناقد . إن التلوين هو الذى صنع ذلك الجمال . وحتى غياب الفن المعماري من المنازل له جماله . (١)

يقف قصر السلطان الثالث فى أقصى اليمين بعيدا عن المدينة . و يمتد بين هذه المبانى السلطانية لسان الأرض الذى يقف عليه المركز القديم لمدينة المكلا . هنا كان يعيش السلطان فى البداية ، وهنا ينتصب المسجد القديم ، وهنا تقف الحصون الصامدة للقلعة القديمة .

يقوم الميناء فى إحدى جوانب هذا اللسان القصير من الأرض، حيث تمخر السفن الشراعية بجلالها نحو المرفأ . وتظل القوارب الصغيرة والسنابيك فى غدو ورواح تنقل المسافرين والبضائع إلى أعتاب السلالم العريضة التى تقود إلى مبنى الجمارك الشاسع . وترسو السفن على بعد مائة ياردة فى البحر . وصلت لتوها سفينة هولندية ضخمة تحمل ١٥٠ حضرميا من جاوا . وفى عرض البحر قارب بخاري تملكه شركة منافسة وصل فى نفس الوقت الذى ألقت فيه "أيامونت " مراسيها . فأصبح اليوم بالنسبة لمدير الميناء والطبيب يوما مزدحما(٢) ، لأن القبطان الهولندي يريد أن يبحر قبل الغروب . واهتم الطبيب بأمرنا وأخذ منا الخطاب الذى حملناه من المقيم البريطاني فى عدن ، ليقدمه للوزير ومعه طلبنا بالسماح لنا بالنزول إلى البر . وبعد ساعات من الانتظار جاء الرد الإيجابي ، وأصر الطبيب على مصاحبتنا بنفسه إلى مقر إقامتنا ليتأكد أنه يناسبنا .

واخترقنا الشارع التجاري الذى يعج بالحركة ، وسرنا بحذاء الشاطىء نحو قصر السلطان الذى يقع فى الجزء الجنوبي الغربي من المدينة . ثم انحرفنا يمينا إلـــى حديقـــة القصـــر القديم، وسرنا تحت أشجار النخيل والفواكه الأخرى ، ودخلنا ساحة القصر التى يتوسـطها حوض حجري . وتوقفت العربة أمام درجات حجرية ، فأشار علينا الطبيب مرحبا قـائلا :"يا حيا بكم"، ودعانا إلى مبنى قديم مصان صيانة جيدة . ودخلنا ساحة واسعة فى الطابق الأعلى تقود إلى غرفة الاستقبال الرحبة وإلى غرف النوم والسكن . لم يخامرنا شك بأننا سوف نعيش هنا عيشة ملوكية ، ولا بد أن الطبيب قـــد قـــرأ علـــى وجوهنـــا العرفان المصحوب بالدهشة على هذا الاستقبال الذى لقيناه فى ميناء حضرموت .

عندما حان وقت المغيب وأذن المؤذن لصلاة المغرب سكتت ضوضاء المدينة الصاخبـة وجلسنا على شرفة منزل الطبيب . وشرب الحضور شايا خفيفا من أكواب كبيرة مع كثير من السكر واللبن يسكبونه من براد كبير . معنا أيضا اثنان من الإنجلـــيز يعمـــلان فى القارب البخاري الذى يشرف على الساحل . أما صديقنا الطبيب فكان يعمل كيماويا فـــى عدن ، ويتحدث الإنجليزية بطلاقة مثل ضابط الجوازات وكذلك شاب حضرمـــي علمنـا لدهشتنا أنه من عائلة العطاس الشهيرة.

جاء السيد علوي العطاس(٣) من جاوا قبل أشهر خلت بهدف إستيراد عربات وبضـــائع أخرى عن طريق وسيط للعائلة يعيش هناك . وكان العطاس سيقوم بزيارة للداخل قريبا ، فرأينا أن نتعاون معه ونوحد صفوفنا سويا للرحلة. والسيد علوي من مواليد جاوا وتعلـــم فى القاهرة لبضع سنوات . وقام بزيارات لإنجلترا وفرنسا ، ويبدو أنه قد ابتعد عن حيـــاة أهله الصارمة التى تأخذ بالاقتصاد فى العيش . وشكرناه فيما بعد لتقديمنـــــا لأهلـــه فـــى حريضة، الذين لقينا منهم تعاونا وتعاطفا فاق كل توقعاتنا المتفائلة .

(١) الحياة فى السوق "البازار" (٤)

بعد أن اتضحت أمامنا الآفاق المشرقة ، ذهبنا نتجول فى الطريق الرئيسي الذى يجـــرى مثل بحر من البشر على امتداد الساحل من غرب المدينة إلى شرقها . يوجد ممثلون لكـل قبائل الداخل ، وهم يتجمعون فى حلقات فى الحوانيت المصطفة . أغلبهم لهم بشرة داكنـة ، ونصفهم الأعلى عار، وأجسامهم مدهونة بالنيلة(٥) . ورؤوسهم عارية وأقدامهم حافية

ويلبسون فوطة غليظة يلفونها حول وسطهم . وشعرهم المنفوش المرسل الفاحم السواد المعقوص يربطونه بعقدة مستديرة في مؤخرة الرأس . أو يعصبونه في مكانه بضفيرة جلدية ، أو يلفونه بخرقة خلف الرأس . كان لابد من تسليم بنادقهم وأحزمة الذخيرة إلى الحارس عند بوابة المدينة مما بعث فيهم شعورا بعدم الإطمئنان . ويلتمع شعرهم المدهون بالسمن . كما يدهنون الجزء الأعلى من جسمهم بالسمن فوق طبقة النيلة ، فتنبعث منهم رائحة قوية من خليط السمن مع النيلة .

مررنا في طريقنا بسوق السمك وهو مسرح لحركة تجارية نشطة في الأسماك التي يزخر بحرهم بأنواع متعددة منها . ويستمر ذلك النشاط من الصباح حتى المغرب .ويبدو أن سمك القرش أكثر الأسماك انتشارا ، فقد رأينا جوالات من القرش المجفف المملوح وهي معدة لترسل إلى الداخل ، حيث يتناول البدو والحضر في أوقات الرفاهية قطعة منه يدعمون بها وجبتهم البائسة المكونة من الخبز والأرز (٦). إن رائحة السمك المجفف المتعفن تصاحب المسافر حتى وادى حضرموت .

في سوق المكلا روائح نفاذة أكثر من أي مكان آخر . فبالقرب من سوق السمك توجد دكاكين صباغة الأقمشة بالنيلة . وتفوح من الصباغة رائحة تبعث على الغثيان . وتغطى طبقات النيلة أجسام العمال ومنازلهم .

تتكدس في حوانيت الشارع الطويل في السوق تجارة أخرى أكثر جاذبية من السابقة ، وهي صناعة النسيج والأحزمة الجلدية . وينسجون كذلك قطعا صغيرة من الأقمشة مخططة بألوان زاهية وبها أطراف جذابة تنسج منفصلة ثم تخاط معها .

تبيع الحوانيت كل أنواع الحلوى . وكذلك التمر الفاقع الصفرة والشديد الاحمرار ولكنه لم ينضج تماما لأن ذلك بداية موسمه . وتباع الفواكه ، والبهارات ، وحزم كبيرة من التمباك الحمومي الشهير (٧). وبضائع يابانية وهندية وهولندية ، والرغيف المخلوط بالسكر ، والأرز ، والبن وقشر البن المجفف ، والزنجبيل ، والشاي من سيلان وجاوا ، ومختلف أنواع الحبوب ، والسمن ، وزيت السمسم ، والجاز ، والكبريت ، وفناجين الشاي ، والخناجر (الجمبيات) ، وأحزمة الرصاص .

تجولنا فى هذا المستودع التجاري لحضرموت . وبدأ الباعة يشعلون مصابيحهم التى يتصاعد منها الدخان، ويضيئون فوانيسهم . كان علينا أن نسير بحذر وسط الزحام والدخان المختلط بالرائحة النفاذة المنبعثة من الرجال والبضائع . عبرنا ذلك العالم الغامض وكأننا فى حلم . وأخذت تنمو بداخلنا الرغبات والآمال التى تحفظنا عليها بحذر ، لنعبر إلى البلاد التى تقع خلف هذه المدينة ونتعرف على أهلها .

(٢) الوزير السيد أبوبكر بن حسين المحضار

قابلنا الوزير صباح اليوم التإلى . وكان يتولى تصريف شئون الدولة فى غياب السلطان . كان السيد أبوبكر بن حسين المحضار رجلا فى ريعان العمر . وهو ذو شخصية حيوية ويقظة فى تجانس ، ولم تظهر منه أي بادرة امتعاض من النصارى والإفرنج . ويقع حكم الدولة القعيطية على كتفيه .و شعبيته مدعومة بتراثه . فى المقام الأول بوصفه من السادة ومن سلالة الرسول فهو ينتمى إلى الطبقة التى تقود المجتمع روحيا ودنيويا . وفى المقام الثاني، كانت عائلة أبوبكر لستة أجيال خلت أكثر العوائل نفوذا فى حضرموت . وفى إحدى ساعات المحنة ، استنجدوا بقبيلة يافع المقاتلة ليدعموهم فى صراعهم ضد القبائل البدوية . فأرسل سلطان يافع نجدة بقيادة أحد القعيطيين ، الذى دحر أعداء عائلة المحضار ، ثم انتزع السلطة منهم . وأخذ نفوذ القعيطي ينمو (٨) . وفى عام ١٨٧٤ طلب من الحكومة البريطانية فى عدن أن تتدخل لحل النزاع بينه وبين آل كثير الذين رفضوا إعادة المال الذى استلفوه منه . فقامت السلطات البريطانية بدعم القعيطي ، وتمكن من انتزاع مدينتي الشحر والمكلا من الكثيري ، لكن احتفظت عائلة المحضار بزاعمتها فى المنطقة .

أخبرنا الوزير أنه لا يمانع فى رحلتنا إلى الداخل . وأضاف أن الطريق آمنة شريطة أن نسافر تحت حراسة جنود من العبيد التابعين للدولة .(٩) ثم أكد علينا ألا نتعدى مدينة شبام نسبة للمخاطر التى تهدد منطقة الكثيري . وألا نحاول تحت أي ظرف العودة إلى الشحر عن طريق تريم . فالسيد أبوبكر الكاف فى تريم هو بلا شك ثري وصاحب نفوذ ، لكن ليست له سلطة فيها و يحظى بخدمات البدو مقابل المال ، ولا يمكنه تقديم حماية مسلحة ضدهم . أما سلطة القعيطي فهي قوية وجنوده من العبيد راية نحتمى بها .

يستغرق الاستعداد للرحيل أربعة أيام ، نستطيع خلالها أن نجد دليلا يعتمد عليـــة وعلـــى وسيلة ترحيل جيدة. ويمكننا خلال فترة الانتظار أن نقوم برحلة إلى الشحر ، لكنها ستكون عن طريق الساحل لأن طريق الجبال مرهق – ومرهق هنا تعنى أنه غير مأمون . فقـــد كانت قبيلة الحموم (١٠) فى حرب طويلة مع القعيطي ، وكان جنود القعيطي يقعون دومـــا فى كمين ويقتلون . وقد يحدث هذا حتى فى طريق الساحل . وكنا راغبين فى السفر بـــهذا الطريق ، ولو أننا نفضل أن نذهب بطريق ونعود بالآخر .

(٣) رحلة إلى الشحر عن طريق شحير

أرسل لنا الوزير فى اليوم التالى حافلة بسائقين وأربعة جنود . كان علينا أن نسافر فـــى ذلك اليوم إلى شحير فقط .(وشحير تصغير شحر). وبعد الظهر سارت بنا العربة عـــبر بوابة المدينة المنيعة التحصين وعليها الحراس(١١) . وبعد البوابة مباشـــرة يقـــع وادى "سدد" (١٢) ، حيث توغل البحر عميقا داخل الأرض وكون له خليجـــا . هنـــا تعســـكر القوافل بالقرب من الساحل عند سفرها وعودتها من الداخل . (١٣) مئات الجمال تتحلـــق فى دوائر كبيرة ، وتعلف الطعام الذى أمامها ، وجمال أخرى يتم غسلها وحك جلدها بماء البحر ، بينما مجموعة ثالثة ترسل خوارا وزمجرة من آلام الجرب والدمل . وهناك بعض الحمير التى ينام بينها البدو وهم يتغطون بفوطهم أو يجلسون حول موقد للنار يأكلون مـــن أوان خشبية ثريدا من الخبز المفتت مع قليل من الدهن . والبعض الآخر منهمك فى مهمة تحميل الجمال وهى مهمة شاقة . فبعد وزن الحمولة تقديريا برفعها من فوق الأرض ثـــم تقسيمها ، يتم ربطها فى السروج . ويقوم الأطفال بجمع روث الجمال فى زنابيل ، فلـــه قيمة كبرى إذ يستعمل فى الوقود . وتموج الأرض بقمل الجمال ، وهو فى الواقع نوع من القراد . وتنتشر رائحة بول الجمال النفاذة مع العرق فوق هذا الإنتشار الواسع للمعســـكر المؤقت .

سرنا على جانبي وادى سدد ،لأنه يمتلىء هنا بالماء ، حتى تمكنا أن نعبر بالتفافة واســـعة خلف سلسلة تلال المكلا التى يبلغ إرتفاعها ١٨٠٠ قدما . وعلى شمال الطريق على بعـــد بضعة أميال من المكلا يوجد بستان من النخيل يتوسطه المنتجع الصيفي للوزير والسلطان (١٤) . ويوجد نبع من الماء تمتد منه قصبة حديدية تمد مدينة المكلا بالماء.

بالقرب من حدود سلطنة المكلا تقع قريتا البقرين والبقيرين الزراعيتين . وعلى الطريق قلعتان محصنتان بالجنود . وبعد البقيرين بمسافة قصيرة تنتصب صخرة طلاؤها أبيض. ووضعت على الجدار الصخري على جانبي الطريق علامتان توضحان ، حتى في تلك المنطقة الجبلية ، متى تكون البلاد في حالة سلم و حالة حرب . ولا يسمح بأخذ الثأر أو تسوية ضغائن قديمة في المدينة أو حولها.

وعلى بعد مسافة قريبة من حدود تلك العلامات ، أقام عشرون بدويا معسكرا مؤقتا تحت صخرة معلقة. وعلى قمة الصخرة في الجانب الآخر من الطريق يقف الحراس باحثين عن أي قافلة تمر على الطريق العام . وقد عادت إحدى القوافل سالمة إلى المكلا بعد أن أدت مهمة تتعلق بالأخذ بالثأر . وأدركنا لاحقا أن وجودنا لابد أن يكون السبب في إطلاق سراحها .

يتلوى الطريق عبر صخور شديدة الانحدار ، وأخيرا يتعرج صاعدا إلى هضبة يبدو أنها مكونة من صخور مرجانية جيرية . وتقع قرية "المعاوس ".في واد صخري على مقربة من مقدمة الهضبة . وتقع شمالا على وادى أطول قرية الحرشيات . وتظهر من قمة الهضبة بعيدا على الشمال قرية الهواع .

سرعان ما اجتزنا كتلة المكلا الصخرية ، ثم أخذ الطريق ينحدر إلى مدخل للبحر تعمق بعيدا في اليابسة ، وهنا تقع قرية بويش . ويزرع الباباي والبيدان والموز على حافة مزارع نبات الألفا ألفا . توجد في أعلى الوادى الذى يمتد حتى البحر القريب من بويش، المزيد من أشجار النخيل والفواكه الأخرى ، وهنا أيضا المزارع التى يمتلكها الوزير وبعض أغنياء المكلا . الآبار التى تروى المزارع ليست عميقة هنا ، إذ لا يزيد عمقها عن عشرين قدما . وعلى الساحل بين بويش والمكلا تقع قرية روكب . ثم يبدأ الطريق في الصعود مرة أخرى ، ويسير لفترة فوق تكوينات مرجانية ، ثم ينحدر بعد ذلك حتى وادى فلك (بسكون مخفف على الفاء وضم اللام) ، حيث يمتد ماء البحر بعيدا في اليابسة ويبدو دوما مثل نهر صغير .وقليلا في أعلى الوادى تقع قرية "بعسرة". وينمو على حافة النهر كثير من القصب . وترتفع على الجانبين السدود المرجانية الجيرية العالية . ثم يمتد الطريق فوق أرض مسطحة تنمو فيها الأعشاب . وهناك قطع من الأرض مغطاة

كلها بأعشاب زكية الرائحة يمكن التعرف عليها من رائحتها ، وهى إما بلا أوراق أولـــها أوراق صغيرة . وتنتشر هنا وهناك بعض أشجار الصنت بأزهارهـــا المســـتطيلة وســـط الأعشاب البنية اللون التى تنمو فوق الأرض الصخرية الجرداء ، وتغطيـــها قطـــع مـــن المرجان . وتنمو فى الوادى الصغير نباتات الفربيون الخضراء إلى إرتفاع ستة أقـــدام . وتبدو بلونها الأحمر المنعش وزهورها المحمرة فى نهاية أغصانها مثل باقة الورد فى هذا المحيط الخالى من الألوان .

(٤) أول لقاء مع قبيلة بدوية حضرمية

هنالك سهل شاسع فى منخفض تنمو فى تربته الطينية الأعشاب. وترعـــى فيـــه الأغنـــام والخراف والحمير والجمال منتشرة بعيدا عن بعضها البعض . و تجلس الصبايا البدويـات فوق قمة تل قريب . هذه هي ريدة الشحر . حيث المرعى والمقر الرئيسي للبدو الرحـــل فى هذه الأماكن . وأقام البدو معسكرهم المؤقت فوق هضبة صخرية على يمين الطريق . فاتجهنا نحوهم نحمل آلات التصوير ونحن نتوجس خيفة . ولم يلحظونا ، كما أن كـــلاب الحراسة الشرسة التى تنتشر فى الجزيرة العربية والتى تجعل المرور بمعسكر للبدو أمـــرا مستحيلا لا وجود لها هنا ، وغيابها هذا كان لافتا للنظر . ويبدو أن البدو فى حضرمـــوت ليس لهم خيام ، إنما يسكنون فى كهوف أو منازل أو أكواخ ،أو يعيشون كما فـــى هـــذه الحالة بلا مأوى . فيشيدون كوخا على مساحة خمسة أقدام ، حيث ينصبون أربعة أعمـــدة طولها حوالي ثلاثة أقدام ويعرشونها بأعمدة أخرى يغطونها بحشائش جافة طويلة. لا يمنع هذا الكوخ الشمس كثيرا . توجد منها هنا عشرة أكواخ متناثرة . بعضها أكـــثر بدائيـــة ، عبارة عن أعشاب مغطاة بخرق بالية وليس بها إلا بعض الظل . (١٤) وفـــى المعســـكر شجرة طلح وضعت على قمتها بعض الأعشاب التى تدلت بين أغصانها الشائكة . ويرقـــد جمل يتلوى من ألم الجروح الملتهبة فى ساقه ، وجلس بجانبه بعض الرجـــال والنســـوة والأطفال يرقبون الحيوان البائس فى محنته .

أثار وصولنا بعض الصخب ، لكن يبدو أن لهم روحا متسامحة وأجابوا على أسئلتنا بشيء من الفضول. وجلس النسوة والأطفال وبعض الشيوخ العجزة تحت ظل الأكواخ البائســـة . ويرقد الأطفال فى مهد مصنوع بطريقة عملية . ويبدون فى داخله مثل المحار الذى لـــه

أرجل . حيث يرقد الطفل فى الجزء الأسفل بينما يحميه الانحدار الأعلى من الشمس والريح . وتحمل الأم هذا المهد فى ترحالها وتجعل الجانب المفتوح فى واجهتها . ويرقد الطفل فوق زعف منسوج أو جلد . وفى حالة الجلد يوضع فيه ثقب بعرض بوصة لخروج الفضلات . وتتوجس الأمهات كثيرا من العين الشريرة فكان علينا ألا نبدى اهتماما ملفتا بأطفالهن .

وزعنا بعض قطع النقود على الأطفال والشيوخ ، وبعدما تبادلنا معهم الحديث أخذ توجس الآخرين يتلاشى . ورأت إحدى النساء ضرسا ذهبيا فى فم أحدنا ، فكان علينا أن نسلم أفواهنا لكشف دقيق . وانفجرت صيحات الضحك وتبعها مرح طاغ .

ثم أخذوا يكتشفون العديد من الأشياء الغريبة عن الأفرنج . فبعد أن فحصت المرأة التى فى المقدمة أفواهنا، ذهبت أبعد من ذلك . أخذت تفك بأصابعها القوية الداكنة الجزء الأعلى من كم ذراعي . كانوا كلهم ينظرون فى ترقب . واندهشوا عندما وجدوا أن الجزء المغطى من بشرتى أيضا أبيض . وانفجر الجميع بالضحك ، وتواصلت عملية الفحص . ثم انتزعت المرأة قميصي من البنطلون ، وعندما ظهرت بطني أيضا بيضاء ، انفجرت صيحة طويلة:" آه" تعبيرا عن ذهولهم . واستمرت اليد الداكنة تمسح بإعجاب ذلك الجزء من جسدي .

وعندما أرادت المرأة أن تواصل فحصها لجسدى ، أكدت لها أنه كله من نفس اللون .فقالت :" هل فعلتم هذا بالصابون ؟ " . فقد سمعوا أن الإفرنج معتادون على غسل أجسادهم بالصابون . فقلت لها "لا إن الله خلقنا هكذا " . فقالت : " لا شك أنكم تعيشون فى منازل ولذلك فإن الشمس لا تحيل أجسامكم داكنة كما تفعل بنا ، ولا شك أنكم تعيشون على اللبن " . فقلت لها :" لا ، إننا نأكل نفس الأشياء التى تأكلونها " .فقالت :" ابقوا معنا وسوف نرقص ونصفق لكم الليلة " . وأخذت سائلتنا المرحة ترقص وتصفق ، فكان ذلك مصدر تسلية كبرى للنساء الأخريات . فقلت لها : " يسعدنا جدا أن نبقى ، لكن ليس لدينا وقت، فعلينا أن نمضى بعيدا ." فقالت :" لا ، ابق هنا ، وسوف نعطيك زوجة " . فلم أتمالك من فحص النساء غير الجميلات اللائى أحطن بى . وقرأت المرأة أفكارى . فقالت :" لا ، الفتيات الجميلات فى المرعى وسوف يعدن بعد المغيب " .

رغم ما فى حياة المرأة البدوية من بؤس وبدائية ، إلا أنها تبذل جهدا كبيرا لتبدو جميلة . لقد تعلمت منذ الصغر أن التى تريد أن تكون جميلة عليها أن تعانى . فمنذ سن مبكرة بين الثامنة والعاشرة ، تثقب الحافة الخارجية للأذن بثقوب صغيرة ، ثم تعلق فيها حلقات فضية بحجم الخمسة شلنات ، أو تتدلى منها سلاسل فضية صغيرة ، وتبقى أذن الفتاة البائسة منجذبة إلى أسفل . وتطلى أظافر اليدين والرجلين بالحناء ، فتصبح أطراف الأصابع مسودة بينما راحة اليدين محمرة . أما الوجه واليدين والذراعين والساقين والقدمين فتمسح بالكرى الأصفر . وتكحل العينان ، وحتى الرجال يستعملون الكحل لاعتقادهم بأنه يقوى النظر .

تخضب النساء والفتيات وجوههن ورقابهن وصدورهن وأكتافهن والجزء الأعلى من ظاهر اليد والقدم ، بخطوط متشابكة ، وغالبا ما يستعملون صبغة زرقاء أو سوداء ، لكن يستعملون أيضا الحمراء أو الخضراء . ويزيلون الحواجب وتوضع مكانها خطوط رفيعة سوداء .ويحلقون أطراف شعر الرأس فى شكل دائرة ثم يدهنونها ويلصقونها مع الجمجمة . توجد اختلافات متنوعة للأوصاف التى ذكرتها سالفا وكلها بهدف المساعدة على التجميل . أما بالنسبة لذوقنا فإن النتيجة فى الغالب قبيحة ، إن لم تكن مفزعة .

لم نستقبل بعد ذلك أبدا من نساء البدو بمثل هذا الود الدافق والتحيز العابر . فعندما كنا نلقاهن فى مناسبات لاحقة بعد ذلك ، كن يصرخن ويهربن من أمامنا أو يقذفننا بأقذع الشتائم . ويبدو أن أفراد قبيلة "الحيقي" هذه يعرفون القليل عن دينهن ، فلم يصبن بعد بالعداء للنصارى . (١٦)

شيد سلاح الطيران الملكي البريطاني بالقرب من هذا المعسكر مهبطا للهبوط الاضطراري. فوضعت علامات بيضاء على الأركان وفى الوسط (١٦) . أما المطار الكبير فيقع على الساحل بالقرب من "فوه" على بعد ثلاث ساعات من المكلا . ويقال إن هناك مطارا ثالثا فى هذه النواحى.

تنمو على السدود المرجانية بعض النباتات الصحراوية والأعشاب ذات الروائح الزكية . وتنتشر أسراب من الجندب فوق الصخور الجرداء . وينحدر الممر نحو الوادى ،حيث يختلط ماء النبع القادم من غيل باوزير مع ماء البحر المالح .

تقع قرية شحير على الجانب الأبعد من الساحل ، يقال إن سكانها ..١٥ يعيشون فى أكواخ من الطين. وينتصب منزل الشيخ فى مكان بارز ، والمنزل هو أيضا الحصن الذى يدافع عن المدينة ضد الهجمات . وفى المصطبة مدفعان صدئان . توجد فى الجدران السميكة فتحات فى كل طابق ، والنوافذ صغيرة . مضيفنا هو "الشيخ الماس" ، الذى استقبلنا بحفاوة فى مجلسه . وبناء على رغبتنا أمر بإعداد مكان لنا فوق السطح ، لكن كان علينا أن ننتظر حتى يتم إبعاد النساء عن طريقنا . فقام مضيفنا بالتأكد من أن النساء اختفين خلف الأبواب المغلقة قبل أن يسمح لنا بمصاحبته إلى أعلى . كان سطح المنزل رائعا . وتخلصنا من الحشرات ، واختفى الناموس .

طلبنا من مضيفنا ألا يذبح خروفا من أجل إكرامنا . ووجدنا مشقة فى إقناعه بطلبنا الغريب ، لكنه تفهم فى النهاية أننا نرغب أكثر فى الشاي والفاكهة . فأحضروا طبقا عليه أكواب الشاي ، وطبقا آخر عليه شرائح من البطيخ والتين الطازج والتمر والحلوى . لقد زار مضيفنا الشيخ "الماس" بعض أجزاء العالم ، وهو ينتمى إلى أسرة السلطان ، وبه لمسات من دم هندي . وأخوه هو العامل على غيل باوزير مركز زراعة التمباك الحمومي الشهير . وكان يقيم معه فى ذلك الوقت ، وألح علينا أن نزور غيل باوزير أغنى وأجمل بقعة فى الجزيرة العربية . وعدناه أن نعبر على الغيل فى رحلة العودة .

(٥) نزهة إلى غيل باوزير

لم تسمح لنا خطة العودة من تريم إلى الساحل بالوفاء بوعدنا لعامل غيل باوزير . لكننا زرنا الغيل بعد عودتنا إلى المكلا ، عندما انتظرنا بضعة أيام حتى وصلت السفينة التى أقلتنا إلى عدن . بدأنا زيارتنا لغيل باوزير عن طريق شحير فى الرابع والعشرين من شهر يوليو . ركبنا سيارة وضعها الوزير السيد أبوبكر المحضار تحت تصرفنا كما فعل من قبل.

يقع خلف هضبة التشكيلات المرجانية حوض شاسع من الطفال الرملي يرويه نهر صغير، ويقع النبع الذى يروى الغيل خلف المرتفعات الساحلية . هذا الحوض وشريط الأرض الصالح للري الذى يقع عند منحدر الغيل، هو المنطقة الرئيسية لزراعة التمباك الحمومي الشهير . تقع المدينة الصغيرة التى تحرس المدخل إلى هذا الحقل الغني، على حافة

هضبة الصخر المرجاني. وعندما يقترب منها الشخص القادم من الساحل لا يكـاد يـرى أشجار النخيل ، لكنه سرعان ما يجد نفسه أمام حائط أبيض عال ، بــه بوابــة ضخمــة حصينة ، تظل مغلقة كما يبدو حتى أثناء النهار . وخلال فترة الانتظار لا يرى المســافر إلا قصر السلطان الضخم يقف شامخا بالقرب من الحائط . ويستعمل القصر الآن ثكنــات للجنود.(١٨)

طلب منا الانتظار بعيدا من البوابة الحصينة المرعبة أثناء إرسال خطاب التعريف الــذى حـملناه معنا إلى القصر ليفحص حتى يسمح لنا بدخول مدينة التمباك . ليس فى مدينــة غيل باوزير مظاهر جمال ما عدا القصر الكبير العتيق وبعض المساجد . لذلــك ســررنا بدعوة سلطات القصر لنا بأن نمضى إلى الحدائق وإلى قصر السلطان الريفي الذى يقــع فى المنطقة الزراعية خلف المدينة . فواصلنا السير دون إبطاء مبتعدين عن الحصن الذى يفوح برائحة التمباك. هذا الجانب الشمالي من المدينة ، به تحصينات أقل مــن الجــانب الجنوبي ، لذا يبدأ منه الطريق الكبير إلى المكلا والشحر . وتقوم عربات النقل حاليا بنقـل أكياس التمباك ، البالغ طولها ..٢ ياردة ، من الغيل إلى المكلا. ويجلب السماد لمــزارع التمباك من المكلا .

تقع خلف المدينة مباشرة منطقة زراعية غنية ، يملك فيها السلطان الكثير مــن مــزارع التمباك ، التى يقال إنها تشكل مصدر دخل كبيرا بالنسبة له . وبالقرب من الجانب الخلفي للمدينة حديقتان ، أقيم حديثا فى كل منهما مقر صيفي . دخلنا الحديقة الصغيرة التى بـــها المنزل الصغير الذى خصص للرجال من الحاشية . وفى الحديقة الأخرى مــنزل أكـبر للزوجات ووصيفاتهن .(١٩)

أغلقت البوابة خلفنا فورا ، وبقي فى الخارج الفضوليون من الشباب الذين تبعونا . ووقفنـا صامتين فى الحديقة الفارهة نحاول أن نجعل أعيننا تعتاد على الظل الكثيف تحت أشـجار الفواكه المزهرة . تخيلنا كأننا انتقلنا جسديا إلى جزء من جزر الهند الشرقية . فأشـــجار الفواكه المألوفة فى تلك البلاد موجودة هنا ، والحرارة المتقدة الرطبة تتخلل ظلال هـــذه الحديقة الغناء .

أقيم أمام الفيلا حوض للسباحة حديث الطراز لكنه لم يكتمل بعد ، يبلغ طولـــه ..٣ قدمــا وعرضه بعرض المبنى . ويلتحم الحوض مع درجات الشرفة . ويقبع على ماء الحــوض الصافى مثل البلور قارب مزركش بلا حراك. وملء الحوض بالماء بواســـطة مضخــة تكريما لنا . رغم أن الماء دافئ ، إلا أننا أبدينا إعجابنا بالاستمتاع بالســـباحة والتجديــف بالقارب .

يعمل مضيفنا الذى ينوب عن السلطان ، فى زراعة التمباك وهو فى نفس الوقت موظف. وقال إن التمباك الحمومي يزرع هنا فقط . وتمت محاولات لزراعته فى لحج وفى اليمن، لكن نسبة لاختلاف المناخ والتربة ، فإن النوع الذى زرع كان أقل درجة فـــى رائحتــه وطعمه من النوع المزروع فى الغيل. تعتمد الزراعة فى الغيل على درجات عالية مـــن التجويد . فيوضع السماد للتمباك ثلاث مرات : الأولى بفضلات الطيور "الغوينو ، والثانية بالسمك (٢٠) ، والثالثة بروث البهائم وفضلات الإنسان . ويروى بماء صـــاف وبكميــة معلومة . ويوضع كل نوع من السماد فى الزمن الصحيح . وتأتى أفضل أنواع الغوينـــو من جزيرة على الساحل الصومالي تمتلك السلطات البريطانية امتيازا فيها . ويوجد نــوع آخر من الغوينو فى جزيرة فى بئر علي غرب المكلا بالقرب من عدن . ويصــــدر كــل محصول التمباك إلى مصر ، ومن هناك يذهب جزء منه إلى سوريا وإلى بلـــدان البحــر الأحمر . ويكسر التمباك الحمومي إلى قطع صغيرة ويدخن فى الشيشة . وتستعمل سيقان النبات أيضا ، لذلك تجفف كل الشجرة وليست أغصانها فقط. ثم تربط فى حـــزم كبـــيرة وتعبأ فى جوالات مستطيلة ، وزنها حوالي ..٣ رطلا وهو ما يساوى حمولة بعير . سعر الجوال هذه الأيام بين ١٢٠ و ١٣٠ روبية .

(٦) إلى الشحر من طريق الساحل

لم ننعم بالنوم فى شحير فى تلك الليلة ، فقد كان هناك حفل زواج فى الساحة التـــى تقــع أسفل المنزل الذى نقيم فيه . فأضيئت عدد من المنازل ، مكنتنا من موقعنا المتميز فـــوق السطح أن نشاهد الاحتفال . ثم أضيئت مصابيح الغاز ، وبدأ بعد ذلك الرقص فى الساحة، فوقف الرجال والنساء قبالة بعضهم البعض فى صفوف طويلـــة، ثــم أخـــذوا يقــتربون ويبتعدون عن بعضهم مع إيقاع أرجلهم وتصفيق أيديهم . ويشاركون كلهم فى غناء رتيـب

متواصل، يكررونه باستمرار بنفس اللحن . أما كلمات الأغنية الفعليـــة فيقـوم بإلقائــها شخص واحد . كلهم يحفظون الأغاني القديمة ويجدون متعة فى تكـــرار مقــاطع منــها ويجدون أيضا حماسة متزايدة من ذلك التكرار (٢١) . ويتساقط العـــرق علـــى صـــدور الرجال المكشوفة ، لكنهم لم يرهقوا إلا قبيل الفجر ، عندها هدأ صخب الاحتفال .

أيقظنا السائق قبل أن يحل الضياء بأصوات بوق سيارته أمام القلعة . فهو يعلم أن علينـــا أن نسافر إلى الشحر ونعود عن طريق الساحل قبل ارتفاع المد .

رافقنا مضيفنا فى الرحلة . يمضى الطريق على الشاطىء الشرقي للوادى حتى الســلحل ، الذى يقع على بعد بضعة أميال . وترسو عليه قوارب الصيادين، وبجانبها الرجال الذيـــن يجمعون الغوينو . هناك أماكن لتجفيف السمك بالقرب من بعض الأكواخ ، كانت الرائحـة تلك الليلة تصلنا فى الشحر . ينقل الغوينو من هناك إلى غيل باوزير ليستعمل فى السماد.

يشبه الساحل هنا سواحل هولندا الرملية، وتوجد أيضا كثبان رملية عليها بعض النباتات لا يزيد إرتفاعها عن ٢٠ إلى ٣٠ قدما .وكان على الساحل جيوش من السلطعون(Crab) التى ما إن أحست بحركتنا حتى أخذت تفر أمامنا فى إتجاه البحر أو نحو كثبان الرمل ، حيــث تحاصر أكوام الرمل الممرات الحلزونية التى تؤدى إلى مساكنها تحت الأرض . لا شـــك أن هذا العدد من السلطعون كان بسبب الأمطار التى هطلت بالداخل فأخذت تنحدر باحثــة لها عن مخرج إلى البحر . وعندما اقتربنا من الشحر برزت الصخور المرجانيـــة فـــوق الرمال ، وأصبح الممر هنا ضيقا ، و يختفى تماما عندما يرتفع المد .

تقع الشحر على ساحل مسطح متدرج الانحدار ، حتى أن السفن لا تجد لها مرفأ إلا بعيـدا فى البحر. ورأينا فى تلك اللحظة عددا من السنابيك والبحارة الذين يمارسون تجارتهم إلى ما بعد الغسق بوقت بعيد . يجرى الممر من الساحل عبر رمال كثيفة إلى البوابة ، التـــى تفتقد الآن أي ذوق معماري . أما السور فهو أيضا جديد وجانبه الداخلي مقوى بأعمدة من الطوب المصنوع من الطين .(٢٢) ويبدو أن السور أكبر من حجم المدينة ، لذلك نصفها ميت وآخذ فى التداعى خلف الجدران . العديد من المنازل غير مأهولة ، و تهدم بعضها . عبرنا ساحة شاسعة فى طريقنا من شرق المدينة إلى غربها . الشـــوارع قـــذرة ، حتـــى المنازل المأهولة يبدو عليها الإهمال . وتحلق فوق المدينـــة رائحـــة الأســـماك المجففـــة

المتعفنة، إنها رائحة أقوى حتى من رائحة المجارى . وتقع المبانى الحكومية فى الجزء الغربي من المدينة . وتقف القلعة بجانب البحر على تل رملي شامخ ، تمت حديثا صيانة المبنى، وتعطى خطوطه البسيطة القوية انطباعا جميلا .(٢٣) وفى طابقه الأرضي مدرسة مؤقتة تضم بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ طالبا . ترقد على التل بالقرب من القلعة مدافع ضخمة عتيقة وبجانبها سارية تقف وحيدة . يقع على الجانب الأرضي من الساحة مبنى الحكومة ، وهو مبنى ضخم مستطيل جيد البناء ، وشيدت على السطوح شرفات لتناسب طقس الشحر الحار الرطب. لم يكن الحاكم بالمنزل فى ذلك الوقت ، فقد التقينا به على الساحل فى عربته الأمريكية الجميلة . ملامحه هندية ، ويبدو أنه متمدن لحد كبير بالنسبة لمدينته شبه المعزولة عن العالم الخارجي.التى مازالت تحلم بأمجادها الغابرة . كانت الشحر بحق فى وقت من الأوقات أكبر من المكلا ، بل كانت مركزا تجاريا هاما حتى قبل ظهور المكلا .

يوجد تحت السور الشرقي سهل شاسع ، تقع فيه المقابر وبينها بعض القباب وعلى حافتها العديد من المساجد . يمتلك بالقرب منها السيد أبوبكر الكاف ، رجل تريم ، قطعة أرض أقام عليها قصر ضيافة فخم لأقاربه وأصدقائه القادمين من جاوا إلى تريم أو عائدين منها عن طريق الشحر . كان الكاف منهمكا فى تشييد طريق للعربات بين تريم والشحر ، وكاد أن يكتمل ما عدا مسافة قصيرة من الساحل عبارة عن مسيرة ثلاثة أيام بالجمال . فإذا اكتمل هذا الطريق ، بالرغم من معارضة قبيلة الحموم المقاتلة التى يمر الطريق بأغلب منطقتها ، فربما استطاعت الشحر أن تنمو وتملأ الجدران التى تحيطها .

قمنا قبل مغادرة المدينة بزيارة أخرى لنائب الحاكم . ساعدنا فى تلك الزيارة مفتش الضرائب وهو هندي على قدر رفيع من التعليم . كان استقبال نائب الحاكم حارا ووديا. فسرنا عبر مجموعة من الحراس الأشداء إلى مجلس على الطريقة العريقة ، حيث النوافذ والشبابيك والأعمدة الخشبية مزينة بنقوش ، والسقف مطلي بالأبيض والأحمر والأسود . وشاركنا بلذة فى شرب الشاي مع كميات متنوعة من الحلوى والفواكه الطازجة والمعلبة .

سكان الشحر حسب التقدير الرسمي ٩٠٠٠ .نسمة لكن يبدو أنهم لا يتعدون ٦٠٠٠ . وبما أن الغربيين لا يدركون مدى ازدحام المنازل العربية الكبيرة بالسكان ، فيبقى تقديرنا غير مؤكد (٢٤). بالمدينة ٣٦ مسجدا .

استعجلنا فى الرحيل قبل ارتفاع المد . وصاحبتنا عربة فورد أخرى وبعض الجنود ضمانا لسلامتنا . الصخور المرجانية تسمح بالعبور ،لكننا اتجهنا إلى الوادي . تخلصنا فى النهاية بعد التأخير الجم والإرهاق الذى لا طائل تحته ، لكن لم يعد لدينا الوقت الكافى لتناول الوليمة التى دعانا لها مضيفنا فى الشحر . وأبدى أسفه الشديد لعدم تلبية دعوته . فالناس فى هذه البلاد إما لا يفهمون الأوربيين الذين فى عجلة من أمرهم أو لا يقدرون تعجلهم. فشعار الناس هنا أن الصبر والانتظار من عند الله وأن العجلة من الشيطان (الراضة من الرحمن و العجلة من الشيطان). وأصر الشيخ الماس أن نأخذ سترته بدلا من سترتنا التى تمزقت أثناء دفع السيارة ، فغادرنا المدينة ونحن فى إعجاب من الكرم العربي.

كان قد حل الظلام عندما وصلنا حدود المكلا . لكن البدو مازالوا فى كمينهم ينتظرون العدو . كانت بعض النيران الخافتة تتقد فى معسكرهم بين الصخور . ويقف المراقبون قريبا من الطريق . فنحن فى حماية الدولة التى لا تخشى إلا من هجمات الحموم .

(٧) أيام الانتظار الأخيرة فى المكلا

يبدو أن الاستعدادت لرحيلنا من المكلا كانت فعلا مستمرة . لكن علينا أن نتحلى بالصبر ليوم آخر ، إذ يجب أن يكون كل شيىء معدا إعدادا جيدا . أخبرنا الوزير إنه بإمكاننا السفر أثناء النهار فقط ، حيث أن الطريق شاق بالنسبة للسفر ليلا . وأضاف : "الذى لم ير جبال حضرموت بعد ، فلم يتعلم بعد ما هي الجبال الحقيقية " .

فكان أمامنا يوم آخر لنوسع معرفتنا بالمدينة ، ونزور الموظفين ، و نتسلق بعد ذلك الصخرة الواقعة خلف المدينة لنجمع بعض النباتات والحشرات ، ثم نضع الأساس لخريطة رحيلنا .

يسكن السيد أبوبكر وسط المدينة فى نهاية لسان الأرض حيث كان السلطان يعيش سابقا .

و اتضح أن الجزء الأكبر من نتوء الجبل تحتله المقبرة التى تتوسطها قبة الشيخ يعقوب

وهو رجل المكلا الصالح . ليس هناك وجود لأشجار الأثل التى تحدث عنها الرحالة الأوائل ، ليس بالمقبرة الآن أي اخضرار . أما زيارتنا للسيد أبوبكر فكانت ذات طابع رسمي ، فمازالت أمامنا مخاطر ، ولم نتعرف بعد على بعضنا البعض ، فكان هناك حذر من الجانبين . الموظفون الحكوميون الذين زرناهم ليسوا من مواطنى البلاد وإنما هنود جاءوا بهم من عدن . ويحتكر الهنود التجارة وأعمال البنوك ، لكن يبدو أن الحضارم أخذوا يسعون جاهدين مؤخرا لإزاحتهم .

يبلغ سكان المكلا ١٢ ألفا(٢٥) . وأخبرنا ضابط الجوازات أن حوالي ألف حضرمي يرجعون من جاوا كل عام ويعود منهم مثل هذا العدد . ويعبر منهم عن طريق الشحر بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ . وعلمنا منه أيضا أن عادة شرب القهوة ، وهي عادة عربية قديمة ، قد أخذت تتراجع هنا لكنها تراجعت بشكل أكبر فى حضرموت الداخل ، وحل محلها شرب الشاي الذى وفد من الهند ومن جزر الهند الشرقية. وفى كل زياراتنا كان الشاي يقدم أكثر من القهوة فكان الشاي الخفيف مع كثير من اللبن والسكر موجود دائما .

يحتفظ مدير الجمارك بأرقام الصادرات والواردات سرا ، مدعيا أن قيمة الوردات مهمة فقط بالنسبة له ، لكنه لم يكون بعد فكرة واضحة عن القيمة الكلية للبضائع المستوردة . كانت أهم بضاعة مستوردة هي الأرز من البنغال . وبالميناء حوالي ٤٠ ألف تنكة من الجاز والبنزين وهي الكمية التى تستهلكها البلاد سنويا ، وسوف يزداد الطلب عليها كثيرا فى المستقبل .

(٨) تسلق الواجهة الشمالية لجبل المكلا

فى عصر أحد الأيام أحاط بنا جمع من الصبية عندما بدأنا نتسلق بمشقة الحائط الصخري المحمر الشديد الانحدار الذى يقع خلف مدينة المكلا . وبدا منظر المدينة من البعد على ارتفاع ٦٠٠ قدما شيئا فريدا . وتنتصب قريبا من الحافة أربعة حصون للدفاع عن المدينة. يبلغ عرض الهضبة بضعة مئات من الأقدام ، تبدأ بعدها الصخور فى ارتفاع حاد حتى بلوغ القمة المسطحة . ساعد الصبية بحماسة فى جمع النباتات والقبض على الحشرات . وشاهدنا من فوق القمة على الشمال بانوراما رائعة . كان الوقت يسمح لنا فقط بعمل بعض الاسكتشات التمهيدية وقياس ميلان قمم الجبال المنتشرة قبل أن تغيب الشمس

ويصبح الجو باردا . قال الدليل الذى يرافقنا إنه عند الهبوط سيدلنا على طريق أسهل سلكه . ولكن حدث العكس ، فقد ضللنا الطريق كليا . و تركنا الصبية خلسة ووجدوا طريقا إلى منازلهم، أما نحن فكنا نتقدم ببطء مع تزايد الظلام والحائط الصخري شديد الانحدار . وبما أني لست خبيرا فى التسلق ،فلم أتجاسر بل ما كان باستطاعتى أن أخطو خطوة إلى الأمام . وصلت بعد مشقة إلى بقعة تحت صخرة معلقة وأنا منهك وممزق الثياب ، فارتميت عليها . على أنهم فى المدينة أخذوا يفكرون فى أمرنا ، وبعد ساعة كاملة رأينا مصابيحا تقترب من إتجاهين مختلفين ، كانوا جنودا أرسلهم الوزير للبحث عنا. فاستطاعوا أن يصلوا بصعوبة إلى البقعة التى نحن فيها . كما أنهم تنبهوا إلى حاجة الإنسان الكبرى عندما يقوم برحلة كهذه الرحلة في بلادهم -- الماء . وعندما رفضت أن أخاطر بالنزول فى الظلام وفضلت البقاء حتى الصباح ، قال قائد الفرقة إنه مكلف ليهبط بنا فى نفس المساء . إن رجال الجبال هؤلاء لهم خبرة ويتسلقونها بخفة ورشاقة بأقدامهم العارية ، وسرعان ما وثقت فى توجيهاتهم ، وصلنا المكلا فى نفس المساء دون كبير عناء . ورافقنا القائد وهو يسير مزهوا وسط جموع الناس الذين كانوا يتابعون هبوطنا من ضوء المصابيح التى معنا وخرجوا ليشاهدوا وصولنا. وجاء دليلنا لمقابلتنا وهو يدون جلباب وكوفية لأنه فقدهما عندما هبط باحثا عن نجدة . وكان رده على التأنيب الذى جاءه من عدة جهات : "هذه إرادة الله، الله هو الذى قدر لى أن أضل الطريق وهو الذى جاء بكم سالمين الشكر لله ".

<u>هوامش</u>

(١) موقع قصور السلطان الثلاث كالآتى : حصن آل كساد سابقا بقرب الميناء القديم ، وتم ترميمه فى عهد السلطان عمر . وفى عهد السلطان غالب شيد قصر المعين وهو القصر السلطاني الحديث . وبجانبه القصر الثالث وهو قصر قديم .

(٢) مدير الميناء الهندي هو المستر جهان خان ، الذى أدخل تحسينات على إدارة الجمارك. وتولى فيما بعد وظائف رفيعة فى الدولة . فأصبح السكرتير المالي(أي وزير المالية) ، ثم وزيرا للسلطنة . أما الطبيب الهندي فقد ذكر المؤلف اسمه فى نهاية الكتاب وهو علي عبد الله حكيم

(٣) السيد علوي العطاس من عائلة العطاس الشهيرة . وقد تولى بعض أفرادها وظائف رفيعة في الدولة القعيطية .

(٤) بازار كلمة فارسية تعني السوق

(٥) النيلة نبات يزرع على ضفاف الأنهار لأنه يحتاج إلى ري متواصل . وقد أدخلها محمد علي باشا في السودان بعد عام ١٨٢٢ في وجه معارضة عنيفة من المزارعين . ويستخرج منها مادة بنفسجية اللون تستعل لصبغ القماش الأبيض لتكسبه متانة ويجد فيه البعض جمالا. وأثرها يبقى في الأيدي ولا يزول بسهولة . ومن أشهر الأسر التي كانت تعمل بصباغة النيلة في حضرموت آل باحكيم وآل بن سلم والصبان وآل جروان .وأصبح إستعمالها الآن قليلا .

(٦) يسمى سمك القرش المجفف اللخم ، ويستعمل بكثرة في حضرموت لطعمه الشهي وقيمته الغذائية العالية .

(٧) الاسم الصحيح للتمباك هو الحمي نسبة إلى وادي حمم الذي يزرع فيه أصلا . واستعمال المؤلف لكلمة حمومي خطأ شائع .

(٨) الحقيقة أنه تمكن من انتزاع الشحر بدعم من القبائل اليافعية خاصة آل بن بريك وذلك عام ١٨٦٨ ، ودعا آل كساد حكام المكلا عام ١٨٨٢ .

(٩) يعتمد السلطان على قوة من الزنوج يعرفون بالحاشية ، و يقومون بحفظ الأمن داخل المدن في مواجهة القبائل . ولهم ثكنات خاصة في المكلا. وترقى أحدهم حتى أصبح حاكم سوق المكلا باسم السلطان . وذكر الوزير المحضار "الحاشية" في قصيدته الشهيرة عندما ذهب لغزو شبام فقال :

قال بو عامر : وصلنا يا شبام العاليه

يا مدينة حضرموت

طالبين الخير، والعسكر معي والحاشيه

والمدافع والهروت . (والهروت نوع من البنادق)

(١٠) الحموم من القبائل الرئيسية في حضرموت . ويستوطنون المناطق الشمالية الشرقية من لواء الشحر . ويحيط بهم وادي حضرموت ووادي المسيلة من الشمال والشرق ، ومدن وقرى ساحل الشحر من الجنوب . وكانوا من أشرس المعارضين للدولة المركزية، وللنظام القعيطي فيما بعد .

(١١) كانت بوابة المكلا في البداية في موقع بالقرب من مسجد عمر الحالي . ويسمى الجزء الذي يقع غربها "برع السدة" أي ما بعد البوابة ، أصبح اسمه الآن حي السلام . ثم شيدت بوابة جديدة

بالقرب من القصر السلطاني . وهي قطعة من الفن المعماري.وعندما تغلق البوابة تنعزل المدينة عن الخارج ، وتحميها من أي خطر قادم . وفى السبعينات قام أحد المسؤلين بنسف البوابة باعتبارها من مخلفات العهد البائد ، فتدمر صرح معماري هام .

(١٢) يسمى وادى "سدد" والسدة تعنى البوابة أو المدخل .

(١٣) كان محط الجمال فى السابق أمام مسجد عمر خارج بوابة المدينة القديمة ، ثم انتقل إلى العيقة وتحت مدرسة الجماهير الحالية.

(١٤) يقصد بهذا المنتجع المكان بالقرب من المكلا ويسمى النقع .

(١٥) قلة من البدو فى هذه المناطق يسكنون فى خيمة صغيرة من سعف النخيل أو جوز الهند وتسمى "عريش" ، أما الغالبية فلا تكاد تميز سكنهم فهو عبارة عن عصا صغيرة تعلق عليها قربة الماء ، ويقال له "صروم" .

(١٦) إن عدم التعصب ليس جهلا بالإسلام ، بل التعصب ضد أهل الرسالة السماوية هو الجهل بالإسلام . فقد خلط بعض الجهلة بين المشركين الكفار الذين لا يؤمنون برسالة سماوية وإله واحد وأهل الكتب السماوية . قال تعالى فى سورة البقرة (آية :١٣٦) "قولوا آمنا بالله وما انزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " . وقال تعالى فى سورة العنكبوت (أية : ٤٦) " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون " . والآيات كثر .

(١٧) هذا هو الموقع الذى شيد فيه البريطانيون مطار الريان الحربي بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وتحول فيما بعد إلى مطار حضرموت الرئيسي حتى اليوم . و المطار الثالث قرب المدخل الغربي لمدينة الشحر

(١٨) هو الحصن المعروف الذى افتتحت فيه عام ١٩٤٤ المدرسة الوسطى التى لعبت دورا بارزا فى النهضة التعليمية فى حضرموت. وكان ذلك عندما كان الشيخ القدال وزيرا للمعاف ، وعاونه إثنان من السودنيين هما حسين خوجلي وعوض عثمان . وتداعى الحصن فى السنوات الأخيرة ، وتقوم الآن محاولات لإعادة ترميمه تحت رعاية الأستاذ محمد سعيد مديحج .

(١٩) يسمى هذا القصر باغ السلطان . وهو صورة مصغرة من تاج محل الشهير . وأصبح بعد الاستقلال بيتا للضيافة ومنتجعا عاما . وتدهور كثيرا بعد عام ١٩٩٥ ولم يعد صالحا للاستعمال .

(٢٠) هذه فضلات الطيور ، ويقال لها الروث . ويجلب بكثرة من جزيرة صغيرة من منطقة بئر علي ، حيث يوجد بكثرة . ويتم جلبه عن طريق مقاولين معروفين مثل أبو سبعة وبا شراحيل . وهو سماد هام للتمباك لأنه يجعل أوراقه تنمو جيدا وتصبح سميكة. أما السمك المجفف فهو سمك العيد الصغير ، وبعد أن يجفف يسمي وزيف . ويجفف على مساحات واسعة عند ساحل البحر .

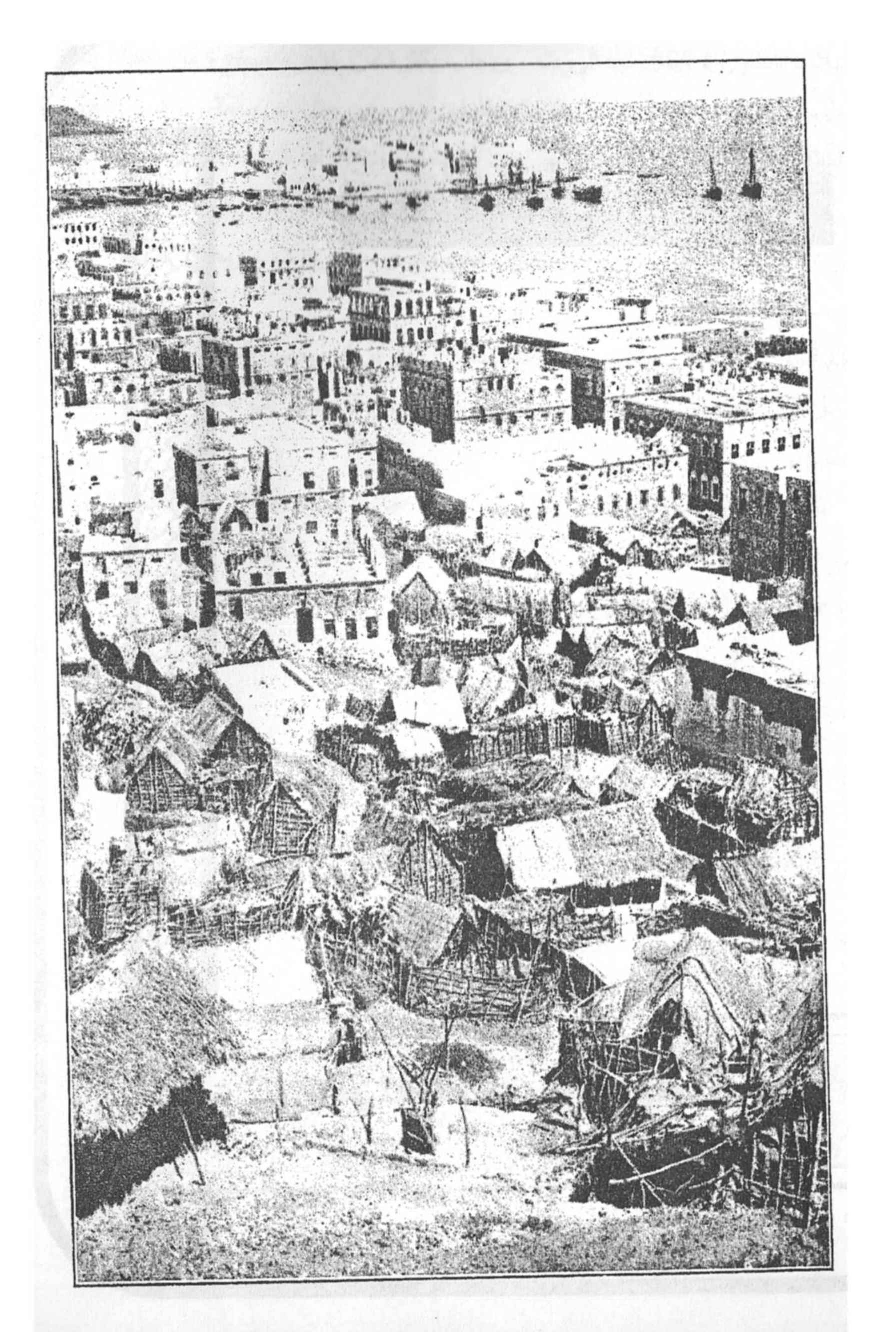
(٢١) هذا النوع من الرقص هو الأكثر شيوعا بين مدن وقرى حضرموت ، ويطلق عيه اسم الشبواني ، ويسمى عند البدو شرح .

(٢٢) شيد هذا السور فى القرن التاسع عشر أثناء حكم آل بن بريك ليحمى المدينة من الهجمات المباغتة من قبل آل كثير والقبائل المتحالفة معهم . وجدد السور فى عهد الدولة القعيطية تحسبا من قبائل الحموم .

(٢٣) تسمي القلعة حصن القعيطي إلا أن شهرة حصن بن عياش المهدم طغت على القلعة التى بناها القعيطي على الطراز الهندي . وهي بناء متين ليتصدى لطلقات المدفعية . وبه سرداب محصن يربط بينه وبين إقامة السلطان فى المبنى المقابل .

الفصل الثالث

من المكلا إلى وادي دوعن



المكلا

(١) بداية متعثرة

استغرق تجهيز القافلة عدة أيام . أبدى خلالها الوزير وموظفوه اهتماما كبيرا بأمرنا . وعند زيارتنا للسيد أبوبكر زودنا بالكثير من النصائح والمعلومات الأساسية . كما تعرفنا على قائد القافلة . وكانوا يلقبونه "موتور"(١) وهو لقب حديث استحقه بجدارة لأنه كان يقطع المسافة من دوعن إلى المكلا في يومين وليلتين عندما كان يحمل الرسائل الحكومية العاجلة . وكان يحظى بثقة الوزير الكاملة ، وقال بصوت رقيق إنه يشهد الله أن يضحى بحياته من أجلنا وسوف يوصلنا بمشيئة الله سالمين مع ممتلكاتنا إلى باصرة حاكم دوعن . كان (موتور) صغير الحجم ،وشعره المموج المدهون الأسود معقوص بضفيرة جلدية رقيقة حول رأسه . و يعلق على رقبته سلسلة يتدلى منها خاتم فضي يتوسطه حجر بني مستدير في حجم ظفر الإبهام . ويلف حول خاصرته قماشا داكن الزرقة وضع فيه غمد سكينه (يسمونها جمبية) ، وكان هذا كل لبسه . وأعلنا ثقتنا في (موتور) وقيادته ، وختمنا الاتفاق بالمصافحة . وسوف يوفرون لنا في المكلا الجمال الصالحة للسفر في الجبال ، ثم نستبدلها في دوعن بأخرى صالحة للسفر في السهول . وستخصص الجمال لحمل الأمتعة، أما نحن فسوف نركب الحمير لأن ركوبها أقل مشقة وأكثر راحة للشخص الذى يريد النزول منها باستمرار ليقوم بمسح الطريق وأخذ الصور وجمع النباتات والحشرات . وكان علينا أن نوفر الطعام للبدو المرافقين لنا . وأوكلنا لموظفى الوزير مهمة تدبير المؤن وقرب الماء وأدوات الطهي الخ . و ابتهجوا بالمهمة . أما السيد علوي الذى سيرافقنا، فكان عليه أن يدبر الحمار الذى سيركبه والجمل الذى سيحمل متاعه .

تحدد رحيلنا في اليوم التاسع من مايو . وفى الصباح الباكر جاء الموظفون يحملون حساباتهم ، بعد أن قاموا بكل الترتيبات . فكان علينا أن ندفع مائة وستين روبية للجمال وحمارين ومرتب اثنين من الجنود العبيد . وأحضر قائد القافلة الطعام الذى يكفينا جميعا للرحلة من المكلا إلى دوعن التى تستغرق ستة أيام . ورافقنا اثنا عشر بدويا من قبيلة سيبان . و معهم أيضا جمالهم المحملة بالبضائع ، لكنهم سيأكلون من المؤن الوافرة التى حملناها معنا.

تحول البدو فى يوم الرحيل إلى حركة دائبة ، فأخذوا يجمعون الجمال والحمير ويعيدون التى هربت منها، وتدور بينهم مفاوضات لا نهاية لها ، وترتفع الضوضاء من الشجار حول توزيع الحمولة . لكنهم لم يذكروا أي شيء عن بداية الرحلة . وفى اليوم الأول لرحلة طويلة كهذه يقطع المسافر عادة مسافة قصيرة ، لذلك كان بامكاننا أن نؤخر رحيلنا إلى ما بعد الظهر . علمنا فى العصر أن مرافقينا من البدو ينتمون إلى القافلة التى التجأت إلى المكلا خوفا من مطارديهم وأن أعداءهم ينتظرونهم عبر الحدود مباشرة ، فذهب الوزير فى الصباح ليجرى مفاوضات تؤمن لنا مرورا آمنا ، و لم يعد بعد . وعاد فى الثانية ظهرا مرهقا ومصابا بحمى، فأرسل ابنه نيابة عنه ليودعنا ويخبرنا أن والده استطاع أن يصل إلى شروط لهدنة لفترة أسبوعين . الآن فقط بدأ رجال سيبان يعملون وكأنهم يعنون الرحيل فعلا .

عندما حل المغيب لم يستعدوا بعد ، فقبلنا عرض الوزير بأن نعبر الحدود بالسيارة ، وننتظر هناك وصول الحمير ونسير بها حتى المعسكر المؤقت الأول وننتظر الجمال التى ستصل كما هو متوقع عند منتصف الليل . وركبنا السيارة ومعنا متاعنا على الحمير ، ورافقنا السيد علوي وخادمه وطباخنا صالحا . وبالقرب من الحرشيات تركنا السيارة على جانب الطريق ، وانتظرنا لبضع ساعات مع أمتعتنا حتى وصلت الحمير . مضينا بعد ذلك فى سير منتظم وسط ظلام حالك، يتقدمنا بدوي يحمل مصباحا . وعسكرنا عند قرية "طلعة السفلى" لنقضى الليل فى مجرى السيل الجاف فى الوادي . ومن حسن الحظ لم يمض وقت طويل حتى وصلت الجمال . فنصبنا الأسرة السفرية وسط الصخور الضخمة . وكنا فى أمان تحت الناموسية التى حمتنا من الناموس الذى يموج هنا بالقرب من بساتين النخيل ومزارع الذرة . لم نتعود بعد على الأصوات والروائح فى مثل هذا المعسكر المؤقت ، لذلك لم ننم إلا قليلا .

(٢) الرحلة إلى وادى حمم

دبت الحركة فى كل شيء فى المعسكر قبل ساعة من الشروق، لكن لن نتحرك قبل أن ننتهى من أخذ المقاسات . وبعد فترة وجيزة من رحيلنا بدأت الشمس فى الشروق . كنا سعداء بمغادرة هذا المعسكر الرطب الموبوء بالناموس ، ومن حسن الحظ أن كل يوم يمر

يقربنا أكثر من الجفاف والبرودة فى هضبة حضرموت الجبلية . وتتكون المساطب فى "الطلعة" أساسا من كتل صخرية مستديرة ، النبات نادر ولكنه متنوع . وتنمو أشجار الطلح بكثرة فى الوديان ، ويسمونها هنا "سمر" . وأصبح وادى "لصب" الذى نسير فيه عريضا ورمليا ، والطقس دافئا

غشيتنا خيبة أمل ، بل ضيق ، عندما علمنا أن الفرقة التى تقدمتنا قد عسكرت فى الثامنة عند بئر على حافة الوادى حيث لا يوجد ظل يحمى من حرارة الشمس سوى بعض أشجار الطلح . وأنزل البدو الحقائب ، وصمموا على عدم مواصلة السير ، لا إكراما لنا ولا بإغراء المال . فهنا سوف يأكلون أولا ثم يرتاحون من عناء المسير. كان الحر عنيفا حتى خشينا أن نصاب بضربة شمس . وعلى الرغم من أن (موتور) حسن المقصد ، إلا أنه لا يستطيع أن يقف ضد الرغبة الجماعية التى عبر عنها رفاقه . فقام بمساعدتنا فى نشر بعض ثيابنا فوق أغصان الطلح، حتى نجد بقعه ظل نسترخى تحتها . وما فتئ رفيقنا السيد علوي يؤجج نيران غضبنا وضيقنا بترداده المستمر وعلى وجهه مسحة غموض قائلا :" هؤلاء البدو أيها القنصل أناس رديئون ، رديئون جدا " . وانتابنى قلق وأنا أفكر فى ما قد يكون مخبأ لنا من هذه العصابة غير المنضبطة ، الذين ليس لديهم أي اهتمام ظاهر بأمرنا ، ومع ذلك أخذوا يلتهمون الطعام الذى اشتريناه . فهل يا ترى سيطيلون من أمر هذه الرحلة إلى دوعن قدر ما استطاعوا ، حتى يتمتعوا تماما بالمؤن المجانية التى وفرناها ؟ وازدادت شكوكنا عندما رأينا تلذذهم الشديد وهم يتحلقون حول وعاء الأرز الممتلئ ، فى حالة مرح وهم يتكرمون على البدو الفضوليين العابرين الذين كانوا يشاهدونهم . واستمر هذا الحال طوال الرحلة. فهناك مجموعات تتابع المعسكر على أمل الحصول على بعض الطعام ، كانوا يظهرون على الدوام فى اللحظة الحاسمة عندما يغرف الأرز من القدر الكبير ، فعندها يظهر الضيوف المجهولون بطريقة غامضة فى ذلك العراء الخالى من السكان . ويبدو أن طباخنا له كراهية واحتقار متأصلين للبدو ، فما فتئ ينبهنا باستمرار لهذه الظاهرة . أما أنا فكنت متعاطفا من أعماق أعماقى مع أيدى أهل سيبان الممدودة .

وصلنا فى هذا الأثناء إلى الدرك السحيق من الاكتئاب ونحــن **نحتمــي مــن** الحــرارة بشجيرات الطلح التى لا ظل لها . فكان الاستلقاء أو الجلوس **تحت الشمس أكثر** خطــورة من السير تحتها ، هذه كانت تجربتنا دائما . وعندما فشلنا فى إقناع **البدو المتخمين** علـــى مواصلة السير ، واصلنا نحن مع جنودنا العبيد . وسار معنا قلة من أبناء البدو المرافقيــن لنا ، يحمل كل واحد منهم بندقية صغيرة الحجم من الطراز القديم مزينة بقطع من الفضة، وربط كل واحد منهم حزام الرصاص حول خصره النحيل . و ســـاعدوا بحماســـة فـــى القبض على الفراش وفى جمع النباتات .

وصلنا بعد ساعات إلى قرية "لصب" الصغيرة . وهي تقع فى المكان الـــذى تتســـع فيـــه الفجوة وتصبح الجبال على جانبي الوادي أكثر ارتفاعا . حفرت قناة فى جـــدار الصخــــر العمودي يخرج منها جدول ينساب منه الماء إلى مزارع الذرة فى القرى ، لكنه لا يمكــث طويلا . ثم تركنا الممر وأخذنا نبحث عن نسمة منعشة وسط الذرة التى تنمو فى ارتفاعها إلى قامة الرجل . ويزرع الموز والباباي على حافة الحقول . أما سكان تلك القرى فـــلا يظهرون . تقف مساكنهم المبنية كالحصون عالية فوق الأرض المزروعة فـــى واجهـــة الجبال . ولعل تحركاتنا كانت مرصودة من خلف فتحات النوافذ الصغيرة المعتمة.

بعد اجتياز القرية يضيق وادى اللصب ويزداد انحدار سلسلة الجبال . وتبدو قنـــاة المـــاء مثل حزمة غليظة خضراء متعلقة بالجدار ، تنمو فيها النباتات المائية بكثرة . وسرعان ما يظهر الغدير بمياهه الصافية كالبلور. وفى الأماكن التى ينساب فيها الغدير فى حيضــــان نشاهد فى ضحضاحها أسماكا صغيرة سوداء والعديد من الضفادع السوداء . والصخـــور مليئة بالثقوب العميقة . وتنحدر الطبقات المتراكمة نحونا . وكلما أوغلنـــا الصعـــود فـــى الوادى يصبح جدار الصخر متعلقا فوقنا . وتبرز القشرة الصخرية من حافتها عالية فـــوق رؤوسنا حتى أمكننا أن نسير تحت ظلها . هنا قررنا أن ننتظر وصول الجمال . وعلـــى الفور راح رفاقنا فى نوم عميق. أما نحن فأخذنا نبحث عن بقعة فى الغدير يكـــون فيـــها مجراه قد اتسع وتكونت بركة يمكن أن نستحم فيها . صحيح ، جاءت الأسماك الصغـــيرة لترى إن كنا صالحين للأكل، لكن ذلك لم يفسد علينا المتعـــة العميقـــة غـــير المتوقعـــة بالاستحمام فى بيداء جنوب الجزيرة العربية . كان الماء بالتأكيد دافئا، لكن الهواء الجـــاف

له أثر منعش حالما يخرج الانسان من الماء ويهب عليه الهواء ويجفف جسمه . وكلما توغلنا فى الداخل تصبح المياه أكثر دفئا ، ولا يكون الاستحمام ممتعا فيها ألا فى الليل .

وصلت أخيرا الحمير والجمال وواصلنا السير فى انحدار الوادى الحاد . وسرعان ما حرمنا متعة الغدير وشطآنه الكثيفة النبات . ولم نعد نراها بعدما عبرنا الكهف فى الحائط الصخري الذى ظهر على شمالنا . على أن الخضرة استمرت غنية ومتنوعة . ويتضح من الينابيع الصغيرة فى سفح الحائط الصخري أن كمية المياه ما زالت وافرة. وسقطت كميات ضخمة من الصخر من الجدران شديدة الانحدار فى الوادى . وفى بعض الأماكن تجوفت تلك الجدران بفعل الريح والماء ، ولم تبق منها سوى قشرة .

بدأ فون فيسمان فى مسح الطريق من لبيب . وكنا نستعين حتى هنا بالخريطة الممتازة التى وضعها "ليتيل" فى مسحه الجغرافي لمنطقة المكلا الجبلية فى ١٩١٩ - ١٩٢٠ .

بدأ الوادي الآن يرتفع بشكل أكثر سرعة ، ويحتاج إلى كثير من الصبر والحنكة لقيادة الجمال والحمير المحملة عبر الكتل الصخرية الضخمة . واعتادت جمال الجبال على هذا النوع من الأرض ، فيعبر الجمل برشاقة بين الصخور ، وعندما يجتازها وينعطف يكون واعيا للحمل الذى يبرز من جنبي ظهره . وبمجرد أن يسمع قائده يصيح "حاذر من جهة الشمال " أو "انتبه يمينك" ، فإن الحيوان يسير بحذر مبتعدا عن المكان الذى يهدد حمله بالارتطام .

صعدنا قليلا فى نهاية الوادى ، على بعد ميلين من "حوطة اللصب" ، إلى هضبة صغيرة. و يقع داخل حدود "حوطة اللصب" بستان للنخيل والذرة . وفى نهاية الهضبة الصغيرة تقع قرية " لبيب " فتركناها شمالنا وهبطنا إلى "وادى حمم"، وهو أيضا محصور بين جدران حجرية عالية . وكلما تقدمنا فى السير أصبح هذا الوادى أكثر ضيقا .

وتعترض جلاميد الصخور الضخمة من حين لآخر طريق الجمال على القمم شديدة الانحدار التى على يميننا . وبعد بضعة أميال من "لبيب" يتخذ المسيل الصخري انحناءة. وهنا نبع رائع به حوض مبني لشرب الحيوانات . ويسمى المكان "الحلاف" . وحسب مسح الطريق فنحن مرغمون أن نعسكر حالما يحل الظلام . فمن الصعب أن نمضى قدما فى هذا الوادى بصخوره الضخمة .

(٣) الحياة فى المعسكر

نصبنا معسكرنا عند "الحلاف" بالرغم من أن مرافقينا من البدو لم يكونوا مرتاحين تماماً لسلامته . فصعد القائد "موتور " حائطا صخريا يكاد يكون عموديا يقع على يميننا ، وأرسل آخرين ليتسلقوا حائطا آخر على شمالنا أقل حدة فى انحداره . ومكثوا هناك فترة طويلة يستطلعون ويتفقدون .

فى هذا الأثناء انشغل كل واحد بشيء . أنزل البدو الحمولة من الحمير والجمال وقادوها إلى حوض ماء . وذهب البعض الآخر يبحث عن علف للجمال ، ويقطعونه بخناجرهم المعقوفة . هم يعرفون جيدا نوع الأعشاب الصالحة للحيوانات . ثم أخذوا يدحرجون حزما كبيرة من العشب على المنحدر ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت الجمال تنيخ فى حلقات يتوسطها العلف . وتقف الحمير بعيدا مقيدة إلى شجيرة أو صخرة ، قانعة بمضغ طعامها. وبعد ساعات يبدأ الشجار بين الحيوانات ، وذلك عندما يوشك العلف على الانتهاء. وكنا ما نكاد نغفو ، حتى ننتفض مروعين بالنهيق والرفس وبخوار الجمال . فيركض بعض البدو كالشياطين السود خلف الحيوانات التى تشتجر فارة حتى يمنعوها من أن تأذى بعضها.

شاركنا فى المهمة الشاقة الخاصة بتنظيم المعسكر . واستعنا بخادمنا صالحا لإدخال أسرتنا، وحقائب المعدات ، وصندوق أوعية الطبخ والمنضدة السفرية والكراسى . واخترنا مكانا مناسبا نصبنا عليه الأسرة . وأخرجنا أدوات الإرصاد ، والصندوق الذى يحتوى على أسطوانات النباتات المحفوظة ، و أضيئت مصابيح المعسكر . وبينما كان صالح يعد وجبة بسيطة ، بدأنا ذلك العمل الذى يحتاج إلى طاقات قصوى ، فقد جمعنا كميات وفيرة من النباتات والزهور ، حتى امتلأت حقيبة النباتات تماما . وبعد ساعات وضعنا كل الزهور والنباتات بين طيات الأوراق وضغطناها فى حزمات بين أخشاب الضغط . ثم أفرغنا محتويات الزجاج من الحشرات وفرزناها ولففناها فى قطن وصوف ووضعناها فى صناديق ما عدا الفراشات . لكم هو جهد صبور أن توضع كل فراشة فى قطعه ورق مبتلة وتلف وتحفظ بعيدا . وفى هذه المناطق المنخفضة توجد أنواع عديدة من الفراش ، جذبتها أضواء المصابيح إلى معسكرنا . وكان أبناء البدو يجلبون إلينا

باستمرار أنواعا مختلفة وهم يزهون بما حصلوا عليه . وعندما نفرغ من هذه المهمة هناك اليوميات التى نكتبها . وأخيرا نتولى أمر آلات التصوير ، فنضع الأفلام المستعملة بعناية ونستبدلها بأفلام جديدة لاستعمالها فى اليوم التالى . ثم تأتى أخيرا اللحظة التى نستلقى فيها على أسرتنا ، نحدق بارتياح عميق نحو السماء فوقنا وإلى كتل الصخر السوداء المرعبة التى تمتد فى الأفق . ونستمع إلى أصوات الحيوانات بالقرب منا وهي تمضغ طعامها فى سكينة أو تحك جلدها ، فيضفى علينا كل ذلك إحساسا بالرضى ، ونشعر وسط جلال هذه الطبيعة مع هذه الحيوانات الوفية وتابعيها البدائيين ، أنها نعمة كبرى أن تركنا الحضارة الغربية خلفنا ونعيش فى حضن أمنا الأرض . ولكن ، آه آه ، فسرعان ما انقطع سكون هذه التأملات بصوت أحد البدو يرتفع معبرا عن مشاعر الرضى فى أغنية جافة لا ترخيم فيها ، وأصوات البدو وهم يسترجعون خلافات الأمس بحرارة لعلهم يصلون بها إلى خاتمة. ولكن الحياة مع البدو ستكون بعيدة عن الواقع بدون مثل ذلك الحوار .

كان الوقت متأخرا عندما بدأ الكشافة يجاهدون لهبوط الصخر نحو المعسكر . وذهبت مجموعة أخرى لتحل محلهم لتراقب المدخل . فى الرابعة إلا ربعا جاءت إشارة الرحيل. استغرقت قراءة الباروميتر والمقاسات الأخرى نحوا من ساعة . أظهر البدو ضيقهم من هذا فهو بالنسبة لهم شيء غير مجد ، لكن له ميزة كبرى بالنسبة لنا إذ يمكننا من أن نستبين معالم الجبال قبل الرحيل ونتمكن من قراءة البوصلة .

عندما تجاوزنا الوادى أخذ الطريق يتلوى صاعدا ، ولم تعد الجبال هنا شديدة الانحدار فأمكن حفر ممر على المنحدر فوق مجرى الوادى بالتقريب ٣٠٠٠ قدما . إنه ممر بدائي لكن أدخلت عليه تحسينات هنا وهناك . سرنا فى اتجاه الشمال الشرقي والشمس متوهجة أمامنا على زاوية مائلة ، كنا فى حالة صعود مستمر على امتداد الطريق. وأراد البدو التوقف عند السابعة والنصف ، لكننا منعناهم بإصرار عنيف . فتأجل التوقف حتى الحادية عشرة . وعبرنا عند "العضوضة" على بئر ماء كبيرة، وشاهدنا "زيمان الكبرى" على يميننا قريبة من منحدر الجبل. وتنمو بين مزارع التمباك الشاسعة أشجار النخيل وجوز

الهند والباباي والموز . توقفنا عند القرية التالية وهي "زيمان الصغرى"، حيث وجدنا ملجأ من حرارة الشمس القاسية فى منزل حجري خال يبدو أنه أقيم للقوافل العابرة .

تعرفنا هنا للمرة الأولى على تلك المؤسسات التى أقامها التقاة لحماية المسافرين من الظمأ، وهي "السقاية . وأخذنا ننتقل من سقاية إلى أخرى . وتعلمنا فى النهاية أن ننظر بعرفان أكثر إلى تلك الأبنية البيضاء فى أرض ينعدم فيها الماء . ورغم أننا مازلنا عند بداية حافة الأرض الصخرية الجافة ، إلا أننا ظللنا نتمسك بالمعايير الصحية بالنسبة لماء الشرب . والسقاية عبارة عن بناء صغير مساحته عموما خمسة أقدام مربعة وارتفاعه ستة أقدام ، وسقفه فى شكل قبة ، ومبني من الحجر الطبيعي أو من الطين ومطلي بالجير الأبيض . وعلى جوانب جدران السقاية فتحات مربعة أو مثلثة على ارتفاع خمسة أقدام من الأرض، ومن خلالها يغرف الإنسان الماء من حوض عمقه ست بوصات مشيد على ذلك الارتفاع من السقاية . ويملأ الحوض يوميا بواسطة شخص يحصل على أجر من الوقف المخصص لهذا الغرض . وتوجد قرعة نارجيلة أو علبة صدئة أو كوب خشبي فى إحدى فتحات السقاية ، تستعمل للشرب . وعلى المرء أن يألف سريعا العادة المتأصلة فى هذه البلاد وهي شرب مجموعة من الناس من نفس الإناء تباعا . وحتى بين الأثرياء والسلاطين ، فإن أكواب الشرب الخزفية الضخمة تنتقل من ضيف إلى آخر . ويشرب منها الجنود والعبيد أيضا . وماء السقايات أغلبه متسخ ، وبه خليط من الروائح والمذاقات. لكن الظمأ يعلم الإنسان التغاضى عنها ، وبمرور الزمن يتلاشى التمنع .

استطعنا أن نشترى فى"زيمان الصغرى" الحليب واللبن الخمير (٢) والليمون وجوز الهند والموز، ولكن بأسعار عالية . واصلنا السير بعد الظهر ، ووصلنا بعد فترة قصيرة إلى الهضبة المغطاة بعناقيد كثيفة من الأعشاب والشجيرات. تقع هنا قريتا الغيضة والغياضة وسط مزارع تمباك مزدهرة ومحاطة ببساتين نخيل صغيرة . وعمدة قرية " الغيضة" من أقارب العطاس ، لذلك كنا تواقين لزيارته . ووجدنا باب منزل العمدة البسيط محلى بزخارف بديعة. واستقبلنا فى غرفة صغيرة معتمة ، تستعمل مخزنا للتمباك وللاستقبال فى آن واحد . عاش العمدة فى بتافيا سبع سنوات ، وكون ثروة من تجارة (الباتك) ، وما زال إبنه يواصلها هناك . وحالما علمت ذلك اقترحت عليه أن نتحدث باللغة الملاوية بدلا

من العربية . فوافق مضيفنا بحماسة، وسرعان ما انغمسنا في ذكريات عن جاوا . وفي هذا الأثناء أعدت القهوة ، التي يتكون ثلاثة أرباعها من الزنجبيل وربعها من البن . وأخذ يمر علينا قدح خزفي كبير يتنقل من فم إلى فم .(٣) وكانت هذه الأقداح الفخارية تملأ بالماء وتوضع في الفتحات الصغيرة ، فيهب عليها الهواء وتتبخر حبات الماء على سطحها ويبرد الماء داخلها نتيجة لعملية التبخر(٤). ويستعمل الأغنياء والفقراء على السواء نظام التبريد هذا .

تحدث مضيفنا بشوق عن جاوا الجميلة الغنية ، وعن السنوات الحلوة التي قضاها هنلك ، وكان من الواضح أنه تواق للعودة إليها لولا أنه سيترك عائلته خلفه ، لأن نساء الحضارم لا يتركن موطنهن ويذهبن وراء أزواجهن . واتضح لي من الوداع الحار ، أنني لست مخطئا عندما اعتقدت أن السنوات التي قضيتها في الخدمة المدنية مع حكومة هولندا في جاوا سوف تسهل لي ترحالي في حضرموت .

ساروا جميعهم معنا لوداعنا ، وأخذنا لهم صورا فوتوغرافية بناء على طلبهم . وتابعنا مجرى السيل العريض ثم عبرنا الهضبة التي تحيطها مصاطب ارتفاعها ..٣٠ قدما تقريبا. وعند نهاية الهضبة تقع قرية "حمم" على ارتفاع ٥٠ قدما فوق تل في حافة الوادي الذي اتخذ اسمه منها . وهناك أشجار جوز هند طويلة عند سفح التل، وهي آخر ما سنرى في الوقت الحاضر، لأن الارتفاع بلغ الآن ...٣ قدما . وعند حافة الوادي قناة مليئة بالماء تغذيها ينابيع صغيرة، تسقى مزارع الذرة والتمباك الذي يزرع بعناية ويجني بحذق . صحيح إنه ليس تمباكا حموميا من الدرجة الأولى ، لكن رغم ذلك أسعاره عالية في السوق.

بمجرد مغادرتنا حمم حل الظلام فأجبرنا على التوقف ونصبنل معسكرنا . وتوغل الوادي هنا داخل الصخور الرملية والخليط الذي تحت الصخور الجيرية العتيقة . وأمست الليالي الآن على ارتفاع ...٣ قدم باردة . وحسب أقوال أصحابنا البدو الذين هم خبراء متميزون في تذوق الماء، فإن كمية الماء تتحسن كلما ابتعدنا من الساحل . وتختفي كل الملوحة الحادة تدريجيا .

حصلنا في معسكرنا في حمم على كميات وافرة من الحشرات والنباتات . وعثرنا على الفراش المسمى مبتلع الذنب (Swallow -- Tail) . وجاء عمدة حمم لزيارة معسكرنا . وقال إن قريته البالغ سكانها بين ٢٠٠ و ٣٠٠ نسمة تزرع التمباك ، وهو المصدر الأساسي لمعيشتهم . ولذلك لم يهاجر إلى جاوا من رجاله سوى ثلاثة ، لكنه سمع كل خير عن أرض الوعد وكم يتمنى أن يذهب إليها، ولكن هذا يعني أن يترك خلفه عائلة مكونة من ستة أبناء . وعندما سألته إن كان قد أدى فريضة الحج أجاب بالنفي .

قابلنا عددا قليلا من المسافرين بين المكلا وحمم -- مجرد جمال قليلة محملة بالموز والفواكه الأخرى في طريقها إلى سوق المكلا .

وبمجرد أن انفض المعسكر في صباح الحادي عشر من مايو ، بدأنا نصعد عقبة طويلة ولم نصل قمتها إلا بعد ساعتين . وعندما تقدمنا قليلا مررنا بمكان يسمى "كبر" ، زعم البدو أنه آخر مكان يمكن أن نجد فيه الماء لساعات ، وألحوا علينا بشدة أن نرتاح هنا لفترة ما بعد الظهيرة. ومباشرة بعد موافقتي ، اتضح لي أن القصة عن الماء اخترعت من أجل أن نتوقف . كان المكان غير ملائم ، والماء يجلب من بئر في بطن الوادي من عمق عشرين قدما . ووجدنا أنفسنا مرغمين للبحث عن ظل يقينا من الشمس بين فجوة من الصخور ليس فيها مساحة كافية .

اغتنم فون فيسمان الفرصة وتسلق الجرف الشديد الانحدار الذي يصعد إلى الهضبة ، يصاحبه أحد الجنود العبيد . وتتكون الستون قدما من الطبقة العليا من الحجر الجيري الذي كان يتساقط عموديا في كل مكان ، حتى ليصعب أن تجد فيه بقعة صالحة لاتخاذ المقاسات. لم يصدق البدو أن "الإفرنجي" سوف يتمكن من الصعود بحذائه، وكانوا يتابعون محاولاته باهتمام من معسكرنا . لقد ولد فون فيسمان وتربى في الجبال الصخرية في "ستيريا"، لذلك عندما تمكن من أن يقهر جزءا من الجدار محفوفا بالمخاطر بينما لم يتمكن الجندي إلا من متابعته بمشقة ، فإن شعبيته ترسخت نهائيا بين أهل سيبان . وأصبحوا يلقبونه منذ ذلك الوقت "حرمل" ، وهو يعني الرفقة الحسنة ، ولازمه الاسم طوال إقامته في حضرموت . و"حرمل" تحريف لكلمة "هيرمان" وهو نبات شهير في حضرموت لا تأكله الأبقار ، فهو لذلك عديم الفائدة .

لم يتمكنوا من حفظ اسمى ، فأخذوا ينادوننى منذ ذلك الوقت "قنصل" . والبدو ديمقراطيون إلى حد بعيد، فإذا أردوا أن يستفسروا عن شيء لا ينتظـروا اللحظـة المناسـبة وإنمـا يصيحون من مؤخرة القافلة "يا حرمل" أو " يا قنصل" . فأرد عليهم فـى الحـال بنفـس الصوت العالي "يا حاج " أو "يا سيباني" . ثم يأتى بعد ذلك السؤال الـذى أحـاول أن أرد عليه مازحا . ويستمتعون بالضحك ، وإذا استطاع الإنسان أن يمتلك زمامهم بالحفاظ على روح المرح عندهم، فإنه يستطيع قهر ما هو عصي لديهم . واتضح لى ضـرورة خلـق صداقات مع البدو ، على أن نحافظ فى نفس الوقت على مسافة فى علاقتنا حتى يشـعروا بنفوذنا .

إستطاع فون فيسمان أن يرى من فوق حافة الهضبة على البعد منظرا بديعا . فى الجنوب الشحر والبحر ، وفى الشمال أعلى جبل فى حضرموت هو كور سيبان ، والكتلة الضخمة للصخور الجيرية العتيقة . وفى الشرق والغرب السهل اللامتناهي ، وما زلنا نرى بالقرب منا الوديان التى نخرتها المياه ، وفى الأعلى على امتداد خط الأفق بالقرب مـن الحـائط الصخري تنمو أنواع مختلفة من النباتات الشائكة بأوراقها التـى تجمـع بيـن الزرقـة والخضرة.

عندما بدأت الشمس تخترق الشق الصخري الذى احتمينا به وارتفعت الحرارة إلـى ٣٣ درجة، أرغمنا على الرحيل ، بالرغم من أن البدو لم يكونوا ميالين لذلك . فكان إيقاظـهم مشقة ، وبينما كانوا يبحثون عن جمالهم التى كانت هائمة تبحث عن العشب ، فتقدمنـاهم بخطى وئيدة . كان الطريق فى البداية يتلوى على المنحدر فى وادى حمـم فـى أعلـى مجرى السيل . وأخذنا ننظر إلى الأشجار الصغيرة والأعشاب الندية الاخضرار . وكنـا نرى من حين لآخر راعية وسط الرجال مع قطيع أغنامها . ثم هبط الطريق نحو الوادي. فأخذنا نسير فوق جلاميد الصخر بألوانها الرمادية البيضاء ، وتحـت أشـجار الصنـت الصغيرة بأغصانها الخالية من الأوراق . هكذا واصلنا طريقنا الوعر إلـى نهايـة وادى حمم، الذى كنا نسير فيه وعلى جانبيه طوال الأيام الماضية .

(٤) عبر وادى "لصب" إلى الهضبة الصخريـــة الكبيرة . المعسكر فى "الحسى"

ما أن نفذنا إلى الهضبة العليا ، حتى دخلنا سريعا بطن وادى "لصب" الشاسع الضحل ، المغطى أغلبه بالنبات . تنتشر هنا منازل صغيرة بائسة ، مثل مربعات من الحجر ، بها حدائق صغيرة بدائية . ويعيش الناس أساسا على تربيــة الضـأن والأغنام . فنصبنا معسكرنا لقضاء الليل مباشرة بعد المنازل التى تتكون منها قرية الحسى ، وبجانبها بئر كبيرة مبنية من الحجر يهبط إليها الإنسان بواسطة سلم من الحجر حتى يصل إلى سطح الماء. و البئر محفورة فى مجرى السيل لذلك أقيم حولها حائط سميك لحمايتها يبلغ ارتفاعه قامة الرجل ، حتى لا تجرفها مياه السيول التى تأتى بعد هطول الأمطار . وتسكن عائلة (موتور) قائد قافلتنا فى الحسّى ، وكان ذلك مدعاة للتعطيل ومضيعة للوقت فى ذلك اليوم ، فلم يكن البعض على استعداد لمغادرة الحسى تحت أي ظرف .

نسي البدو الآن كل مشاحناتهم وأخذوا يشعون بالرضى واللين . ونهض أهالى الحسى لقطع العلف للحيوانات ، وجاء كل السكان لمشاهدة معسكرنا ، بعد ذلك أخذ (موتور) كل رفاقه ليتناولوا الطعام فى القرية . وكان قد جاءنا قبل ذلك بفوطة مليئة بالنبق . تسمى شجرة النبق السدر أو الدوم ، ولها أهمية جوهرية فى هذه الأجزاء من حضرموت حيث الماء لا يكفى لزراعة النخيل . وينمو شجر النبق هنا بشكل جيد حيث يعتمد على ماء السيل الذى يأتى بعد هطول الأمطار ، والماء الجوفي فى عمق بعيد تحت السطح ولا يمكن استعماله لري الزراعة، وحتى إذا انعدمت الأمطار لعدة سنوات فإن شجر النبق لا يموت . وثمر النبق كبير فى حجم بلية الرخام وبداخله حبة قوية فى حجم حبة البسلة . و يجمع طعمه بين الحموضة والحلاوة ومنعش ، ويمكن حفظ النبق لفترة طويلة . ويسحق النبق بحبه الداخلي ويصنع منه خبز أو عصيدة (٥) . هذا النبات الصغير مصدر الغذاء الرئيسي للكثيرين فى أوقات الجفاف ، وفى أوقات الندرة يعيش كثير من البدو على النبق واللبن ولا يبدو عليهم الهزال من هذا الغذاء. وتحمل الراعيات النبق فى سلال بيضاوية صغيرة جميلة النسج .

أخشاب النبق محمرة ـــ بنية وقوية ، تستغل للقوائم والعوارض فى منـــازل الأغنيـــاء المبنية من الطين من عدة طوابق . وتستعمل أغصانه الشائكة فى مزارع التمر ، حيـــث تربط فى ضفائر حول الســـاق بعد عناقيد التمر مباشرة عندما يقارب النضـــج حتـــى لا يسرق الثمر . وأخيرا فإن أوراق النبق أيضا مفيدة . فعندما تطول فترات الجفاف وينعـدم علف الأغنام والخراف ، تقوم الراعيات بملابسهن الطويلة السوداء بالتســـلق إلـــى قمـــة شجرة النبق ، ويضربن الأغصان بعصاة، فتتساقط الأوراق الجافة . وتقف الماشية تحـت الشجرة فى حالة ترقب للغذاء الذى بعثه الله لها (٦). أما نحن فكان إعجابنا بثمر النبـــق قليلا ، إذ علينا أن نمضغ طويلا من أجل غذاء قليل ومذاق أقل .

أحضروا لنا فى الحسى كمية من شواء يرقات النمل الأبيض . و طعمه لا بأس به . فأكل فون فيسمان طبقا مليئا ، مما أدى إلى إصابته مباشرة بآلام فى الحلـــق ولـــم يســـتطع أن يصدر أي صوت ، واستمرت معه هذه الحالة لساعتين .

تقع الحسى على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر ، والليالي هنا باردة . وبينمـــا نحـــن هناك فحصنا أكداس النباتات التى جمعناها من قبل وضغطناها . ولخيبة أملنـــا الكـــبرى وجدنا أغلبها قد تعفن بالفطريات . فكان استبعاد النباتات التى تعفنت واستبدال أوراق اللف عملية شاقة ومثبطة للهمة . نحن الآن فى المنطقة العالية الجافة، ولا نتوقع أن نجد مـــن الآن فصاعد صعوبة لنعوض ما فقدناه من النباتات التى جمعناها من قبـــل لأن النباتـــات ستصبح وفيرة . صرنا بعد ذلك نفتح دائما الصناديق التى نضغط فيها النباتات خلال فترة الراحة ما بعد الظهيرة، ونضع أكداس الأوراق التى بداخلها النباتات ونثبتها بالحجـــارة ، حتى تجففها حرارة الشمس المحرقة والرياح الساخنة . بهذا نحمى النباتات من التعفن .

(٥) كور سيبان : أعلى قمة في حضرموت

يقع معسكر الحسى فى سفح كور سيبان ، وبالطبع كان فـــون فيســـمان يريـــد تســـلقه . ووضعنا الترتيب بحيث يتحرك فى فجر اليوم التالي مصحوبا بجندي وبأحد البدو ليكـــون دليله ، بينما أقوم أنا مع الجندي الآخر بالاشراف على استعدادات المعسكر للرحيل وحـث القافلة على التقدم السريع ، ثم نلتقى مرة أخرى عند توقفنا بعد الظهيرة .

كان الليل فى الحسى شديد البرودة ، حتى غدا النوم فى الفجر مستحيلا ، فليس من السهل الاستيقاظ مبكرا . سرنا فى صباح هذا اليوم الثانى عشر من مايو من السادسة والنصف حتى الحادية عشرة . وانساب طريقنا فوق الأرض العالية المستوية ، ومما يثير الانتباه هضاب الصخور الجيرية المسطحة ، التى يخترقها الوادي عموديا ومن ثم تبدأ الوديان الجانبية .

إن هطول الأمطار هنا قليل بحيث لا يمكننا أن نعزى أصل هذه الوديان ذات الشطآن الحادة الانحدار فقط للاندفاع الشديد لمياه الأمطار . ويفترض "بنيت" وزوجته أن هذه الوديان كونها البحر ، وهو ما يفسر التشابه الذى نجده كثيرا فى الخطوط العامة للجدران على جانبي الوادي . ولا يبدو هذا الافتراض مقبولا . يبدو لنا أن نظرية "كيتانى" (Caetani) عن جفاف شبه الجزيرة العربية بل وجفاف كل العالم ربما يقدم تفسيرا مقبولا للحقائق . إن كثرة الأمطار فى هذه الهضبة الجرداء ، حيث تتسرب كل المياه فى الحال، ربما سببت فيضانات عاتية اندفعت بقوة أولية خلال الوديان إلى البحر . بهذه الطريقة تكونت وديان شديدة الانحدار فوق الهضبة. ويمكن أن يعزى التشابه الرتيب فى خطوطها العامة إلى الأرض التى حدثت فيها التعرية ، حيث يبرز دائما نفس التركيب بينما تبقى الظروف المناخية فى الداخل ثابتة . وهناك طبقات أفقية من الحجر الجيري سمكها بين ٥٠ و ١٠٠ ياردة ، تقع على طبقات متشابهة من الصخور الجيرية الأفقية . وتكاد تكون طبقة الحجر الجيري عند حافة الوادي عمودية مثلما كانت طبقة الصخر الرملي فى البداية ، لكنها تختلط مع منحدرات حطام الصخر التى ترتفع عالية فوق جدران الوادي . أما المدن الصغيرة والقرى ، فتقع فى الوديان الضيقة، على تلك المنحدرات من الحطام ، بينما فى الوديان العريضة ، مثل وادي حضرموت ، فتبنى المدن والقرى أمام الحطام .

كور سيبان أعلى جبل فى حضرموت بالرغم من أن ارتفاعه لا يتعدى ٧٠٨٨ قدما . وقمته عبارة عن ارتفاع تدريجي يبرز من الهضبة الشاهقة المحيطة به . ويزيد إرتفاع طبقة الصخر العتيق على ١٢٠٠ قدما عن الهضبة، لكنها أفقية لحد ما ، مثل الحافة بالنسبة "لجبل غريبة" الذى يظهر فى البعيد . يبدو أن اضطرابات عنيفة وقعت هنا فوق أديم

الأرض . هناك ممر للجمال يقود صاعدا إلى قمة كور سيبان المسطحة ، حيث يشاهد الإنسان منظرا بديعا فوق "وادى حويره" ، الذى أحدث تجويفا عميقا فى الجانب البعيد من كور سيبان يقع حوالي ۳۰۰۰ قدم دون وادى حمم . جبل غريبة بالتأكيد أكثر انخفاضا من كور سيبان ، كما يظهر أيضا أنه منفصل عن السلسلة الأخيرة بوادى عميق على جانبه الجنوبي . لا بد أن جبل بركة الذى يقع على مسيرة يومين ، له نفس الارتفاع .

ينمو على إحدى القمم الشاهقة من كور سيبان نبات لعله شجر التنين ، وبه عناقيد كبيرة من زهور محمرة. لكن سيقانها مشوهة لانتزاع قطع من لحائها ، كما اقتطعت منها أغصان نامية . وشاهدنا للمرة الأولى على قمة الهضبة عشب كروي ، هو العشر الذى يدر مادة مثل اللبن ، ليس به عصارة ، لكن له أغصان خضراء. على الرغم أن هذا النبات له أزهار وثمار ، إلا أنه فى ذلك الوقت بلا أوراق . ويحدث هذا دوما .

تمتد غربا من قمة جبل سيبان هضبة مجعدة ، تتقاطع فيها عدد من ممرات للجمال ، توجد بها أحواض لتجميع مياه الأمطار تسمى نقاب (مفردها نقبة) . والنقبة عبارة عن قبو محفور فى صخرة جيرية ، وبه فتحة مستديرة ضيقة قطرها ثلاثة أمتار , ثم ممر رأسي سرعان ما يتسع ليصل إلى تجويف تحت الأرض عمقه بين تسعة إلى عشرة أقدام وقطره بين خمسة عشر إلى ثمانية عشر قدما . وتنساب مياه الأمطار عبر خنادق منخفضة . والفتحة الضيقة تساعد على منع التبخر ، فيبقى الماء فى القبو باردا . وفى الأماكن المناسبة التى تشتدد فيها الحركة، توجد بين ست إلى عشر نقاب بالقرب من بعضها . ويبقى الماء فى داخلها إلى فترة قد تصل إلى ثلاث سنوات ، على أن طعمها عموما فيه ملوحة . توجد أيضا فى الغالب مبانى مربعة صغيرة بالقرب من النقاب ، جدرانها من الحجر الطبيعي مرصوص بطريقة غير محكمة، وسقفها مسطح من الطين . يسمونها مربعات تستعمل لحماية المسافرين وحيواناتهم من حرارة الشمس المحرقة نهارا ومن الرياح الباردة ليلا . ويجد المسافر دائما استحكامات ونقاط مراقبة محصنة بالقرب من النقاب ، علينا أن نتذكر الحروب التى دارت فى هذه الأرض الخالية من السكان .

لقد سهلت النقاب السفر فى الهضبة الصخرية الجافة . وكان انعدامها سيؤدى إلى متابعة جلاميد الصخر فى قاع الوادى المتعرج ، أو الهبوط إليها دوما بحثا عن الماء. أما الآن

فينتقل الإنسان من نقبة إلى أخرى . تكون بعضها أحيانا فارغة نسبة لفترات الجفاف الطويلة ، مما يسبب خيبة أمل كبرى ، لكن سرعان ما يأتى المرء على أخرى . ويعرف البدو فى هذه الجهات موضع كل نقبة معرفة تامة ، فيضعون خطة مسيرتهم بناء على ذلك . تحتل النقبة محل السقاية فى الوادى . فهي تنتمى إلى الهضبة التى تسمى "الجول" الذى يقع بين الجبال الساحلية والمنخفضات الكبيرة فى حضرموت الداخل .

(٦) الجول

أصبح طريقنا يقودنا عبر الجول حتى وادى دوعن . و الجول عبارة عن هضاب شاسعة تتكون من حجارة جيرية لونها محمر بني ، حيث توجد جبال أفقية لها قمم مسطحة ، من بقايا هضاب قديمة أكثر علوا ، تمتد مثل أجنحة طويلة . وتدخل الوديان عميقا فى داخلها. وكثيرا ما نهبط أيضا فى منخفضات مسطحة فى شكل أحواض تمر فوق الحافات المتداعية للهضاب ، ثم نصعد بعد ذلك بمشقة نحو الجلاميد فى الحافة الأخرى للهضبة التى تبعد نحوا من نصف ساعة . وحيثما ينظر الإنسان يرى نفس الخطوط الطويلة الأفقية من المساطب الجبلية ، التى حفرت فيها الوديان أخاديد متشعبة . والسهل مغطى بشظايا حادة من الحجر الجيري ، ألوانها بنية داكنة وسوداء ، وعندما تطأها أقدام العابرين تحدث أصواتا مثل رنين المعادن من تصادمها ببعضها . وتكاد النباتات تكون معدومة . توجد عند حافة الهضاب التى يمر عليها السحاب أحيانا، بعض أعشاب الصنت البائسة. ولا يوجد أثر لحياة الحيوان هنا، ماعدا القليل من السحالي وأحيانا طائرا وحيدا. الطقس فى الجول ساخن جدا أثناء النهار ، فالشمس محرقة ، والريح حارة وجافة . ثم تنقلب نفس الريح فى الليل باردة ونفاذة، مما يجعل الإنسان يصحو ويبقى مستيقظا يتطلع إلى دفء الشمس قبل شروقها . ثم يبدأ العذاب من الحرارة مرة أخرى بعد ساعة .

الرتابة التى لا تنتهى هي العدو الأكبر للمسافر فى الجول . فالضوء عنيف وينعكس آلاف المرات من الصخور المعدنية اللامعة . ويتعرج ممر الجمال الضيق مثل شريط أملس لامع عبر الفضاء الفسيح الذى قل أن يتغير . وأزاحت الجمال بخفها الحجارة جانبا عن الطريق الذى ظلت تعبره على مر السنين . وتسطح حجر الهضبة الجيري وأصبح صقيلا

من الأحذية الخشبية التى يلبسها البدو(٧) ومن خف الجمال . وتتبع القوافل نفس الطريق، وقل ما تكون هناك ضرورة لتعرجات .

إرتحنا فى الظهيرة عند النقاب والمربعات ، حيث لحق بنا المتسلقون من كور سـيبان . وتسمى هذه البقعة "بين الجبال " .

واصلنا مسيرنا فى العصر فوق مستجمع المياه الجوفية بين الشقوق التى انحفرت عميقـا عن اليمين والشمال، فكونت منحنيات كبيرة حول مساطب الجبال . شـاهدنا عنـد نقبـة "الغاط" (Ghat) جبال الساحل الجنوبي للمرة الأخيرة . واختصرنا الطريق (ويسـمى : مقربة) بأن هبطنا بمشقة إلى بطن الوادي ، ووجدناه لدهشتنا الكبيرة مغطـى بالأعشـاب والأشجار الصغيرة، فكانت تنبعث منه رائحة الياسمين الذى ينمو بريا . تقع أماكن إقامتنـا لليل فى "القمرة" خلف"قارة المول" وهو الجبل الوحيد الذى له قمة . يبـدو أن (موتـور) ورفاقه لم يكونوا على يقين من سلامة المكان ، فأرسلوا رجالا أحاطوا بنا للاسـتطلاع ، وتمت مراقبة دقيقة أثناء الليل.

ما إن غربت الشمس حتى بدأنا نرتجف فى ملابسنا الخفيفة ، فأسرعنا بـارتداء ملابـس دافئة قدر المستطاع. أما رفاقنا البدو فليس لهم أي ملابس دافئة ولا حتى بطانيات يتغطون بها أثناء نومهم . فكانوا يجلسون فى الصقيع والأجزاء العليا من أجسامهم عارية ، ويبـدو أن ذلك لا يؤذيهم . على الرغم من أنهم يوقدون نارا يتحلقون حولها إلى وقت متأخر مـن الليل ، يحكون أقاصيصهم أو ينشدون "دانا دانا" بتطريب . وكان وقع أصواتهم النكـراء منفرا ، وتبعث إيقاعاتها الغريبة على آذاننا الكآبة والحزن . ثم ينشدون أغـاني مرحـة يستحثون بها الرجال والحيوانات على السير السريع ، وكم هو مدهش ذلك المدى الـذى يستمر فيه الغناء والأثر المشجع الذى يحدثه بالنسبة للحيوانات . ولم يقتصر الأثر علـى الجمال ، فحتى الحمير أخذت تعدو خببا حتى لا يلحق بها البدو الذين ينشدون ويتقافزون.

كان الليل باردا فى "القمرة ". وانقضى وقت طويل من الصباح قبل أن تتسرب الحيويـة إلى مفاصلنا المتصلبة. وأمامنا مسيرة طويلة ، وسوف يعانى المرء من الشمس المحرقـة إذا بدأ الرحلة فى وقت متأخر من الصباح . ما كانت هناك حاجة إلى مشـقة الصعـود والهبوط ، فالطريق ينبسط فى يسر فوق الهضبة المنحدرة ، تسمح برؤية مساطب جبليـة

مسطحة وليست وديان عميقة . وشاهدنا فى الجبال المحيطة الكثير من الخطوط الأفقية، والهضاب العتيقة أو الطبقات الجيولوجية . وكلما ابتعدنا فى المسير كلما قلت النباتات . عبرنا فقط على قريتين صغيرتين بهما مساحات لا تذكر من الزراعة التى تعتمد كليا على مياه الأمطار . وقضينا فترة الراحة ما بعد الظهيرة فى مربعة. توافد علينا هنا بعض سكان القرية يطلبون أدوية . فكنت أجثو عند صندوق الأدوية فى الشمس المحرقة أحاول أن أعالج المرضى . فأقوم بتنظيف العيون المغطاة بأوساخ الالتهاب بالقطن والبوريك ثم بقطرات من الدواء . أما المصابون بالحمى فأعطيهم أسبرين مع كوب من الشاي الحار والليمون لعلاج الصداع والحمى. ونظفنا الجروح المتقيحة وربطناها بالضمادات . كما أعطينا بعضهم زيت الخروع والكينياء . ويعطى السكان إنطباعا بالصحة والعافية، وعلى الرغم من أنهم لا يغسلون أجسامهم إلا نادرا ، ويمسحونها بالسمن والنيلة ، لكن المدهش أن الأمراض الجلدية قليلة بينهم . أما الملاريا فقد جاءت إلى الجول من المقاطعات المنخفضة .

غالبية البدو صغار الأجسام وبنيتهم ضعيفة ، لكن لهم قوة تحمل عظيمة . ولا يعطونك الانطباع بأنهم يعانون نقصا فى التغذية . فالشبان فى قافلتنا يخبون طوال اليوم ، ويساعدون بحماسة صباح مساء ، ويأكلون فقط وجبتين فى اليوم (بعض التمر والأرز وقطعة من اللحم وأحيانا خبز بلا خميرة يخبزونه على الرماد الحار) .

تتكون قرية "الدهما" كما يبدو من حوالي عشرين منزلا صغيرا ، شيد الجانب الأسفل منها من حجارة غير منسقة ، وشيد الجانب الأعلى من الطين . وبها قلعة مربعة ضخمة مبنية من الحجارة للدفاع عن القرية ويسكن فيها العمدة (٨) . وفى حافة القرية بناء من الطين يستعمل جماعيا لدرس الحبوب . وهناك أفران لشواء اللحم ، وهي عبارة عن أكوام صغيرة من الحصى توقد عليها النار حتى تصبح ساخنة ويشوى عليها اللحم (٩) .

كان عدد المصابين بالعمى وبأمراض العيون الأخرى مروعا . والمقبرة التى تقع خارج القرية كبيرة . صفوف من المقابر مغطاة بأكوام من الحجارة مما يعطى انطباعا بأنها حديثة . ويبدو أن "الدهما " ابتليت بوباء . حرثت الحقول بعناية و تنتظر الآن المطر . وهناك شجرتا نخيل وبعض أشجار السدر مما يضاعف الإحساس بالخواء الذى يخيم على

المكان . يبدو أننا فوق مستجمع المياه فى مجرى نهر حضرموت الداخل . والفضاء جاف من النبات . وأشجار العشر خالية من الثمر والأزهار ، فقد جف عشبها القليل . وبعدما اجتزنا "دهما" شاهدنا بحيرة صناعية تم حفرها بجهد كبير لتحفظ ماء المطر ، كانت جافة فى ذلك الوقت(١٠) . وصلنا "بريرة"(Bureyyira) بعد نصف ساعة من المغيب، حيث يقع مكان إقامتنا لليل بالقرب من قرية صغيرة .

(٧) رحلة قصيرة إلى أنقاض قوم عاد

كان برنامجنا ليوم ١٤ مايو حافلا . كنا دائما نسأل البدو عن الأنقاض والنقوش ، كانوا يدركون ما نرمى إليه ، فكلهم يعرفون أنقاض مدن ومقابر قوم عاد وثمود ، السكان الأصليين للبلاد ، الذين أزاحهم الله عن ظهر الأرض عقابا لهم على خطاياهم الجمة . وهناك مجموعة أنقاض فى اتجاه حضرموت الداخل ، ومركزها فى اتجاه اليمن . ولعلنا نخطو هنا داخل حدود حضارة السبئيين(١١) . وقال أحمد العجوز وهو أحد رفاقنا السيبانيين ، بعد أن أغريناه بعطاء جزل ، إنه تجول فى تلك الأنقاض ، ويتذكر نقوشا رسمها قوم عاد على سطح صخرة فى وادى "ثقب" (Thiqbe) ، وهي ليست بعيدة تقع فى الشمال الشرق من طريقنا،وبجانبها بقايا منازل سكنها أولئك القوم فى أيام نبي الله هود . فوضعنا الترتيبات بحيث تتقدمنا القافلة ونقوم نحن برحلة سريعة إلى بقايا عاد دون أن نفقد يوما من برنامج رحلتنا .

كان الليل فى "بريره" باردا لكن الحرارة فى الصباح بلغت ١٨ درجة مئوية . إن رياح الليل بالمفارقة الكبيرة مع حرارة النهار تجعل أثر البرد كبيرا . تحركنا فى الخامسة بقيادة أحمد وحماية الجندي "عبيد" . فسرنا فى البداية على الحمير لبضع ساعات ، ثم تركنا الحيوانات مع حراسها ، وسلكنا ممرا جانبيا يقود عبر صخور ضخمة إلى منبع وادى غار . وسرعان ما أصبح الوادى عميق التجويف وتسلقنا بصعوبة فوق حائطه الشديد الإنحدار ، لكن لحسن الحظ لم يستغرق ذلك وقتا طويلا ، واقتربنا من بطن الوادى . و تعترض طريقنا أحيانا جلاميد من الصخر لونها بني يغشاه بياض . وتنمو مختلف النباتات الجذابة على حائط الصخر ، مثل (Anisotes) الذى يوجد أيضا فى "الحسى" . تابعنا قاع هذا الوادى الضيق لفترة طويلة ، إنتعش نظرنا بألوان أشجار الصنت المتناثرة . وبعد

تسلق شاق وصلنا حدود وادى " ثقب" ، حيث قمنا بالالتفاف حول جلاميد ضخمة من الصخر . يبدو أن السيل كون هنا شلالات فانحفرت أحواض عميقة بين الصخور ، ومازال بعضها يحتفظ بالماء ، رغم أنها كثيفة ولونها بني . الشمس عالية حتى أن أشعتها تصل إلى قاع الوادى ، فترتفع الحرارة بسرعة ، وأثر فينا التعب لفترة طويلة فشعرنا بظمأ شديد . فتقلص سريعا مخزوننا من الماء . ووجدنا قليلا من الظل تحت بعض الأشجار منها بعض أشجار السدر الشاهقة ، هنا أخلدنا للراحة . ويعرف أحمد الطريق جيدا ، فقد قادنا إلى بحيرة عميقة تحجبها الصخور ، حولها جدران مستقيمة مليئة بماء بني اللون . ورغم أننا لن نجرؤ على الشرب منها ، فإننا نستطيع على الأقل أن نستحم فيها . واعترض دليلنا على الفكرة ، فهو يعتقد أن فى الماء ثعابين ضخمة . ولم نر زواحف خطيرة ولم نصدق الرواية ، لكن أردنا إظهار إحترامنا للرعب من الخرافات التى صورها لنا البدو فى هذه البقعة الجميلة من الطبيعة ، لذلك تركنا فكرة السباحة .

يرتفع جرف الصخر عاليا قريبا من هذا المكان حتى يصبح الوادى هوة عميقة (Canyon) وهي ظاهرة لم نشاهدها من قبل . ولا بد أن منازل قوم عاد كانت هناك فى المكان الذى يبدأ فيه الجزء العمودي . وبعد أن تسلقنا قليلا فوق انحدار خرائب الصخر فى القاع ، وصلنا إلى دار عاد ومنطقة عاد . وبعد أن تسلقنا إلى قاع الحائط الصخري المعلق جزئيا، شاهدنا بقايا منازل فى غاية البساطة طولها عشرة أقدام وعرضها ستة أقدام . والثقوب فى الجدار الصخري مقفولة فى بعض الأماكن بالحجارة ، وتظل مفتوحة فى أماكن أخرى . وتمتد عميقا فى الجدار ، لكن بعد تفحصها لم يظهر فيها ما يثير . ويصل ارتفاعها إلى قدم . شاهدنا أيضا صفا من الثقوب في المكان الذى به أعمدة فى السقف . وفى أعلى حائط الصخرة رسومات بلون أحمر منتشرة فى عدة أماكن ، ويبدو لها شكل الحروف الأبجدية ، وأمكن التعرف على بعضها باعتبارها حروفا سبئية . فهي فى حالة حفظ هنا فى مكان لا تصلها الشمس أو المطر .

قام البرفسور "موردمان "(Mordtmann) من برلين بفك رموز الصور التى أخذناها، ووجدها كلها نقوش لأسماء أعلام .

يمكن التعرف على المنازل من مسافة ٤٥٠ قدما تقريبا . والمنازل التى ما زالت قائمة مشيدة من حجارة طبيعية ملتصقة مع بعضها بالطين . ولا يبدو عليها أنها قديمة جدا . لعلها شيدت فى وقت متأخر بعد النقوش .

تقع دار عاد عند تقاطع وادى "منوه" مع وادى "ثقب" . وواصلنا تسلقنا على الجدار الصخري لوادى ثقب حتى منتصف النهار حيث المكان الذى تتوقف فيه قافلتنا عند مربعة "باخميس"، ووصلنا بعد ساعة من انتصاف النهار .

(٨) الإقتراب من وادى دوعن

بدأنا نلاحظ أننا نقترب من العقبة الكبرى التى تقود إلى وادى دوعن ، عبرت علينا قافلة طويلة محملة بالأرز قادمة من المكلا ، واقترب منا حوالي عشرون قرويا على حميرهم فى طريقهم إلى المكلا . وواصلنا مسيرنا فى الساعة الثالثة والنصف، واخترقنا هضبة عالية جافة، تلاشى الأفق البعيد فى ضباب أزرق ، وتبدت الخطوط العامة لهضاب الجبال المنخفضة الممتدة فى الأفق ، أرضا فى غاية الرتابة بلا ألوان أو معالم . وسوف نفترق عنها غدا عندما نبدأ الهبوط إلى وادى دوعن ، فهذه آخر ليلة لمعسكرنا المتجول مع أصدقائنا السيبانيين .

عسكرنا عند "حمحار" على حافة الهضبة ، حيث وجدنا مأوى من الرياح . وفى أحد الأيام إشترى رفاقنا غنمة بعد مساومة مع صاحبها . وأدى توقع الوليمة إلى اضطراب ذهني لدى البدو جعلهم ينزلون حمولة الجمال على مسافة بعيدة منا . وتنبهنا إلى هذا الأمر بعد وقت متأخر , فأبدينا إصرارا شديدا على إعادة تحميل الجمال ،لكننا اقتنعنا فى النهاية بقبول وعدهم بأنهم سيحملون أمتعتنا التى نحتاجها إلى حيث نعسكر . وجعلونا ننتظر : فذبحت الشاة واعدت للطهي وخرجوا جميعهم يبحثون عن الحطب ، وبدا لنا أنهم لن يهتموا بنا بعد ذلك . وحتى نتجنب هذا الإهمال قام صالح والجنود بنقل كل طعام البدو إلى مكان إقامتنا . وانتظرنا فى ترقب لنرى ماذا سيحدث . عاد السيبانيون من كل اتجاه ، وألقوا بالحطب فى كومة كبيرة وأشعلوا فيها النار تحت الحجارة التى سيشوى عليها اللحم بعد قليل . وعندما أرادوا إعداد العجين للخبز ، اكتشفوا أن كل الطعام اختفى . فتوقف المرح فجأة ، وبعد لحظة من الدهشة انفجر التذمر صاخبا . واقترب منا (موتور) مع

رفيقين مطالبا بإعادة المواد الغذائية . تحدثوا أولا مع جنودنا ومع صالح الذى أمطرهــــم بسيل من التوبيخ ، لكنهم كانوا يخشون من أعماقهم أن ينقلب غضب البدو عليهم . ثم عاد الرسل الثلاثة إلى رفاقهم ، ويبدو أن (موتور) دافع عن موقفنا ، فقد واجه هجوما من كل الجهات . وبعد لحظة عاد بصحبة "الحاج" واتجهوا رأسا إلي وألقوا ببنادقهم عند قدمي وهم يقولون " لقد سلمنا لك أنزل عقوبتك علينا " . ثم انسحبوا وجلسوا ينتظرون . وتركتهم فى حالة الانتظار لحظة ، ثم تحدثت إلى (موتور) مكررا إشارتى إلى نواقصـــــه . وارتـــاح الطرفان عندما استعاد القادة بنادقهم مرة أخرى ، وتحقق السلام . واستعيدت أكياس الأرز والتمر وأمكن للوليمة أن تبدأ .

بعد قضاء الليل فى "حمحار" تبع ذلك رحلة لساعات فوق هضاب فوقها حصـــى منثـــور بألوان بنية ومصفرة. يمكننا أن نرى كل ما حولنا لمسافة تمتد لمسيرة عدة أيام ، حقـــول من الصخور البنية تمتد بلا نهاية ويكاد الأفق يكون مسطحا . ولم نر بعد أي شيء مـــن وادى دوعن العظيم. ولم نفهم شيئا ، لكننا تقدمنا عبر الممر الضيق الذى يتلـــوى عـــبر الأرض الصخرية الممتدة . وواصلت القافلة مسيرها يخيم عليها صمت ثقيل . وحوالـــي الثانية عشرة ظهرا وصلنا العقبة التى طال إنتظارنا لها والتى تقود إلى وادى دوعن .

هوامش

(١) ينطق أحيانا :موتر والكلمة أصلها إنجليزي (motor) أي سيارة . ولقب بها هذا الرجل نسبة لسرعته . ويسمون هؤلاء العدائين أيضا "مكتب" .

(٢) يسمونه محليا : الروبة

(٣) تسمى بالعامية "خزبة" وقد تلاشى استعمالها الآن

(٤) هي نوافذ ذات فتحات صغيرة للتهوية فى الصيف وللحماية من البرد فى الشتاء

(٥) لا يسحق كل ثمر النبق ، وإنما الجزء الخارجي والحلبوب الداخلي . أمـــا الغشـــاء الغليـظ فيرمى .

(٦) أغفل أهم دور لشجرة النبق فى دوعن ، فهي مرعى للنحل الذى ينتج أفضل أنواع العســل وله شهرة واسعة وتستعمل أوراق النبق بعد تجفيفها لغسل شعر النساء (يسمى غســـة) وتعتقـد النسوة أنه يطيل الشعر

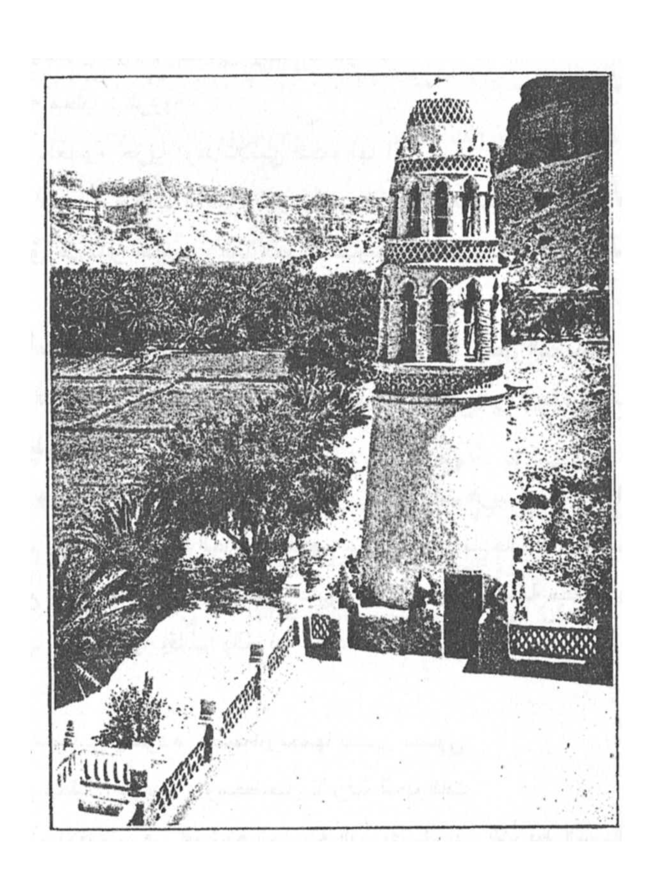
(٧) تسمى هذه الأحذية القبقاب وكانت تستعمل حتى وقت قريب ، ولكنها اختفت الآن .

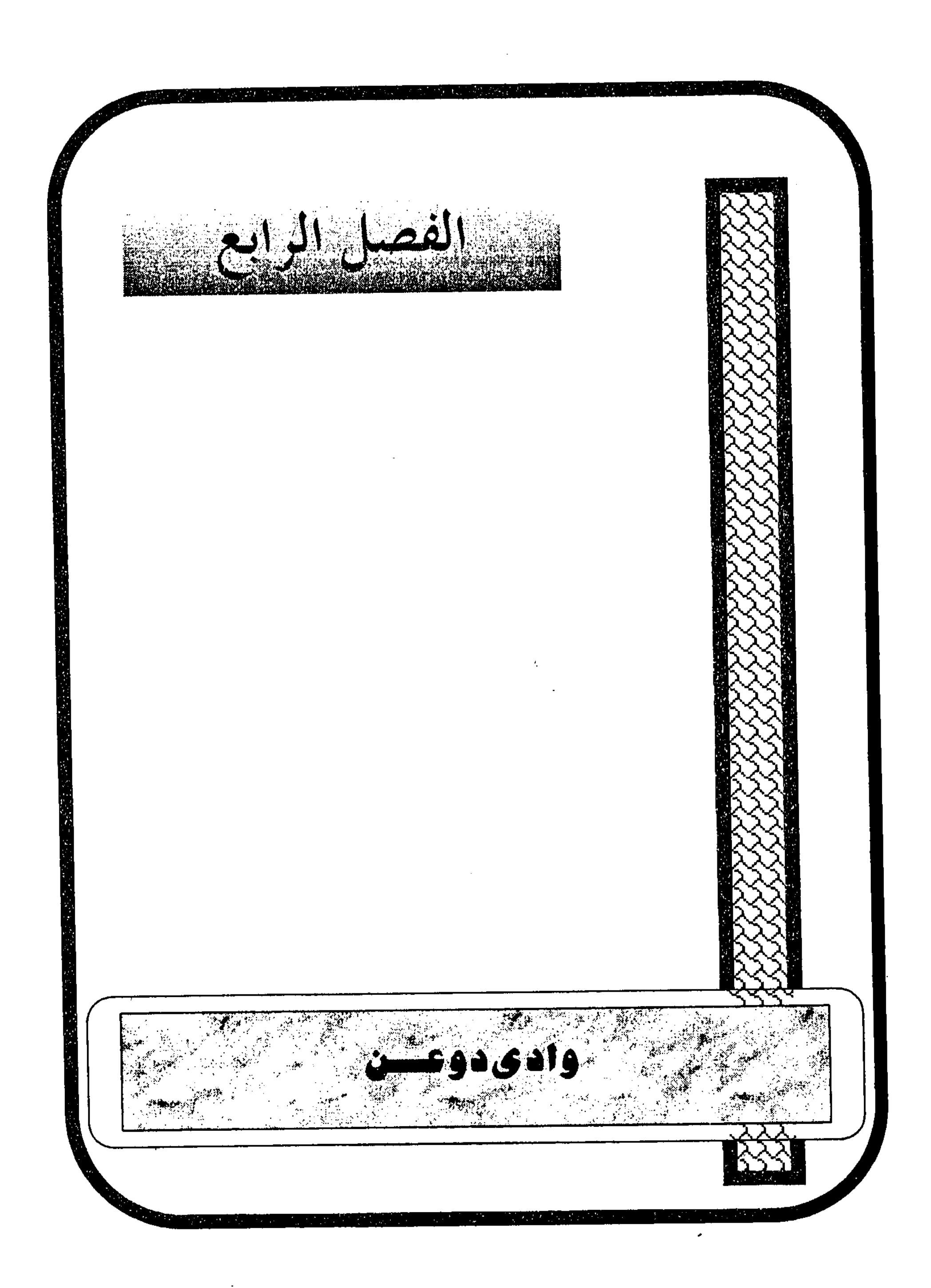
(٨) تستخدم هذه القلعة أثناء الحرب ، فيقوم سكان القرية بإدخال كل مؤنهم فـــى هــذه القلعــة، ويدخل جميع السكان فى القلعة ويغلقون عليهم الباب . وتقوم القلعة مكانالمدينةالمسورة. والكلمـــة التى استعملها بالإنجليزية يقابلها بالعربية "عمدة" : ولكـــن كلمـــة العمـــدة غـــير مســـتعملة فـــى حضرموت.

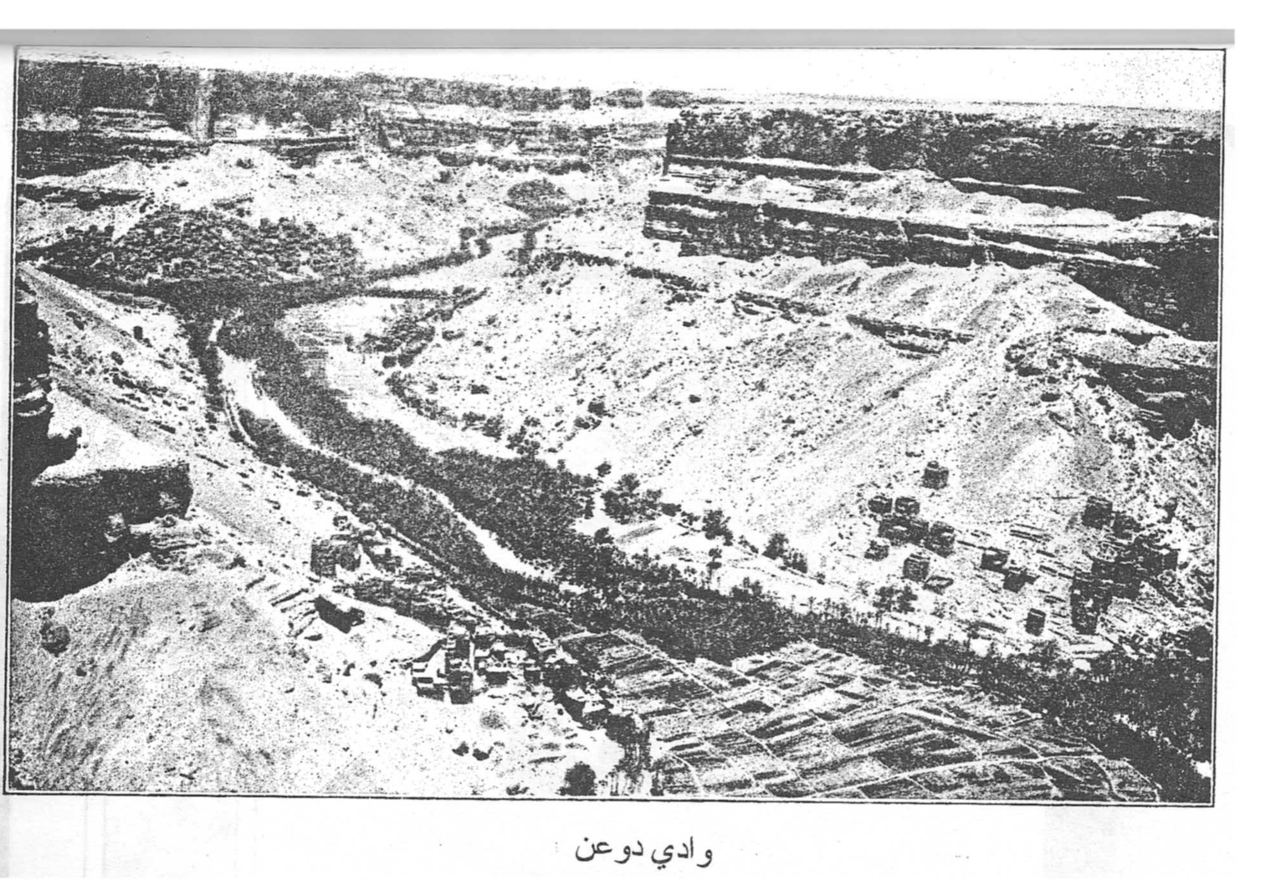
(٩) تسمى مضابي ومفردها مضباة ولحمها يسمى مضبي

(١٠) يسمى محليا : كريف ، ومخصص لشرب الحيوانات

(١١) تقع هذه الأنقاض فى الهضبة الجنوبية التى تفصل بين الشريط الســـاحلي ووادى دوعـــن . ولعلها أنقاض تعود إلى عهود قديمة .




الفصل الرابع
وادى دوعن



وادي دوعن

(١) الهبوط إلى الوادى

لايظهر وادى دوعن الخلاب بانحداره الشديد إلا عندما يصبح قريبا جدا ، لأن المساطب الأرضية تستمر دون تغيير على الجانب الآخر . ويبلغ عمق المنخفض إلى القاع ٩٠٠ قدما حيث ينحصر الوادى بين بقايا الصخور المتحطمة . اقتربنا من صخرة صغيرة فى الجدار تمكنت الجمال من العبور خلالها . سار السيد علوي فى المقدمة دون توقف مع طلائع القافلة ، فهو يتطلع شوقا بعد الرحلة المضنية إلى حياة المدينة مرة أخرى .

بقينا فوق القمة لفترة لقياس الانحدار وأخذ الصور الفوتغرافية . توجد عند بداية الهبوط فى الطريق الصخري قلعة حصينة من الصخور الصم . (تسمى هنا :كوت. جمعها أكوات وهى كلمة من أصل فارسي). ثم شاهدنا قرية أخرى شبيهة بها فى الجانب الآخر. هناك العديد من النقاط العسكرية التى تسهر على سلامة الوادى الغني الذى يقبع فى الأسفل . اقتربنا بحذر نحو حافة الهضبة المتداعية ، وعندما حدقنا إلى أسفل امتلأنا رعبا . وشاهدنا حولنا حقولا لامتناهية من الصخور الرمادية البنية ، التى لا نبات فيها ولا رائحة لها . وفى واجهتنا مباشرة ، وتحت أرجلنا تماما ، جدران من الصخر الأصفر، وبعيدا فى أسفل الوادى الألوان والسحر الذى يصل حد الإعجاز. وتشرق الشمس مباشرة على الوادى ، حيث لا ترى حياة أو حركة . يقبع الشريط الرمادي الأخضر اللامع لبساتين النخيل ساكنا بين المربعات الصغيرة من أحواض مزارع الذرة والذرة الشامية والألفا ألفا باصفرارها وخضرتها البهيجة . ويتلوى خلالها وشاح جليدي مبيض ، هو مجرى السيل الرملي . وتنتصب قريبا من واجهة منحدرات الحطام الصخري قرى صغيرة ، ليست أكثر من مجموعة منازل عالية مبنية من الطين ، لها نفس لون الأرض البني التى تقف عليها . لا يصلنا أي صوت من تحت ولا نلمح أي أثر لحياة . يقع وادى دوعن بين ضفتي صخوره العالية ،منغلقا فى أمان عن العالم ، مثل قطعة غير حقيقية من جنان منسية تنتظر يوم البعث . هذه هي جائزة المسافرين المرهقين من السفر فى الصحراء . غمرتنا الفرحة . ووقفنا على حافة "أرضنا الموعودة" يغمرنا الإعجاب . وما تجرأنا ولا كان باستطاعتنا أن نتخيلها بهذا الجمال . هذه ليست بعد حضرموت الداخل ، وإن كانت فى الحقيقة بوابتها الخارجية . وقفنا على شفا الهاوية

وبدأنا ندير آلات التصوير فى صمت. وبالرغم من الحرارة فلم نستطع أن ننتزع أنفسنا من السحر الذى خلبنا به هذا الوادى الزاخر بالخصوبة والجمال ، وسط صحراء قاحلة لامتناهية من الصخر والحجارة.(١)

وصلت فى هذا الأثناء الجمال إلى العقبة وأنزلت منها الحمولة . فلابد أن ترتاح الحيوانات تماما قبل أن نخاطر بها فى عملية الهبوط الشاقة . وعندما نظرنا من أعلى العقبة بدا لنا من المستحيل على الحيوانات بأقدامها التى تناسب السير فى السهول ، أن تهبط الهضبة ، خصوصا إذا كانت محملة . لكن بدو سيبان يعرفون مساطب الأرض المرتفعة والعقبة وطاقة جمالهم. وليس من المألوف أن تصاب الجمال بحادثة فى العقبة . قسمت الجمال الآن إلى مجموعات من ثلاث أمام كل مجموعة بدوي .

يبدو أن الجمال كانت تدرك ما ينتظرها ، لأن الأصوات الحزينة من حناجرها استمرت دون توقف . واحتاج إرغامها على الحركة إلى كثير من الصياح والتوبيخ من أصحابها البدو . يعبر فوق هذه العقبة جزء كبير من الحركة بين المكلا وحضرموت. وهناك طرق أخرى وطريق آخر مباشر من شبام ، لكن من السهل أن تلاحظ فى هذا الطريق خف آلاف آلاف الجمال حتى أصبح الصخر لامعا . وعندما يصبح الممر شديد الانحدار وتتردد الجمال فى سيرها يخاطبها صاحبها بكلمات تشجيع ، فتبدأ تنساب أصوات أهازيجهم وصرخات تحذيرهم وتهليلهم ، يتردد صداها فى جنبات الحائط الصخري . فتبدأ تتحرك ببطء وحذر ، وتصل كل القافلة إلى بطن الوادي دون حادث مؤسف .

كانت طلائع القافلة قد وصلت مع الحمير منذ فترة طويلة . ووقف جمهرة من الصبية ينتظروننا ، كما وقفت مجموعة من النساء فى الخلف فى ظل أشجار النخيل ، لا يردن أن تفوتهن الفرصة لرؤية النصارى . وأرسل الحاكم باصرة بعض الجنود ليقودونا إلى قلعته. كانوا يبدون كأهل اليمن الشمالي ، وبالفعل جاء بعضهم من المرتفعات الغربية . تقع القرى والمدن قريبا من سفح الجبال بالقرب من المزارع. المنازل عالية جيدة البناء ، تقوم فى الغالب على منحدر حاد . واستطاع قلة من الأغنياء طلاء الطابق الأعلى من منازلهم بالجير الأبيض. أخذ الطريق يتلوى عبر بساتين النخيل إلى "المصنعة " ، وهي حصن الدولة . وأشجار النخيل قوية ورائعة . تتدلى منها عناقيد ثمارها الصفراء والحمراء .

ويحيط بكل شجرة حائط من الطين ، حتى إذا جاء السيل لا يجرف جذورها ويبقى جــزء كبير من الماء داخل تلك الحواجز . وتغوص أقدامنا حتى فى الحقول الظليلة فــى طبقــة كثيفة من الغبار الناعم مثل الدقيق ، ذلك لأن السيل لم يأتهم منذ فترة طويلة .

(٢) باصرة ، حاكم وادى دوعن

يمضى بنا الطريق صعودا عبر قرية المصنعة إلى الحصن ، الذى يقف فــوق صخــرة عالية تعلو كل المنازل الأخرى . يبدو الحصن مثل قلاع العصور الوسطى العاتية عليــه أبراج فى أركانه ، وبوابات ضخمة ، واسطبلات ، ومساكن للجنود ، وقاعات وغــرف . والبوابات المتينة منحوتة نحتا رائعا ومزينة بلوحات معدنية ورؤوس مسامير. فتــح لنــا جنود الحراسة البوابة الأولى . فعبرنا ممرا إلى البوابة الثانية ، ثم عبرنا اسطبلا به بعض العجول ، إلى البوابة الثالثة . ثم قادونا عبر صالة تزخر بالجنود ، إلى صالة أضيق هــي فى الواقع ممر ، تنفتح على شرفات السطح حيث يشعر الإنسان بالنسيم حتى فــى ذلــك الوقت من اليوم . هنا يجلس باصرة (٢) المسن الضرير محاطا بمستشــاريه وبزعمــاء قبائل البدو الحليفة. نهض باصرة بمشقة متلمسا طريقه ليحيينا . قامتــه فارهــة ولحيتــه طويلة بيضاء ، وما زال ذهنه يقظا وصوته واضحا . كنا فى غاية الإرهــاق وحــرارة جسمنا ساخنة ، لذلك استمتعنا شاكرين بفناجين القهوة القويــة وأقــداح الشــاي الســاخن المتلاحقة التى تبعت القهوة . وسألنا العبد الذى يعد الشاي فى السماور إذا كنا نريد شــاي سيلان أو جاوا. وكسرت قطع من سكر القمع (أو سكر الرأس) ورموا بها فــى أكــواب الزجاج . ثم قدم لنا بعد ذلك التمر والأنناس المعلب . خيرنا باصرة بين السكن فى القلعــة أو فى منزل فى المدينة ، فاخترنا منزل المدينة، وذهبنا إلى هناك مصحوبين بموكب مــن الجنود وحفيد الحاكم ولفيف من ذريته .

يتكون المنزل من خمسة طوابق ويقف على حافة قرية "عورة" ، وكنا نشاهد مــن فــوق سطحه أشجار النخيل المحملة بالثمار . أما الأجنحة التى سكنا فيها فكانت غــير مأهولــة ونظيفة ، أمر باصرة بفرش سجاد فى الغرفة التى شاركنا فيها السيد علــوي .وصحبنــا موكب التابعين إلى أعلى وظلوا يراقبون وينظرون إلى الأشياء المدهشة التى كانت تخرج من حقائبنا . طرح علينا أحفاد الحاكم بهندامهم الحسن العديد من الأسئلة وحكوا لنا الكثير،

ويبدو عليهم الرضا وهم يتكدسون فى الغرفة المكتظة الساخنة . تخلصنا من ذلك الجمع بعد مشقة . وساعدنا الأولاد فى ذلك ، لكن بعد ذلك لم تبد لديهم الرغبة فى مبارحتنا . ثم تسللوا فى النهاية على وعد بأنهم سيعودون بعد بضع ساعات .

بعد مضي ساعة عاد ثلاثة من الصبية وسمحنا لهم بالدخول . قالوا بلهفة إن لديهم رسالة عاجلة لنا حسب قولهم . فقالوا إن والدهم يمتلك أجمل منزل فى كل وادى دوعن ، ولا بد أن نراه دون تأخير . وذكروا أنهم ولدوا فى أديس أبابا من أم إثيوبية . حيث كان يعمل والدهم هناك فى تجارة الجلود التى جمع منها ثروة بنى بها هذا المنزل. لم يبرحنا الصبية ألا بعد أن وعدناهم بالحضور فى الغد .

(٣) أيامنا فى وادى دوعن

يقال إن الليالى فى وادى دوعن باردة . إن ٣٤ درجة مئوية ليست بكل تأكيد مما يعد باردا، على أن الطقس جاف ويمكننا أن ننام فوق السطوح لكن الناموسية ضرورية . فالمراحيض والحمامات فى المنزل مكان مناسب لتوالد الحشرات . يتواجد الذباب أثناء النهار أكثر مما نحتمل .

فى صباح اليوم التالى ، السادس عشر من مايو ، أرسل لنا باصرة إفطارا عربيا أصيلا : كمية وافرة من التمر فى سلة ، علبة مليئة بالعسل بقرصها وهو العسل الشهير فى هذه البلاد وأحد بضائعها القليلة التى تصدر ، معه أنناس من إنتاج مصنع صيني لحفظ الفاكهة فى سنغافورة ، وكمية من الخبز الحضرمي فى سلة ، عبارة عن فطائر من الدقيق خبزت لتوها وما زالت ساخنة . هذا الخبز بلا ملح وثقيل نوعا ما ولكن مذاقه طيب ، أما عندما يبرد يصبح قويا مثل الجلد . وطعمه أفضل وهضمه أيسر من الخبز الذى يصنعه البدو ويخبزونه فى الرماد . هذا الأخير فى حجم راحة يد الرجل (أي سمكه حوالي بوصة) وهو غالبا محروق من الخارج وغير ناضج من الداخل ، ولونه إما أصفر أو أحمر حسب نوع الذرة أو الدخن الذى صنع منه . ثم ذهبنا سويا إلى المصنعة لنناقش الترتيبات لرحلتنا القادمة ، ونجمع خلال نقاشنا معلومات عن هذا الإقليم . أما رفاقنا السيبانيون فسوف يبقون هنا مع جمالهم وحميرهم ، لأننا نحتاج الآن إلى جمال معتادة على السفر عبر الوادى العريض المسطح .

قمنا بتصوير الحاكم المسن مع مجموعة كبيرة من عائلته فى الشرفة القريبة من المجلس. ثم بدأ حوار طويل ، وكانت أسئلتنا التى لا تنتهى تقابل بإجابات صبورة . أخبرنا باصرة أن وادى دوعن وفرعه وادى ليسر تحت سلطته . ويبلغ سكان القرى الخمسين ٢٠ ألف نسمة .

توجد فقط مدرستان ، أسس كليهما ويصرف عليهما السيد الرائع من تريم أبوبكر بن شيخ الكاف. إن قيام هذا الشخص القيادي من منطقة الكثيري بتأسيس ودعم معظم المدارس فى منطقة القعيطي ، أمر غير عادي . ويعود الفضل لكثير من المدارس فى المكلا والشحر إلى كرم الكاف . يوجد فى خريبة، وهي العاصمة القديمة لوادى دوعن ، مدرسة بها بين ٧٠ إلى ٨٠ تلميذا ، ومدرسة أخرى فى قيدون بها بين عشرين إلى خمسين تلميذا .

يوجد فى محافظة باصرة حوالي ٢٠٠ مسجدا ، بينها مساجد رائعة ، أقامها فى الغالب السادة الأثرياء، ومتصلة بمنازلهم . جمع أولئك الأثرياء أموالهم دائما من المهجر . كل مقاطعة فى حضرموت لها بلدان معينة يهاجر إليها سكانها فى مجموعات ويكونون ثرواتهم فيها . فيذهب أهل دوعن إلى الحبشة ومدن ساحل البحر الأحمر وساحل أفريقيا الشرقي . ولم يذهب منهم إلى جاوا سوى مائة ، بينما ذهب إليها من وادى ليسر حوالي ٥٠٠ رجلا .

ينضوى تحت سلطة باصرة ١٥٠٠ بدوي من بينهم كل قبيلة سيبان من إقليم القبلة (أي من الشمال) . وعثمان بن محمد العمودي حاكم "ريدة الدين " (Deyyin) و زعيم قبيلتها ، متحالف مع باصرة وموجود معه الآن . يقال إن قبيلة العمودي هذه متوحشة وبدائية ، لكن يعطى زعيمهم انطباعا متجانسا . وما كنا ندرى وقتها أننا سوف نعبر منطقته فى رحلة عودتنا ، وإلا كنا اغتنمنا الفرصة وقمنا ببعض الاجراءات مقدما . يدعى العمودي أنه يحكم ٢٥٠٠ بدويا، كما أكد أن الذين يخضعون له لن ينالهم أذى من أي إنسان إلا ما يأتى من الله .

يبدو أن بساتين النخيل المتصلة فى وادى دوعن تنتج فقط ما يكفى للاستهلاك المنزلي ولاستعمال البدو المجاورين . فلا يوجد تصدير للتمر . ترسل سنويا إلى الساحل ما بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ حمولة جمل من العسل . على أن تجارة الوارد منتعشة فى الأرز والسكر

والدقيق والجاز والبن والتمباك والأقمشة الخ . فالميزان التجاري ليس فى صـــالح وادى دوعن . لكن يمكن الموازنة بالأموال من المهجر التى يرسل أغلبها إلى هنا .
وقضينا الصباح فى التجول بين بساتين النخيل والقرى الصغيرة الواقعة بالقرب منها فـــى واجهة سفح الجبل الذى تشع منه الشمس . عندما عبرنا "القرين" إندفع نحونا أبناء الســـيد محمد بن عبد الله بن طه البار وهو "المنصب" (٣) وقادونا فى زهو إلى منزل والدهـم . يستحق المنزل بحق مشقة الزيارة . فرغم حداثته إلا أنه حافظ على النمط القديـــم. كـل النقوش الخشبية على الأبواب والنوافذ والزخرفة فوق الألواح الحديدية المطلية بـــالقصدير ورؤوس المسامير حضرمية أصيلة . والمنزل مبني من الطين فوق جلاميد من الصخر . والطوابق المأهولة مطلية بالجير الأبيض وكذلك السياج الصخري والســـطوح وأركانـــها المزخرفة . يوجد دائما بجانب منازل الأثرياء مسجد بمئذنة ، مطلـــي بـــاللون الأبيـــض الخلاب. وهناك ممرات تصل المنزل بالجانب الأرضي وكذلك بســـطح المســـجد . تقـــام صلاة المغرب والعشاء فى فصل الصيف فوق السطح ، هنا يجلس العالم فى الأمســـيات ويقوم بتحفيظ القرآن للصبية الذين يتحلقون حوله. والسيد الذى جمع ثروة فـــى المـــهجر يقوم أولا ببناء المسجد ثم بعد ذلك المنزل . أليس هو مدين لوضعه المتميز فـــى بـــلاده للإسلام ، ولعون الله للثروة التى نجح فى جمعها فى المهجر ؟ والنتيجة هي هذه المســـاجد الفارهة فى بلاد حضرموت الفقيرة .
الممرات والسلم فى منزل السيد البار مثل المنازل الأخرى ، مغطاة بطين بلـــون بنـــي خفيف ممزوج مع تبن بديع(٤). والأرضية دائما مزينة بخطوط متموجـــة حفـــرت فـــى الطين قبل أن يجف . وفى الغرف الكبيرة توجد أعمدة خشبية حيث لا توجد قوائـــم فـــى السقف ، وهي دائما مصنوعة من جذوع النخيل. والألياف الخارجية لجذع الشجرة مكسوة بالطين أو مغطاة بفروع النخيل . والألوان المفضلـــة هـــي الأحمـــر الغـــامق والأســـود والأبيض، وهي التى يطلى بها السقف .
يدخل الإنسان المجلس أو غرفة الاستقبال عادة عبر باب يقع وسط أقصـــر الجـــدران . وتوجد على جانبي الباب صناديق خشبية ، تحفظ فيها مراتب النوم والمخدات أثناء اليوم . هذه الصناديق الثقيلة مزخرفة بشكل بديع بحديد مطلي بالقصدير ، وهي فى الغالب الزينة

الوحيدة فى الغرفة . فتحات الشبابيك صغيرة منخفضـــة الارتفـاع. ومزالـج الخشـب والبراويز فى منازل الأغنياء منحوتة . والأرضية مغطاة بحصير بسيط مصنـــوع مـن أغـصان النخيل ، يفرش فوقها الأغنياء السجاد . وتوضع مساند على الجدران للاتكـــاء عليها . ووضعت فى منزل البار مرايا فى السقف وهو تقليد حديـــث وقبيـح . كمـا أن الألوان الحضرمية الأحمر الداكن والأسود والأبيض التى تنسجم مع الخشب البني اللـــون والطين بلونه البني الفاتح ، قد أضيفت إليها بعض الألوان الجديدة القبيحة

أخذنا المزيد من الصور للصبية والأطفال حتى ندخل البهجة على الأسرة . كان معنا فـى المجلس رقيق الخدمة وأطفالهم بألوانهم السوداء الفاحمة ، يقدمون القهوة والشاي والحلوى الوافرة ويتجاذبون معنا الحديث ، لكنهم يقفون فى الخلف فى تواضع شديد .

شاهدنا عدة أشكال من الزنوج فى الطرقات والمزارع ، مما يدل على وجود أعداد كبـيرة منهم فى وادى دوعن . و يعملون فى الزراعة والخدمة المنزلية .

بذلنا ما فى وسعنا لمعالجة عدد كبير من المرضى الذين توافدوا علينا بعد الظـــهر طلبـا للدواء أو لتنظيف جروحهم وقروحهم . لم نستطع أن نقدم إلا القليل ، وعلى أي حال مـا هي الفائدة من العلاج مرة واحدة . يوجد فى كل حضرموت وما حولها طبيـــب واحـد حصل على تدريب غربي . ويعود الفضل هنا أيضا إلى السيد أبو بكر الكـــاف الرجـل المستنير الذى استقدم هذا الطبيب الشاب الهندي ،لكن مركز عمله فى مدينة تريم البعيـدة (٥). ويذهب الأغنياء أحيانا إلى عدن لاستشارة الطبيب ، كما أن البعثة الطبية فى الشـيخ عثمان بالقرب من عدن معروفة للقلة .

ذهبت مع السيد علوي قرب المغيب إلى "قارة المحضار" (٦) على بعد نصف ســـاعة ، حيث يعيش السيد مصطفى بن أحمد المحضار ، الذى نحمل له رسالة من الوزيـــر فـى المكلا . استقبلنا استقبالا وديا للغاية . فقد شاهد السيد المسن بعض أنحاء العالم ، ويـرى الحياة فى حضرموت موات . كنت مدفوعا للحديث باستمرار ، ثم أصبح الجو وديا حتـى أخذنى إلى منزله الآخر الكبير وتجول بى فى كل أنحائه ، بعـــد أن تـأكد أولا أن كـل زوجاته الصغيرات قد أغلق عليهن الأبواب ووضع المفـــاتيح فـى حزامـه . وانتقمـت الزوجات بأن قمن بالتمعن فى الأجنبي من فوق السطوح . يبدو من مطبخ المنزل الواسـع

بجدرانه العالية أنه مزدحم بالسكان . تناولنا العشاء فى شرفة السطوح، بعد أن عاد السيد وحاشيته من صلاة العشاء فى المسجد المجاور للمنزل . واستدعى المحضار ابن أخيه الوزير وكنا نحمل له أيضا رسالة من والده فى المكلا ، وبعد أن قرأها دعانا أن نكون ضيوفه فى اليوم التالى . قبلنا الدعوة للافطار لأننا سنتحرك إلى نقطة توقفنا التالية في "صيف" .

بينما كنت أقوم بهذه الزيارات ، قام فون فيسمان برحلة قصيرة إلى الخريبة حيث تسلق العقبة المواجهة للمكان الذى نزلنا منه .

الخريبة مدينة صغيرة ، بها شارع تجاري واحد وأربعة شوارع أخرى كبيرة وعشرون مسجدا صغيرا . هي أكبر وربما أقدم مدينة فى وادى دوعن . ويرى بعض الجغرافيين أن اسم خريبة الذى يعنى أنقاضا ، هو الموقع الأصلي لمدينة دوعن التى ربما جاء اسم الوادى منها . ويتحدث "بلينى" عن "توأنى " التى اتخذ منها الأباضية الهراطقة مركزا لهم، ومن المؤكد أن المدينة قد دمرت عندما أبيدوا)٧) .

يقود طريق العقبة إلى وادى عمد . ويحرس هذا المدخل إلى وادى دوعن قلعتان محصنتان . يتولى حراستهما دائما جنود من يافع لأن الوادى فى هذه النقطة يقع فى حدود الأرض التى تقع خارج ممتلكات القعيطي .

بدأنا يوم السابع عشر من مايو مبكرا . فودعنا رفاقنا من بدو سيبان و(موتور) الذى كان يحمل معه حقيبة من الرسائل إلى المكلا . كان لا بد من إعداد الحقائب ووضعها على الجمال لتسير قبلنا إلى "صيف" . بعد ذلك ودعنا باصرة وأبناءه وأحفاده فى المصنعة ، ثم تحركنا بالحمير عبر مزارع النخيل البديعة إلى "هويبيه" على بعد ثلاثة أرباع الساعة ، حيث يملك فيها الوزير فى المكلا مزارعا يديرها الآن ابنه سالم.

سافرنا معظم الطريق فوق الحواجز الطينية التى تقع بجانب قنوات الري . وتخترق مزارع النخيل العديد من قنوات الري العميقة التى توزع ماء السيل على الأراضى المزروعة ، ورغم أن سدود هذه القنوات ضيقة إلا أنها عالية حتى تحمى المزارع من أن يجرفها اندفاع ماء السيل الشديد . وفى مجرى السيل الأساسي سدود هنا وهناك بين خزانات من أكوام من جلاميد الصخر .

يمتلك الوزير بالقرب من الوادى المخضر منزلا بديعا . بقربه مسجد لونه أصفر شاحب ، ومئذنة هي قطعة جميلة من الفن المعماري الحضرمي .

استقبلنا فور وصولنا السيد مصطفى رغم كبر سنه ، ومعه حضرمي آخر حقق ثراء ملحوظا فى جده . ودار الحديث حول الحرب العالمية والنتائج التى ترتبت عليها . يشعر المرء ، كما هي الحال دائما ، أنهم يتلمسون نقاط الضعف فى الغرب ، باحثين عن البذرة الدنيوية والروحية التى يمكن أن تدمر القوة التى تسيطر وتستعبد العالم والإسلام . اتضح جليا أن مستمعينا يعتمدون كثيرا على استعادة ألمانيا لمكانتها بقوة والانتقام لنفسها من الهزيمة فى حرب عالمية جديدة تضع حدا نهائيا للوضع المسيطر فى كل الغرب . كانوا يتلهفون لأخبار الحرب منطلقين مما يسمى التعاطف المجرد لألمانيا . إن المعارضة المباشرة لمثل هذا التنبؤ بالمستقبل أمر صعب ، وليس أقل صعوبة إبراز بعض الحجج المؤيدة للسلام للبشرية تتخطى الاختلافات الدينية ، ويتم عرضها بالطريقة التى لا تنسى بها سريعا .

بعد أن تناولنا إفطارا يتكون من الخبز الساخن والسمن مع العسل والبيض مع البصل والأنناس المعلب، استأنفنا الحوار مرة أخرى بحماسة متجددة . ولم يسمحوا لنا بالمغادرة ، فقد كان علينا أن نقبل أيضا دعوة لوجبة منتصف النهار . وقد لاحظ مضيفونا أننا مرهقون ، فاقترحوا أن نستلقى وننال قسطا من النوم . علينا أن نرتاح قليلا بعد وجبة منتصف الظهيرة ثم نغادر ونحن على صفاء، بالرغم من الخلافات العميقة التى برزت بشكل ساطع فى نظرتنا للحياة وتوقعاتنا للمستقبل .

هوامش

(١) هذه عقبة الحبل وهي مخصصة للحيوانات . وتقود إلى القرية التى بها مقر الحكم . واستغنى عنها بعد افتتاح عقبة الجحي.

(٢) يقصد المقدم عمر باصرة . وكان قد تلقى تعليمه فى الأزهر بمساعدة التاجر الحضرمي محمد سعيد العمودى المقيم فى مصر .وتولى اثنان من أبنائه مناصب هامة فى الدولة القعيطية . وابنه علي والد الدكتور صالح رئيس جامعة عدن .

(٣) اتخذت مكانة المنصب مهاما مختلفة فى مجرى تطورها التاريخي ، كما اختلفت المهام أيضا من منطقة إلى أخرى . واقتصرت مكانة المنصب فى حضرموت على السادة والمشايخ . والمنصب هو المرجع فى منطقته فى الأمور الهامة والمشاكل الاجتماعية والسياسية . وبعد تأسيس الدولة المركزية تقلصت مهام المنصب . ويمكن تلخيص أهم واجبات المنصب فى الآتى : إرشاد الجهال والعمل على نشر المبادئ الإسلامية ؛ إصلاح ذات البين وعقد الصلح بين القبائل المتصارعة ؛ إكرام الضيف .

(٤) المادة المستعملة فى البناء فى كل وادى حضرموت هي خليط من التبن وهو القشر الذى يبقى من الحبوب بعد حصادها مع الطين ، يخلطان معا ويستخرج منها مادة البناء ، وهي قوية جدا . ويصنع منها "مدر" وهو نوع من الطوب .

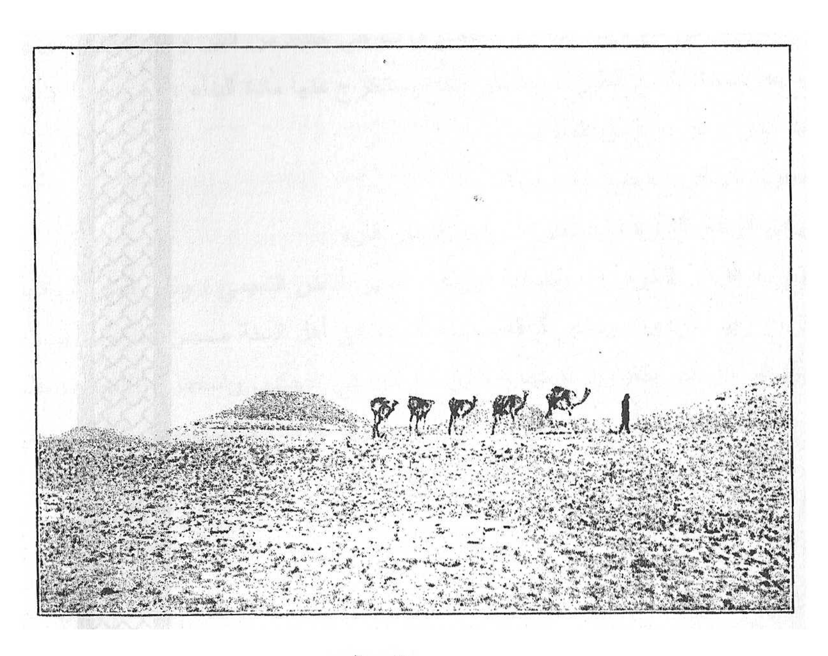
(٥) اسم الطبيب الهندي : محمد عمر حياة

(٦) تسمى فى الواقع "قويرة المحضار" ، وهو تصغير قارة

(٧) الأباضية فرقة من الخوارج ، وتنسب إلى عبد الله بن أباض التميمي ، ولكن المؤسس الفعلي لها هو جابر بن زيد الأزدي . وتعتبر فرقة معتدلة أقرب إلى أهل السنة من فرق الخوارج الأخرى.، بالرغم من أنهم يكفرون الصحابة الذين شاركوا فى التحكيم. واستطاعواالاستيلاء على حضرموت واليمن وكادوا أن يسقطوا الدولة الأموية ، ولكن انهزمت حركتهم وانتهت دولتهم فى حضرموت عام ١٣٢ هـ على يد آخر خلفاء بنى أمية .

الفصل الخامس

عبر وادي حضرموت الداخل



الجول

(١) استقبال جاف فى " صيف "

الطقس حار . تبلغ درجة الحرارة ٣٩،٥ درجة مئوية تحت أشجار النخيل فى الطريق الذى سرنا فيه لساعات . كان اتجاهنا نحو "صيف" متنقلين بين السد وقناة الري الجافة . بدأ النبات ينمو أخيرا شيئا فشيئا و ازداد كذلك عدد القرى على منحدرات أنقاض الصخر. أصبحنا نرى بمرور الوقت أشجار النبق بكثرة بدلا من أشجار النخيل . كانت أغصانها الشائكة تجمع فى حزم كبيرة وتوضع حول سيقان النخيل تحت عناقيد التمر لتمنع الوصول إلى الثمار . ويغطى الثمر بسلال من أغصان النخيل تربط حول العناقيد لحمايتها من الطيور والحيوانات الأخرى . قابلتنا فى طريقنا الحمير المحملة بتلك السلال، وقابلنا كذلك رجال وصبية يجرون أغصان النبق . تجد أشجار النخيل عناية فائقة. فتنظف سيقان الأشجار حتى تبقى عناقيد التمر تتدلى مباشرة تحت الأغصان . وموسم جني التمر مناسبة سعيدة فى الوادى . يتوافد المحظوظون الذين يمتلكون أشجار نخيل من الجول وجنبات الوادى . ويعود الذين فى المهجر إلى الوطن الأم وقت الحصاد ، ويؤجلون عودتهم إلى المهجر حتى ينتهى موسم الحصاد . وموسم الحصاد فترة تبجيل وتقليد أكثر من أهميته الاقتصادية . ولا يعتبر التمر بضاعة للتجارة ، لكنه مهم كمصدر للغذاء لجمهرة الناس. ويعتبر العبيد والبدو أن تمر دوعن هو التمر الحقيقي . ويعتبرون التمر المستورد من البصرة فى درجة أقل . أما السادة الأشراف الذين أثروا فى المهجر فلا يعطون التمر قيمة كبيرة كغذاء يومي . إنهم يحافظون على بساتين النخيل ليجدوا فيها مقصورة فى الصيف وحماما للسباحة ، ويستمتعوا بالظل وشقشقة العصافير ، وأنين أصوات السواقى التى ترفع الماء من الآبار إلى السطح . ويقوم عمال وموظفو المنزل والعبيد وزوجاتهم وأطفالهم بالعمل فى بساتين النخيل التى يحصلون منها على معيشتهم الأساسية . إن بساتين النخيل التى يمتلكها الأغنياء فى هذه البلاد ما عادت مصدر دخل تحت الظروف الحالية .

أما الحقول التى تعتمد على السيل فإنها تمتد إلى ما بعد بساتين النخيل . وتحرث جيدا وتظل تنتظر هطول الأمطار . وأحيانا يأتى سيل واحد فى العام ، يكون وفيرا بحيث تكفى

مياهه لموسم حصاد تمر ناجح . وفى المساحات الخالية بين النخيل تـــزرع الــذرة فـــى الصيف والقمح فى الشتاء . وتأتى معظم السيول فى الخريف .

وجدنا من حسن طالعنا العديد من السقايات فى الطريق إلى "صيف" . صحيح ليس المـــاء دائما صافيا وخاليا من الروائح ، لكننا عانينا كثيرا من الظمأ فلم نلتفت إلى هذا الأمر .

قبل أن نصل إلى "صيف" بمسافة طويلة ، أصبح بطن الوادى الشاسع مقفرا ، وأخذ ممرنا الضيق يتعرج فوق الحجارة الجرداء .

شاهدنا "صيف" قرب المغيب ترقد فوق منحدر حطام الصخر العريـض حيـث يصبـح الوادى شاسعا جدا وتكسر الشاطئ الصخري وتراجع . ضرب الفقر المدينـــة الصغـيرة المحاطة بالسور ، ذات المنازل القصيرة ؛ ويبدو أن حالة عدد قليل من سكانها قد سمحت لهم بطلاء الطوابق المأهولة بالجير الأبيض وببناء درابزين فوق شرفات السطح. اقتربنـا من المكان الصغير الخامل ونحن نتعثر فوق الصخور. لقد أفسدتنا معاملة الأيام الماضيـة حيث كان رجال السلطة والأعيان يستقبلوننا باعتبارنا ضيوفا لهم مكانة مرموقة . على أي حال ما زلنا هنا تحت حماية النظام القعيطي ، و زودنا الشيخ الجليل باصرة برسالة إلـــى حاكم "صيف" . وقد حذرتنا عائلة المحضار من حاكم "صيف". فهو رجل فقير ،وضليـــع في علوم الدين التقليدية ، لكنه جاهل وليست له كفـــاءة فـــى مســـائل الإدارة الدنيويـــة . والسكان متعصبون وفقراء . لكننا كنا نأمل فقط أن يمنحنا الحاكم شرفة الســطح لقضـــاء الليل ، وليس أكثر من ذلك ، لأننا نرغب أن نبدأ رحلتنا صباحا فى اليوم التالي .

بدت "صيف" جافية ، خالية من النبات والألوان ، والسكان يحدقون بطريقة عدائيـــة إلـــى مجموعتنا الصغيرة وهي تخترق الشوارع الضيقة المتسخة . ثم قادنا الحراس إلى اسطبل ضيق ، اجتزنا الساحة الداخلية التى تقف فيها الأبقار ، ثم تسلقنا إلى السطح عبر ســـلالم ضيقة . وأحاطت بنا منازل طويلة كئيبة منعت عنا النسيم المنعش، وحجبت عنـــا أيضـــا النوافذ الصغيرة التى كانوا يتجسسون منها علينا. وتوافد إلى الاسطبل وإلى سطحنا كـــل من "توم" و"ديك" و"هارى" ، حتى أصبحنا بعد قليل وسط جمهور محتشد . كل الجنود مـن قبيلة يافع ، و استقبلونا بحفاوة نيابة عن الحاكم الغائب ،ورجونا أن نتقبل القليـــل الـــذى يمكن أن يقدموه لنا . بل أحضروا خروفا وجديا ، وخيرونا أن نختار واحدا منهما للعشـاء

. كان الجنود سعداء بهذا التغيير الذى طرأ على حياتهم الرتيبة . بل أظهروا غاية المودة مما جعلنا نقبل الأمر الذى لا مفر منه ونعد إقامتنا لليل فوق سطح الاسطبل . ولم نر أحدا من سكان المدينة ، يبدو أنهم لا يريدون التعامل مع النصارى . أما البدو في الشارع والصبية فقد أبدو اهتماما كبيرا . وبمساعدة الجنود وبلغة ركيكة، استطعنا أن ننظف مكاننا فى السطح ونضع فيه أسرتنا . واستدعوا مجموعة من السكان الذين يتحدثون لغة الملايو . وقد تخلصوا من تعصب أهالى "صيف" من إقامتهم فى جاوا وهم يعرفون ويقدرون حكومة هولندا . وهمسوا لنا بأن مكان إقامتنا غير مناسب ، فالحاكم فقير وليست له سلطة. وقد تغيب متعمدا ليتجنب مشقة استضافتنا .

قمنا بكتابة مذكراتنا وببعض الأعمال الضرورية الأخرى ونحن وسط كل أنواع الصخب والضجيج . وجلس الجنود من "صيف" مع أتباعنا إلى ما بعد منتصف الليل ، وهم يستمتعون بأكل الشواء والأرز، ويتبادلون بأصواتهم النكراء كل أنواع الحكاوى والأخبار.

وصلت محاولات "فريده" لاختراق حضرموت إلى مأساة عندما حل على "صيف" الكئيبة هذه . فكان سيء الحظ إذ وصل قبل يوم واحد من زيارة قبر الشيخ أحمد بن عيسى العمودي (١) حيث اجتمع آلاف البدو ، وكانوا يعتبرونه إفرنجيا وجاسوسا للإنجليز في عدن ، ونجا بأعجوبة من الموت . وعومل بقسوة ، وانتزعت نقوده وممتلكاته ، وأرغم على مغادرة "صيف" والعودة إلى الساحل .

ومر "هيرش" على "صيف" دون مشقة . أما :بنيت" وزوجته فقد هددوا أهلها بنفوذ ملكة بريطانيا . ووصفوا أهالى "صيف" بأنهم "مجموعة مريضة إلى حد بعيد ونظرتهم موبوءة"

كانت فترة راحتنا فى"صيف" قصيرة الأجل . فعند الرابعة جاء الحاكم ، وهو أيضا المؤذن ، ليوقظ السيد علوي للصلاة . وبدأنا نستفسر فورا عن الحيوانات التى سنركبها وعن الترحيل . وكانت الإجابات عبارة عن وعود براقة ، لأنه بعد فترة طويلة من شروق الشمس لم تظهر أي حيوانات . وأصبح البقاء فوق السطح غير محتمل فليس فيه ظل يحمى من حرارة الشمس . وظللنا ننتظر لساعات عند حقائبنا . واعترانا اليأس . ماذا سنفعل هنا إذا لم نحصل فورا على الحيوانات والسروج ؟ لا يمكننا البقاء فى هذه المدينة، وصبيانها فى الشوارع بلا خلاق، وجنودها الكسالى يتحلقون حولنا . وعندما ظهر الحاكم

مرة أخرى واجه عاصفة من التوبيخ . وأرسلنا الجنود أنفسهم لترتيب الأمور . وأخـــيرا نفضنا عن أرجلنا غبار "صيف" ونحن نتنفس الصعداء .

رافقنا جنديان إضافيان ، بعد أن رفضنا بعناد اصطحاب أكثر منهما . وتدفع لهما الحكومة القعيطية مرتباتهما، وهما من يافع . كانت "صيف" بالنسبة لهما غير صحيـــة ، إذ يبـــدو عليهما الفقر والشحوب. ومرتبهما لا يكفى لإعاشتهما جيدا . وطلب كلاهما أن يدخل فـــى خدمتنا ويسافر معنا إلى الخارج . وعمل أحدهما فى الفيلق العربي مع نظام حيدر أبـــاد ، ويتحدث الهندستانية .

(٢) رحلة شاقة من صيف إلى الهجرين

يصبح بطن الوادى بالقرب من "صيف" عريضا ، والجبال على جانبيه ليست منـــــحدرة مثل انحدار الجبال فى وادى دوعن ، لهذا بدأت منحدرات الصخور أكثر علوا وعرضا . هناك بعض الأرض المزروعة ، لكن النخيل اختفى . وأخذ طريقنا يتعرج فوق مـــزارع تنتشر فوقها جلاميد صخر مستديرة تمتد حتى الطرف الآخر من الوادى . وعندما وصلنـا ذلك الجزء منه أصبح السير أكثر سهولة حيث التربة أغلبها مزيج مـــن طيـــن ورمـــل . والممر مغطى بطبقة سميكة من الغبار الناعم مثل الدقيق ،ارتاحت فوقه أقدامنا المجـــهدة ، لكن ذرات الغبار المتصاعدة زادت من حدة الظمأ. وأخذنا نصعد جبلا ونـــهبط واديـــا ، وأنظارنا مركزة باحثة عن قبة السقايات ، وهى من حسن الحظ ليست معدومـــة هنـــا . والنباتات قليلة ، فقط بعض أشجار النبق المنتشرة فـــوق الـــوادى . وتبحـــث الراعيـــات بقطعانهن الصغيرة عن ظل تحت أغصانها يحميهن من حرارة الشمس. ويضربن أحيانـــا الأغصان بعيدان طويلة فتتساقط الأوراق وتقضمها الأغنام بنهم .

بعد مسيرة ساعتين قابلنا اثنان من السادة فى هندام حسن ، وهما مرسلان إلى السيد علوي العطاس رفيق رحلتنا . وأخبراه أن أقرباءه فى وادى حضرموت قد سمعوا بقدومنا، لكنهم توقعوا أن نكون قطعنا شوطا أبعد فى رحلتنا ، كما أرسل لنا الســـيد أبوبكر بـــن شـــيخ الكاف فى تريم سيارتين فى طريقهما إلى حريضة وهي مدينة أسرة العطاس حيث توقعوا أن تكون هدفنا الأول . فواصلنا مسيرنا الآن بهمة جديدة . وعبرنا مرة أخرى إلى الجانب الأيسر من الوادى ، وهو الجانب الذى تقع فيه "صيف" . وأصر الجنود اليافعيون على أن

هذا الجانب غير آمن ، وترجونا أن ننتظر وصول الجمال قبل أن نواصل . الطقس حار جدا تبلغ درجة الحرارة ٣٩ درجة فى الظل، ولم تظهر بعد الجبال التى تقوم على سفحها الهجرين . واصلنا مسيرنا المجهد فى صمت فوق الراسب الطفالي ، وهو أعلى من ذلك الذى عبرناه من قبل ، ذلك لأن مياه الأمطار قد جرفت العديد من القنوات إليه . ظهر أخيرا جبل الهجرين بحافته الحادة المتميزة وقمته المسطحة ، حيث ترقد عند سفحه بساتين النخيل وسط الغيم الملتمع . اندفعنا الآن بعزم جديد ، بالرغم من الحرارة وحيواناتنا المجهدة . وعندما وصلنا إلى حافة الأرض المزروعة ، اعتقدنا أننا وصلنا إلى نهاية رحلتنا ، لكن مازالت هناك مسافة علينا قطعها، كان السير فى قناة السري الجافة مرهقا إلى حد بعيد .

عندما وصلنا أول المنازل طلبنا شرابا باردا . فقدموا لنا قدحا من الفخار ، فشرب كل منا بكلتا يديه، ثم أخذ كل واحد يناوله للذى يليه ، واستمتعنا بمائه فى جرعات كبيرة شرهة. واستمر الطريق يسير لمسافة طويلة فوق السد ، ثم عبرنا مرة أخرى قناة السري الجافة . ولم تستطع الحمير مواصلة السير أكثر من ذلك ، فترجلنا منها . واقتاد أحد الجنود اليافعيين حمارى من لجامه إلى المؤخرة ، وعندما وصل إلى هناك حاول أن يمتطيه خلسة. لكننا لمحناه ، فصحت فيه لينزل منه ،لأنى نزلت منه لتوى رأفة به. فصاح إليه رفيقه اليافعي الذى كان يسير أمامى بأ لا يطيع أمرى . فصحت فيه غاضبا ليصمت، وقلت له لقد دفعت أجر الحمير وأنا المسئول عنها . وعندما رد علي بصفاقة قائلا " أمسك لسانك " ، ضربته بصندوق على أذنه . فالتفت نحوى غاضبا وهو يمسك بندقيته وقال " هل أسكت على ضربك لى ؟" فقلت له " سوف تطيع أمرى فأنت تحت قيادتى " . فتراجع عبد الله إلى المؤخرة وهو مقطب الجبين ، بينما ركزنا أنظارنا جميعا على بندقيته . ولم يمض وقت طويل حتى جاء رفيقه يطلب الصفح عنه. وقال " لا تغضب منه فهو متوتر قليلا " . ومن يستطيع أن يظل غاضبا لفترة طويلة من هؤلاء الأغرار الشرسين البدائيين ؟ . وعندما اقترب المساء وانتهت الحرارة ، ولم يعد الظمأ والارهاق يعذبنا ، أعطينا الجنديين اليافعيين مكافأتهما التى انتظراها بشغف ، وافترقا من النصارى كأحسن ما يكون الأصدقاء.

عبرنا بالقرب من الهجرين على مسجد عند قبة أحد الأولياء ، واحتمينا بالظل البارد في هذا المكان، وهو محرم على الكفار . لكن سمح لنا أن نقف تحت ظله حتى نسترد أنفاسنا. كان بداخل المبنى زير ماء ، ولكن لم يسمح لنا بالدخول ، فذهب الجنود الذين صاحبونا من المكلا إلى الداخل وأحضروا لنا الماء . واحتمت بعض النسوة الفلاحات بذلك الظل . ولم يحجبن وجوههن بعباءاتهن الواسعة الخشنة الداكنة الزرقة . على أنهن ما إن شاهدن غرباء حتى سارعن بتغطية وجوههن . وكن يضعن فوق رؤوسهن قبعات عريضة من السعف للوقاية من الشمس .

(٣) استقبال لا ينسى في الهجرين

يبدأ الطريق من هنا يصعد نحو سفح الجبل حيث تقع الهجرين . ويقود إلى بوابة هذه المدينة ممر معبد ، وكانت تتحكم في الماضي بحكم موقعها في الطريق الرئيسي من الساحل إلى حضرموت . الشوارع داخل المدينة أيضا شديدة الانحدار وتعطي المدينة انطباعا بالاضمحلال . وبها قليل من المنازل العالية أو الجميلة ، واللون الأبيض الذي هو علامة الرخاء يكاد لا يوجد حتى في منزل واحد. يطغى على المدينة اللون الرمادي والبني مثل الجبال التي تقف أمامها .

توقفنا أمام منزل بطابقين يقع في شارع جانبي . يقال إن السيد محمد بن سالم بن عبد الرحمن الكاف، الذي نحمل له رسالة تعريف من مضيفنا في دوعن ، يسكن هنا . وأخذوا منا الخطاب ، واغلق الباب مرة أخرى ، وانتظرنا في الشارع . وعندما طال انتظارنا قلنا لأنفسنا بقلق لعل الإفرنج غير مرغوبين في هذا المنزل . ولم يكن الأمر كذلك ، فقد كان هناك حفل زواج بالمنزل في ذلك الوقت، والمنزل مزدحم بالنساء فكان لا بد من ازاحتهن خلف الأبواب قبل أن يسمح لنا بالدخول . وبعد الانتهاء من هذه المرحلة ، أخذونا إلى شقة تدل معالمها على أنها كانت مكتظة فقد كانت دافئة ومتسخة . ورغم أننا زحمنا المكان إلا أن بعض الفضوليين أقحموا أنفسهم علينا . ويبدو أن صاحب المنزل وابنه الذي يسيل المخاط من أنفه قد ادخروا الماء لكل الأغراض إلا للاستحمام . ولكن نظرته الودودة واستقباله الحار سرعان ما جعل كل شيء طبيعيا .

لعله من المناسب أن نتقدم بالعرفان لحفاوة العرب . فمن من الغربيين كان سيخفى امتعاضه إذا توقف حفل زواجه بمجيء قافلة من الناس المرهقين الجوعى ؟ ومن منا كان سيفتح كل داره فورا للمسافرين "أبناء الطريق"، ويقوم بنفسه بإحضار الماء لإطفاء ظمئهم، ويعد لهم فى الحال الطعام الذى يقيم أودهم ؟

الحياة هنا ديمقراطية . ففى غرفة الاستقبال المحشوة بالناس ، يجلس العبيد والخدم والأطفال وصاحب الدار معا ويشربون من نفس الإناء ، ويعبون لأنفسهم القهوة فى نفس فناجين الآخرين دون غسلها . وكرس مضيفنا نفسه لخدمتنا . كان يتغيب دائما ليتأكد بنفسه أن التحضير للوجبة يتم دون إبطاء . وكانت تصلنا من الغرفة المجاورة أصوات النساء اللائى كن فى حالة مرح . وبالرغم من الحر القائظ ،فإن الأغانى المتكررة والتصفيق والرقص المتناغم على إيقاع الموسيقى الرتيبة كان يصلنا مصحوبا بحماسة شديدة. ودعانا مضيفنا بإصرار شديد أن نقضى الليل معه . لكن علوي العطاس كان تواقا إلى رؤية اسرته فى موطنه ، ولذلك قررنا أن نواصل السفر إلى "المشهد" بعد الظهر. قام مضيفنا الحاذق فى هذا الأثناء فى هدوء بإعداد غرفة لنا فى ركن قصي من المنزل الشاسع . كان يرى إرهاقنا، فهمس لنا أن نتبعه حتى نهرب من فضول الزوار الذين لا ينقطعون . فأهل المدينة هؤلاء الذين لا يمكن أن نحمى أنفسنا منهم ، لن يجرؤا على الدخول إلى هذه الغرفة الهادئة . واستلقينا فوق السجاد على الأرض ، وسوف يهتم مضيفنا بألا يزعجنا أحد لمدة ساعة . ثم أحضروا لنا الطعام فى هدوء، ولم نستيقظ إلا عندما كان الأرز الأصفر ينتظرنا فى الصحون المفطحة حول مائدة الطعام المستديرة على الأرض ، وبجانبه اللحم والطبيخ . وأمام كل واحد منا قطعة مستديرة من الخبز . واعتذر مضيفنا من قلة الأكل المقدم لنا ، وانهمرنا على الأكل ونحن نردد "بسم الله الرحمن الرحيم" . إن عادة طبخ الأرز واللحم مع كمية كبيرة من البهارات لا بد أنها جاءت من جاوا والهند . فهم يكثرون من البهارات التى لا يألفها الضيوف الأجانب ، فبعد أن هدأت صيحات الجوع الأولى ، وجدنا مشقة فى مواصلة الأكل .

اللغة المفضلة عند مضيفنا هي الملاوية ، ويهوى الحديث عن "شيربون" التى تقع فى شمال ساحل جاوا ، حيث حققت أسرته نجاحا ملحوظا ويتمنى أن يعود بعد بضعة أشهر

عندما ينتهى حصاد التمر . ويمتلك والده عشرين منزلا هناك . وهو يعرف مائة وخمسين رجلا سافروا من الهجرين ليبحثوا عن حظهم فى جاوا . يبلغ سكان المدينة الصغيرة الآن ٣٠٠٠ نسمة . واطلعت قبل مغادرتنا على الجواز الهولندي لمضيفنا وأقربائه وكتبت عناوينهم ووعدت بأن أقابلهم فيما بعد فى "شيربون" ، فهم يستحقون ولو اهتماما بسيطا من جانبنا ، فقد كنا مشدوهين بالحفاوة البسيطة الصادقة التى لقيناها فى هذا المنزل ، خصوصا بعد تجربتنا المريرة فى "صيف" .

عند رحيلنا سعى كل من يتحدث الملاوية من أهل الهجرين أن يتبادل بضع كلمات مع ممثل الحكومة الأبيض لموطنهم الثاني . وعند وداعنا لم تحط بنا وجوه تعلوها الكراهية والاحتقار ، ولا التعابير المسيئة للنصارى الذين يجب ألاّ يسمح لهم بتلويث الأرض ، بل كان خروجنا عبارة عن موكب انتصار صغير ، وتزاحم حولنا الصبية وهم يمتلئون حماسة ، وكل واحد منهم يحاول إبراز معرفته بلغة الملايو .

(٤) عبر الأرض المحايدة بين منطقتي القعيطي والكثيري

تفضل مرافقو العطاس بمصاحبتنا إلى " المشهد" ، أول مكان فى ممتلكات الكثيري ،لكنها كانت فى الواقع تحت إشراف عائلة العطاس . وانقسمت قافلتنا ، فذهب فون فيسمان مع اثنين من العلويين الشباب والجنود اليافعيين وأحد جنودنا العبيد ورهط من البدو الذين كانوا فى الطريق ،ليتسلقوا جبل الهجرين ويتأكدوا بأنفسهم إذا كانت الأنقاض التى خبرونا عنها موجودة بالفعل ، ولأخذ صور فوتغرافية والقيام بمسح المنطقة . تنتهى أرض القعيطي بعد الهجرين مباشرة . وفى الشمال فى وسط حضرموت الداخل، ترقد مثل الجزر مقاطعات "حورة" و"القطن-- شبام" وهي خاضعة للنظام القعيطي . والمنطقة المحايدة التى ندخلها الآن ، مرتع خصب لقطاع الطرق واللصوص .

بعد أن هبطنا المنحدر الذى تقع فيه المدينة، دخلنا منطقة تربتها من الطفال الرملي ومحروثة بعناية. وتنهض جبال الطفال الرملي البنيّة ، عارية تماما وسط بساتين النخيل الخضراء ومزارع الذرة . يوجد نظام شاسع من قنوات الري بمجاريها الجانبية ، تقوم بتوزيع ماء السيل على الأرض المزروعة التى تقع بين سفوح التلال. وكلما سرنا مبتعدين عن الهجرين ، كلما أخذ يزداد عدد حصون الدفاع وأبراج المراقبة فوق التلال

بجانب البساتين . وأخذت أشجار النخيل تقل ، كانت المزارع فى البداية خضراء، لكن فى النهاية فإن سياج الطفال الرملي فقط هو الذى يشير إلى أنه إذا توفر الماء والأمن ، فيمكن أن يزرع الإنسان هنا مثل الأماكن الأخرى . وتفصل المنطقة المحايدة بين ممتلكات القعيطي والكثيري مسيرة نصف ساعة . وجب من الآن فصاعد أن تظل القافلة مع بعضها البعض، نظرا لخطورة قطاع الطرق . مازال بطن الوادى شاسعا ، لكنه أصبح موحشا وخال من النبات. والراسب الطفالي تغطى هنا وهناك بالرمل والحجارة . لا بد أن مدينة كبيرة كانت قائمة هنا فى الأزمان الغابرة، لأن الطريق إلى المشهد يمر عبر خرائب استحكامات . وبدأت الشمس تجنح نحو الغروب وعلينا أن نصل المشهد قبل حلول الظلام. وأعدنا الحمير للبحث عن الفرقة المجهدة التى تسلقت جبل الهجرين .

(٥) المشهد ، محط خرائب

المشهد مدينة صغيرة منقرضة تقع وسط صحراء الوادى الجرداء . ومعنى اسم "المشهد" هو "المكان الذى مات فيه شهيد"(٢) . وهي سوق موسمية هامة ومكان للحج . فخلال أيام محددة فى شهر محرم حددت لهذا الغرض ، يمتلىء المكان بالبائعين والمشترين الذين يسكنون فى المنازل والأكواخ المؤقتة ، وأغلب المنازل الآن خالية (٣) .

لم يكن حاكم المشهد موجودا بالمدينة ، فهو يفضل السكن فى حريضة الكبيرة المزدهرة، حيث يمتلك هناك منزلا وأسرة وبساتين نخيل . وله أبناء شبان رائعين ، يقومون بتمثيل والدهم فى واجبات الضيافة خير تمثيل. تمتلك عائلة العطاس منزلا للضيافة جيد الإعداد لأفراد الأسرّة الذين يمرون على المشهد . و تم حديثا طلاء الطابق الأعلى بالجير الأبيض، والسلالم والممرات والحمامات والمراحيض وكل شيىء فى غاية النظافة . كان شيئا كماليا بالنسبة لنا أن نستحم ونضع أسرّتنا السفرية فوق السطح النظيف بطلائه الأبيض بعيدا عن الروائح النتنة التى تنتشر فى كل مدينة عربية . وياله من فرق بين سطح الاسطبل فى "صيف" ؟

بدأنا يوم الثلاثاء ١٩ مايو ، فحصا دقيقا للنقوش فى المشهد ولخرائب "ريبون" ، وهي قريبة فى الجنوب والجنوب الغربي (٤) . وأخذونا إلى صخور بها نقوش سبئية ، منحوتة فى المنازل وقبور الأولياء والمساجد والسقايات وفى داخل بئر القرية الكبيرة العميقة . لم

تكن المادة مشجعة ؛ فالحجر الجيري الذى نقشت فيه مأخوذ من الجبال المجاورة وكـــان هشّا فلم تبق إلا شظايا من أغلب النقوش . لا شك أن بحثا دقيقا أعمق مما نستطيع القيــام به، سوف يسلط عليها ضوءا أكثر سطوعا . وعلى مسيرة عشر دقائق خارج المشهد إلى الجنوب الغربي تقع مجموعة أنقاض ريبون . وينسبها السكان إلى قوم عـــاد الخرافييــن ولعلها فى موقع مدينة حميرية . ويشاهد الإنسان روابى يصل ارتفاع بعضها إلى ثلاثيــن قدما ، وعلى قممها بقايا جدران بنيت من كتل حجرية منحوتة ، تلتحم مع بعضها بنـــوع من الأسمنت . وفوق قمة التل الأول شاهدنا بقايا لأربع قوائم عليها نقوش مربعة ، لعلـــها الأساس لأعمدة. وفى اتجاة المنحدرات وجدنا الكثير من شظايا الحجارة نقشـــت عليـــها شخصيات . وفى التل التالى بئر قديمة ، قطرها ثلاثون قدما وعمقها يصل إلـــى ســتين قدما. ويتكون الجزء الأعلى من حائطها من طبقات من صخر مـــتراكم بينمــا الجــزء الأسفل من الطين . تغطى الأوساخ الآن جزءا كبيرا من البئر ولعلها كانت أعمق مما هي عليه الآن . المياه الجوفية هنا حوالي ١٨٠ قدما تحت السطح . وتتناثر شظايا كثيرة مـــن فخار بسيط وسط خرائب الصخور المحطمة وكذلك قطع من زجاج أسود خشن .

توجد مجموعة أخرى من الأنقاض على مسيرة ربع ساعة يسمونها (مقـــابر الملــوك) ، عندما بدأنا السير فى الحرارة الخانقة بين الرمال وتلال الطفال الرملي فى الطريق إلـــى مقابر الملوك ، التى تقع فى مربع كبير جنوب جنــوب غـــرب المشـــهد ، تخلــف كــل الفضوليين الذين كانوا يتابعوننا . وجدنا نقوشا قليلة هنا . والتلال منفصلة عـــن بعضـــها البعض ، وعلى قممها أساسات لجدران صلبة يتكون منها سياج مربع مســـاحته ثلاثـــون قدما. لم تكن الحجارة كبيرة جدا لكنها منحوتة نحتا جيدا . والأنقاض هنا مغطاة لحد كبير بأكوام من الطفال الرملي ، ومن المحتمل جدا أن يكون بقايا الأجــزاء العليــا للمبـــانى . وتتناثر بين الصخور كثير من شظايا فخارية بنيّة _ حمراء .

يفترض "بينت" وزوجته أن ارتفاع الأرض إلى أكثر من ثلاثيـــن قدمـــا ســـببه الرمـــال المنجرفة لذلك اندفنت المبانى القديمة لحد كبير ، لكن يبدو أنه افتراض غـــير صحيـــح . يبدو الافتراض المضاد أكثر قبولا ، إذ يرى أن مجرى السيل انجرف عميقا عندما أهملت

صيانة السدود وقنوات الري . وترقد الآن كل الخرائب فوق قمم التلال ، فقد انجرف كل الراسب الطفالي من حولها .

السيد حسن العطاس الأخ الأكبر للسيد علوي رفيق دربنا موجود الآن فى حضرموت ، وهو رب الأسرة الفعال فى حريضة ، وجاء إلى المشهد للقائنا . لقد أرسل والدهم تعليمات ببرقية من بتافيا ، ليستقبلوا بحفاوة المبعوث الأول لهولندا في حضرموت . وما أن استلم السيد حسن التعليمات ، حتى امتطى هجينا وانطلق لملاقاتنا . ولم يجرؤ أن يلبس فى بلاده غطاء الرأس الواقى من الشمس (البرنيطة) الذى يستعمله الإفرنج . لكن بورزت فيما بعد كل تقدميته وحيويته وجرأته . أصبح السيد حسن من الآن فصاعد مضيفنا ، وقضينا وقتا جميلا تحت رعايته . ولو كان له الوقت الكافى ليرافقنا فى رحلة العودة ، لتجنبنا الكثير من المنغصات .

عندما عدنا إلى المشهد استنجد بنا العديد من النساء والرجال المرضى . وكانت هناك دهشة عندما رفضنا أن نعطى دواء لشريفة (ابنة أحد السادة) لأنه لم يسمح لنا برؤية المريضة .

هوامش

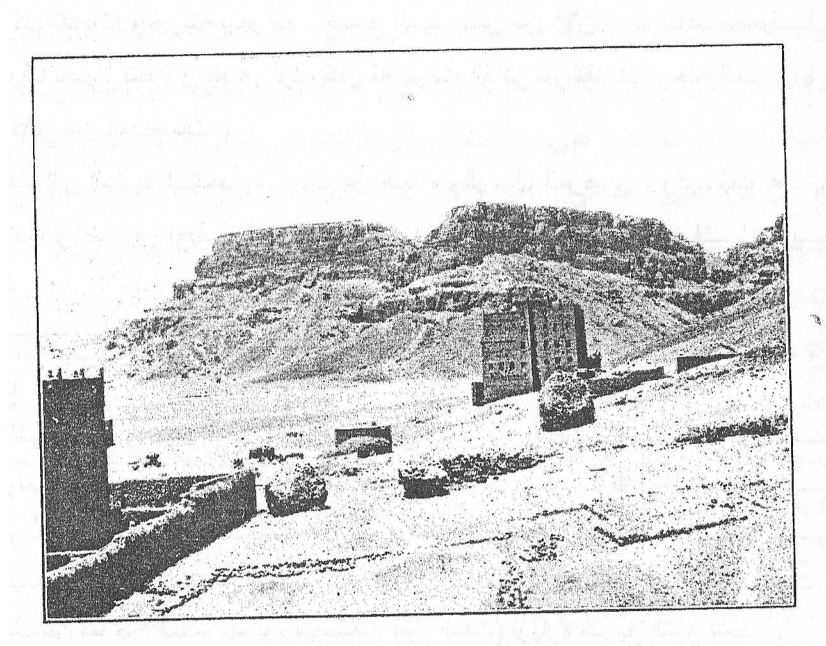
(١) هو الشيخ سعيد بن عيسى وليس أحمد بن عيسى . وهو من الأولياء الصالحين فى مدينة قيدون . ويعتقد أهل حضرموت أن له كرامات ، وخاصة أهل دوعن . وتتركز كراماته أساسا بالنسبة للمسافرين فى البحر، حيث يمكنه إنقاذهم . وتقام للشيخ سعيد زيارة سنوية فى آخر يومي خميس وجمعة من شهر رجب . والزيارة بمثابة سوق ، كما تقام فيها الصلوات والابتهالات . وحتى المصابين بمرض الجذام لهم يوم مخصص (يوم السبت) لزيارة ضريح الشيخ سعيد.

(٢) تحتاج العلاقة بين المشهد وشهيد إلى المزيد من البحث والتقصى

(٣) جاء ذكر زيارة المشهد فى كتاب "المقصد فى شواهد المشهد " الذى ألفه مؤسس المشهد علي بن حسن العطاس (م. ١١٧٢ هـ) . تحدث فى البداية عن تأسيس حوطة المشهد . والحوطة تعنى الموقع الذى يختطه الولي ليصبح حرما آمنا لا يجوز فيه الاقتتال والأخذ بالثأر . وتقوم حوطة المشهد على الهجرة أو ما يشبه إعادة تمثيل للسيرة النبوية . غادر علي العطاس حريضة

مضطرا وهو يافع بعد أن تعرض للأذى من بعض أقاربه . وذهب إلى الهجرين ، ومنها اختط المشهد عام ١١٦٠ لتأمين الطرق و ربط دوعن مع بقية حضرموت .

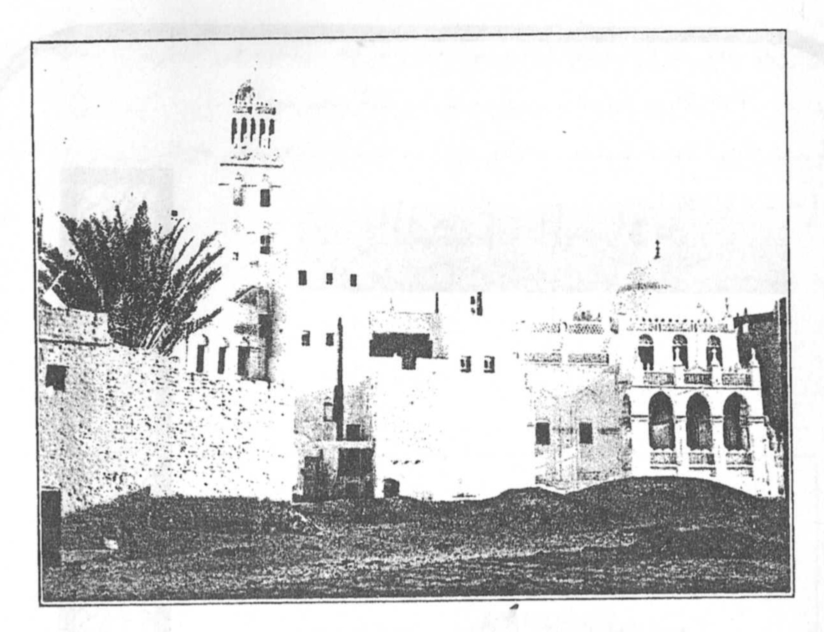
(٤) أرسلت الهيئة العامة للمتاحف والآثار عددا مذ البعثات للتنقيب فى خرائب ريبون ، ونشرت نتائج أبحاثها فى كتيبات .



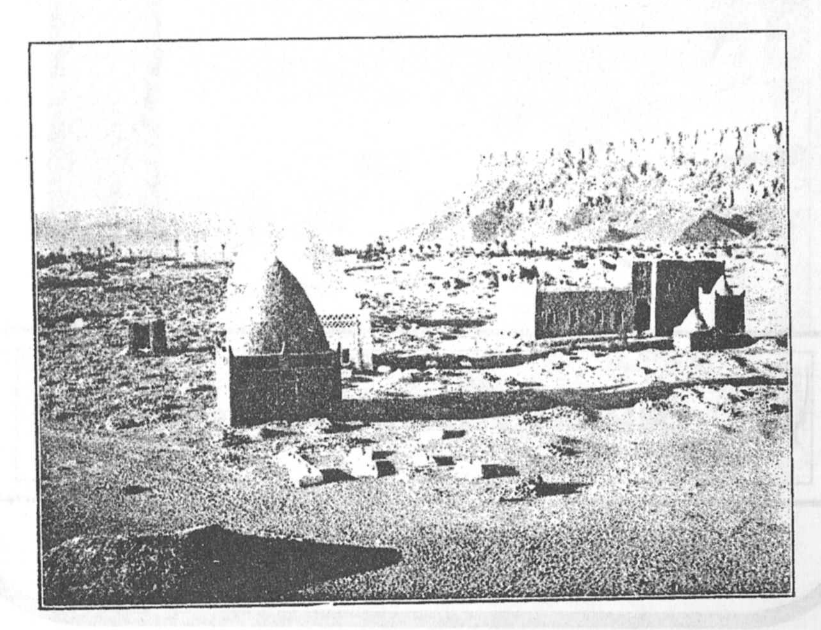
منزل العطاس في حريضة

الفصل السادس

حريضة، موطن آل العطاس



مسجد حريضة



مقبرة حريضة

(١) من المشهد إلى حريضة (١)

غادرنا المشهد بعد الظهر بقيادة السيد حسن ، وسرنا عبر الوادى الكبير الشاسع الخالى من النبات إلى مدخل وادى عمد . ويسمى بطن الوادى هنا "بحران" (أي النهرين) ، حيث مجرى السيل فى وادى دوعن على الشمال ووادى العين على اليمين وتفصلهما هضبة من الرمال والراسب الطفالي ، ثم يلتقيان عند هذه النقطة . وتجلب قرية "سدب" ، التى تقوم مثل القلاع العالية عند سفح الجبل ، الماء لبساتين النخيل من وادى العين . وبعيدا على اليمين تقع قرية "حورة" وبها حصن كبير وقلعة للمراقبة على التل . إنها بحيرة قعيطية صغيرة وسط بحر كثيري .

عند وصولنا مدخل وادى عمد ملنا إلى الداخل فى اتجاه جنوب غربي ، فأصبح وضع الشمس متوهجا بضياء رائع . وشعرنا أننا أقزام وسط رمال مجارى الأنهار العريضة وشواطئها العالية فى البعد . كنا ننتقل من سقاية إلى أخرى . ودخلنا وادى عمد ونحن نتابع عن كثب الحائط الصخري على جانبه الجنوبي الغربي . وفى أعلى ذلك الجدار ، الذى هو فى حالة تصدع هنا ، شاهدنا بعض التحصينات والقلاع . هناك بعض الأرض المحروثة فى الوادى ، لكنها ما زالت حقولا جرداء وسط الرمال ؛ وينمو شجر النبق والأعشاب متناثرا هنا وهناك . ونعبر أحيانا على بعض أشجار النخيل والمستوطنات ، فيخرج سكانها وينادوننا فى ريبة. وعندما يسمعوا أن السادة من آل العطاس فى ركبنا ، ترتفع التحايا "يا حيّا" ، وهي اختصار للدعوة :"أطال الله عمرك " .

واصلنا السير تحت سماء مرصعة بالنجوم البهية . والنتوء الضخم الذى نسترشد به فى سيرنا هو جبل غمدان . ولم نر أنوار حريضة إلا عندما اجتزناها . وكلما اقترابنا منها كلما ازداد عدد الرسل الذين يحملون المشاعل، وعدد الفضوليين الذين خرجوا للقائنا . كان حضور الشباب أكثر وضوحا ، شبابٌ غض وجريء ، كانوا يتدافعون من حولنا لمصاحبتنا والتحدث معنا بشغف . وسرعان ما بدأ الصبية يطرحون بعض الأسئلة باللغة الملاوية . وعندما جاءتهم الردود أيضا بنفس تلك اللغة ، أخذت الأسئلة تتلاحق تباعا ، هؤلاء الشبان الواعين ، ولدوا فى جاوا ثم أرسلوا إلى هنا ليحصلوا على تعليم عربي سليم. وأصبحوا مصدر إعجاب وحسد من أقرانهم .

" هل تستطيب لك الإقامة هنا ؟
" قطعا لا ، إنها أفضل بكثير فى جاوا . هذه بلاد كريهة بفقرها وحرارتها ومللها ."
كان يملأهم الحنين إلى جاوا ، حيث ما زال آباؤهم هناك فهم يرغبون فى العودة فورا .
ترجلنا عند مدخل حريضة التى ليس بها سور ، فقد رأينا بضوء مصابيح الغاز العديدة ، الأشباح البيضاء لوجهاء المدينة الذين كانوا ينتظرون قدومنا . تقدم حاكم المشهد باعتباره المتحدث الرسمي . وقال إن أهالى حريضة ممتنون , بتشريفهم بأول زيارة هولندية رسمية . كان الأجانب حتى وقت قريب يمنعون من دخول حريضة ، لكن أصبح الرأي العام الآن كثر حداثة . هناك تعاطف فى كل حضرموت نحو هولندا وتقدير لتلك البلاد للاستضافة والمعاملة الكريمة التى يلقاها الحضارم فى البلاد التى تقع تحت حكمها .
وعبر عن أمله فى أن تكون ثمرة هذه الزيارة تواصل الصلات بين حضرموت وهولندا
كانت أنوار المشاعل تضيء هذا المشهد الفريد على أطراف حريضة بشكل بديع، حيث يدخلها أول أوربيون، وهم فى غاية التعب وملابسهم متسخة وأطرافهم متقلصة من الرحلة الطويلة ، وأيديهم فى أيدى وجهاء المدينه بملابسهم النظيفة البيضاء . وأمسك الحاكم يد الهولندي بوقار ، وسار السيد حسن بجانبه . واصطحب اثنان من الوجهاء فون فيسمان بنفس الطريقة ، ومن ثم بدأ التقدم البطيء نحو المدينة . والتمع مسجد أبيض رائع فى الظلماء ثم تلاشى فيها مرة أخرى ؛ أما البقية ،فهي منازل بنيّة من الطين يبدو أنها شيدت بلا نظام . عبرنا المكان بعد خمس دقائق، و ظهر على منحدر ركام الصخر ، منزل العطاس الضخم مضاء وبه العديد من الشبابيك الصغيرة . و قد أعيد بناء المنزل وتوسيعه حديثا ، لذا مازال الطابق الأعلى بلا جير أبيض. وتقدم أحد إخوة حسن وعلوي مع عمه لتحيتنا . تلقى هذا الأخ تعليما هولنديا ، بينما تعلم علوي فى مصر ، وحسن فى الهند . وكان العم ضابطا فى الكتيبة الحضرمية فى جيش نظام حيدرأباد . كان الاستقبال فى المجلس قصيرا ، ثم صعدنا إلى أعلى لتناول وجبة دسمة فوق السطوح الواسعة بصحبة الرجال الأقربين فى العائلة .

(٢) بعض الأيام الجميلة فى حريضة

خصصت لنا مضيفة أنيقة نظيفة لإقامتنا فى حريضة . كانت هذه ميزة كبيرة إذ أعطتنـــا مكانا فيه خصوصية نرتاح فيه ، فلا نقابل الزوار إلا فى منزل عائلة العطـــاس . وفـــى اليوم التالى (العشرين من مايو) كان هناك تجمع كبير لتقديمنا لأهالى حريضة . وتتم هذه الأشياء بطريقة ديمقراطية هنا . فيحضر هذه الاجتماعات العالى والوضيـــع ، و الكبـــير والصغير ، وحتى البدو فى القافلة ، و الجنود من حراس المـــنزل ، وجنودنـــا العبيـــد ، وأفراد الأسرة الصغار . الشيء الوحيد أن الصغار والتبّع يبقون على مسافة فى الخلـــف ويحرصون ألاّ يحدثوا ضوضاء تزعج الكبار. ويبقى الكبار وعقلاء المنطقة مع بعـــض. كان لمجموعة الشباب مكان هام نظمه السيد حسن بنفوذه ليصبح اتحادا لعائلة العطاس . وفكرة الاتحاد مستوردة من "عليقرة" ، حيث درس السيد حسن فى الجامعة الإسلامية ؛ لقد أدخلت عنصرا حديثا فى الحياة العامة فى حريضة .

دار نقاش طويل حول الوضع السياسي فى مصر واليمن والحجاز وجزر الهند الشـــرقية وحضرموت ذاتها . و الموضوع الأخير أكثرها مشقة . طرح بالطبع سؤال بشكل عـــام حول استعداد هولندا لتعيين قنصل فى حضرموت. وكانت إجابتى أن هولندا لا ترغب فى شيء أفضل من هذا ، لكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك . إنها تتمنـــاه ، مـــن أجـــل تقويـــة الروابط التى نشأت منذ قرون خلت مع العائلات الحضرمية المرموقة ، وكذلك من أجـــل توسيع تجارة جاوا وهولندا مع جنوب الجزيرة العربية . لكنها لا تستطيع ، لأنه لا توجـــد وحدة هنا وليست بها سلطة عليا مسئولة. إلى من تتجه ملكتنا ومن سيكون مسئولا عـــن ممثلها ؟ كانت هذه المناقشة واضحة لهم ومصدر اهتمام عميق من جانبهم. وحتى أخفـــف من حدة الوضع الذى برز ، عبرت لهم عن تقديرى للظروف الملائمة التى وجدتها هنـــا بعد أسبوعين من الترحال فى منطقة متخلفة جدا . ويلاحظ الإنسان هنا نفوذ الأشـــخاص الذين سافروا فى بعض أجزاء العالم . و لم أتمالك مع ذلك من القول إن أولئك الأشخاص لهم إنجازات أكثر فى البلدان الأخرى، مثال ذلك جاوا، مـــما فى بلادهـــم . ونصحنـــاهم بكثير من الحذر بأن يهتموا بخلق تجانس مع أنفسهم ويركزوا اهتمامهم وطاقتـــهم نحـــو

بلادهم . وأدت تلك المناقشات إلى انخفاض مزاج الترحاب الحار إلى حـــد مـــا ، لكـــن صلاتنا تمتنت مع مجموعة كبيرة من الزوار الذين كانوا يصغون باهتمام .

جاء الوجهاء فى العصر ليطوفوا بنا على المدينة . سرت فى المقدمة مع حاكم المشـــهد ويدى فى يده ، يبدو أنه أكثر شخص له نفوذ هنا ، وتبعنا فون فيسمان يصاحبـــه السـيد حسن ، ومشينا الهوينى نحو المسجد الكبير الذى هو بحق مصدر اعتزاز أهل حريضـــة . توجد ثمانية مساجد كبيرة أنيقة فى هذه المدينة التى لا يتعدى سكانها ٢٠٠٠ نسمة . اثنـــان منها متصلة بمبانى مدرسية ممتازة ، حيث يتلقى الأولاد تعليما ابتدائيا ، ثم يتبعه تحفيـــظ القرآن وتعليم العقائد . شيدت هذه المساجد والمدارس على نفقة رجال من حريضة ، مـــن الذين أثروا فى المهجر ويقدمون أيضا المال اللازم لصيانتها . شيد المسجد الأول الـــذى زرناه مهندس معماري هندي . ولدهشتنا الكبرى دعونا لخلع أحذيتنا ودخول المســـجد : هذه هي المناسبة الأولى فى أرض الجزيرة العربية التى سمح لى فيها بدخـــول مســـجد . وسمعنا نقدا وهمهمات امتعاض من عدد من المتفرجين ، لكن مرافقينا كانوا يقدمون لـــهم إجابات مقتضبة واصطحبونا بكل بساطة معهم . الساحة الكبيرة فى الوسط كلها معبـدة، و بالرخام الإيطالي فى بعض الأماكن . وخلفها غرفة مغلقة لأداء الصلاة فـــى الشـــتاء . خلفها مساحة بها قبة الشخص الذى تبرع بتشييد البناء . والمقبرة والأبواب منحوتة بشـكل جميل من شجر النبق . هذا على الأقل هو الفن الوطني الأصيل الوحيد فى هـــذا البنـــاء المشيد بفن معماري غير عربي . وتقف المقبرة تحت سقف منفصل على شكل قبة متصلة بالمسجد . فكانت رغبة المانح أن تقام هناك مكتبة وقاعة لدراسة العلوم الدينية فوق قـــبره : لذلك كان تحت القبة وفوق القبر صالة شاسعة باردة ، حيث هناك كتب بحق ، لكن ليس هناك طلاب . لم نترك شيئا فى جولتنا . وسمحوا لنا بمشاهدة أداء الوضوء . وصعدنـــا إلى المئذنة ،وشاهدنا ساعتي حائط كبيرتين ثمينتين صنعتا فى إنجليزا . ثـــم دلفنـــا مـــن المسجد عبر باب إلى المدرسة ، لم يكن بها طلاب خلال تلك الوقت ، فذاك وقت العطلـــة بمناسبة موسم حصاد التمر .

سار موكبنا إلى المسجد التالى وهو أقدم مسجد فى حريضة ، شـــيده مـــهندس معمـــاري حضرمي على الطراز المحلي الصارم . ثم سرنا حول المدينة إلى مسجد أنيـــق حديـــث

البناء شيده بلوتقراطي (وهو الشخص الذى بنى نفوذه بالثروة) من Djohore ، وهو يريد أن يبنى لنفسه منزلا هنا ، لكنه بدأ بالمسجد وفقا للتقاليد الحميدة. في حريضة بها بعض المنازل الأنيقة التى يعيش أصحابها فى Djohore وسنغافورة وجاوا بينما يبدو أن سكان المدينة فى غاية الفقر. توجد خارج المدينة بعض بساتين النخيل، وهي رغم جمالها انطباعا عاما بالانهيار . كل ما هو أنيق ومزدهر يعزى إلى أموال المهجر . فالرابطة بين الحضرمي وموطنه قوية جدا ، فعندما تتحسن أحواله يعود من وقت لآخر ، وعندما يشعر أن مغرب شمسه قد أزف يشتاق أن يقضى ما تبقى من عمره في المدينة الصغيرة المبنية من الطين التى ولد فيها ، وينتظر يوم البعث فى تربة حضرموت ، وهي بالنسبة له أرض لها قداستها . لذا نجد هنا قصورا ومنتجعات يمتلكها السادة ويحصنونها سلطانية عاتية، بينما يعيش البدو فى كهوف صخرية أو أكواخ مؤقتة ، وهم دائما على حافة الجوع، أما سكان المدن فلا يرتفعون كثيرا فوق حافة الفاقة . نحن ما زلنا فى بداية المدخل الفعلي لحضرموت الداخل وسرعان ما سنرى مفارقات مزعجة تجعلنا أحيانا لا نصدق أننا نعيش فى الواقع، وليس فى حلم بعد قراءة قصة من ألف ليلة وليلة .

(٣) محيط القرية

نوينا أن نرى فى الحادى والعشرين من مايو بعضا من محيط حريضة . فطلبنا من السيد علي ، وهو بدوي من عائلة العطاس ، أن يرافقنا .لا يميل أغلب السادة للسير في الريف فى هذا الوقت من السنة . ذهبنا بناء على رغبة بعض الوجهاء إلى نبع يخرج من حائط صخري على بعد ميل جنوب حريضة ، مباشرة عند المكان الذى تستند فيه طبقة الحجر الجيري على الحجر الرملي . يقال إن البدو المعادين قد أوقفوا تدفق النبع . النبع الذى كان ينساب غزيرا فى الماضي . وبما أنهم يعتبرون الأجانب مهرة فى كل المسائل الفنية ، فقد سألونا عن الطريقة التى يمكن بها إصلاح النبع . وإذا كانت هناك فرصة للنجاح يمكن تدبير بعض المال لتحقيقه . تقع بالقرب من هذا النبع على حائط الجبل أنقاض مدينة حريضة ، التى يقال إن حريضة أخذت اسمها منها . ولعل هذه الأنقاض تعود إلى الفترة التى سبقت الإسلام بوقت طويل ، رغم أننا لم نجد نقوشا تبرهن على ذلك .وتوجد

أنقاض منازل ، بالتحديد أساسات من الحجارة ، وبئران ما زالتا عميقتين ، وحوض مـــاء مبلط بنوع من الأسمنت . وما زالت هناك شظايا من قناة ماء تقود إلى النبع .
ينقل الماء من النبع إلى حريضة بالتنكات . فاقترحنا تنظيف النبع والقاعدة الحجرية التـــي أمامه حتى كتلة الصخر ، ثم تثبت بالأسمنت ، وتوصل الماء حتى الوادى بأنـــابيب مـــن الحديد ، بهذا يوفروا طاقة وتقل احتمالات التلوث وإهدار الماء .
ثم سرنا تحت قيادة السيد علي البدوي عبر بساتين النخيل وفوق قنوات الري الجافة إلـــى الجانب الآخر من الوادى ، حيث توجد فى شق من الصخر بحـيرة صغـيرة بـــها مـــاء مستديم. لا يميل السيد علي كثيرا إلى التسلق الشاق، لكننا حافظنا عليه . وبعد تسلق نشـط فوق ميادين من الحجارة ، ومنحدرات صيخرية وصلنا بالفعل إلى "البحر" ، وهـــو بركـــة صخرية عميقة مليئة بالماء ، وجدران كهفية يتطاير منها الماء بعد المطر إلى البركـــــة .
إنه مكان رائع للسباحة . حرارة الماء قطعا عالية ، لكن الحرارة كانت تغلى فى الشق مما يجعل المفارقة منعشة . البركة عميقة جدا حتى لم نتمكن من الغطس إلى قاعـــها . فقـــام السيد علي بأداء أحد أعماله البطولية بمناسبة الرحلة ، فتسلق إلى أعلى قمة الصخرة وقفز إلى الحوض . الذى يثير الانتباه أن أغلب الرجـــال فـــى الصحـــراء يجيـــدون الســـباحة ويغطسون بجرأة، مما يؤكد بلا شك موهبتهم الفطرية . و ينخرط الحضارم الذين لم يروا البحر فى العمل كغطاسين للؤلؤ أو وقادين فى الرحلات البحرية الطويلة .
عبرنا فى طريق عودتنا عبر الواحة على قرية صغيرة ، اسمها "الشرج" ، وطلبنـــا مـــاء عند كوخ بائس . وجيء بقدح الفخار المعتاد وأخذ يمر علينا ، وأصروا أن نبقى لتنـــاول فنجانا من القهوة ، فجلسنا جميعنا فى دائرة فى غرفة بسيطة ، وأخذنا نراقب المضيـــــف وهو يقلى بحزم بعض حبات من البن ، ويسحق الزنجبيل ، ثم يضع المسحوق فى إنـــــاء نحاسي على نار من الأعشاب الجافة . كانت الحرارة تشوى فى الخـــارج وكذلـــك فـــى الداخل ، لكننا هنا بعيدين من الضوء القوي . ثم بدأت أعيننا تعتاد تدريجيا على الضـــوء الخافت داخل الغرفة الطينية البنية اللون ، التى يجلس فيها رجال سمر فى صمت متكئيـــن على الـــجدار ، ويدخل بين الحين والآخر طفل عار ريان الجسم فيعكر صفو المناقشـــــة

الهامسة. طلبوا أن نساعد أحد رفاقهم ، وكان قد أصيب برصاصة فى ساقه قبل أيام وإلتهب جرحه الآن. إن الحرب بين القبائل تتواصل حتى فى معقل السادة آل العطاس .

(٤) الحياة المنزلية فى مدينة حضرمية

سنحت فى العصر فرصة لحديث مطول مع السيد حسن العطاس ، الإبن الأكبر الممتلئ نشاطا ، ومع عمه زعيم عائلة العطاس فى حريضة . لم يكن فى صباه فى وفاق مع والده، ولهذا السبب حاول أن يشق طريقه الخاص فى الحياة منذ سن مبكرة . فدرس فى الجامعة الإسلامية فى عليقرة ، وعانى ظروفا معيشية بائسة فكان يعول نفسه واشتغل عاملا . وعندما بدأ الإمام يحيى فى اليمن التعاون مع مصنع جنكرز (Junkers) الألماني خدمات طيران فى بلاده ، أدخل السيد حسن فى خدمته بناء على رغبته . و تعلم تحت قيادة الألمان الطرق السليمة لعمل الأشياء والدخول فى مغامرات . وعندما فشلت تجربة الجنكرز ، عاد السيد حسن من صنعاء إلى حريضة عبر الطريق البري الخطير .

يبلغ سكان حريضة الآن حسب معلوماتى ٢٠٠٠ نسمة . ويعيش فى جاوا ٤٠٠٠ أصلهم من هنا . وخلال العشرين سنة الأخيرة غادر حريضة سنويا بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رجلا ذهبوا ليجربوا حظهم فى جاوا . وبعد أن يحققوا نجاحا يعودن بين الحين والآخر لفترات قصيرة ثم يعودون إلى أعمالهم فى الهند الشرقية . وإذا تيسرت لهم السبل، يبعثون بأبنائهم إلى حضرموت لفترة خمس أو ست سنوات حتى يصبحوا أكثر ارتباطا بأسرهم ولغتهم ودينهم وتقاليدهم . لا تذهب البنات من جاوا إلى حضرموت أبدا تماما كما لا تذهب النسوة من حضرموت إلى جاوا . ونتيجة لذلك فإن الأطفال الذين يولدون هناك دائما من أجناس مختلطة . يتذكر السيد حسن إمرأة حضرمية واحدة استطاعت أن تنفذ رغبتها وتصحب زوجها إلى بتافيا . وعموما فإن الزوجات لا يرغبن ، وليست لهن الشجاعة ليفعلن ذلك . علمت فيما بعد أن النساء الجاويات والصينيات كن يأتين إلى حضرموت . ويقال إنهن مرغوبات بشدة كخادمات وطاهيات . أما الأولاد الجاويين الخالصين ، الذين جاءوا لدراسة الدين واللغة ، فليس لهم وجود فى حريضة وهناك القليلون فى المدن الحضرمية الأخرى . يقدر السيد حسن عدد الحضارم فى حيدر أباد بأنهم على الأقل

١٣٠٠٠ ، يعمل أغلبهم جنودا وضباطا فى الفرقة الحضرمية التابعة لجيش نظام حيدر أباد. وكثير من العائلات المرموقة هنا لهم أجداد عملوا ضباطا فى حيدر أباد .

يوجد حسب معلوماتى ٦٠٠٠ سيدا فى شبام وسيؤن وتريم وعينات ، و ٤٠٠٠ آخرون فى وادى دوعن ووادى عمد ووادى رخية وجبل حجاز . وثلاثة أقسام من البدو الحموم من السادة . كان زعماؤهم فى الأساس سادة، واندمجوا تدريجيا فى القبيلة وأصبحوا جزءا منها . وينتمى كل السادة فى حضرموت إلى الفرع العلوي . ومؤسس العائلة هو علوي بن عبيد الله بن أحمد "الذى جاء من العراق" (٢) بن عيسى بن علي العريضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن حسين بن علي بن أبى طالب . وما زال السادة فى حضرموت الداخل يتمتعون بنفوذ ووضع متميز ، لكن يواجه هذا الوضع فى الخارج هجوما مستمرا ، وبعنف متزايد . لا تميز الحكومات الاستعمارية الغربية بين السادة الذين ليسوا من سلالة الرسول ، لا يفهم السادة مثل هذا النوع من الديمقراطية ولا يحترمونه. وهو الاعتراض الوحيد الذى سمعته يثار ضد الحكومة الهولندية الاستعمارية .

السادة فى بلادهم هم حفظة الدين ، لا يوجد فى أي بلد إسلامي مثل هذا العدد الكبير من المساجد الجميلة . ولم أر الصلاة إلا نادرا تؤدى بمثل هذا الخشوع إلا بين السادة فى حضرموت . ونفوذهم على حكومات بلادهم كبير : يعتمد عليهم السلاطين ماليا ، ويسيطرون على البدو بالمال وبالنفوذ الديني . ولو لم يكونوا منقسمين بين أنفسهم بهذا الشكل المحزن ، لكانت الأوضاع فى "بلاد السادة" أفضل بكثير مما هي عليه . وسوف يتضح مما سيأتى الحالة الكئيبة التى آلت إليها الأوضاع فى الوقت الراهن .

يمنح السيد مكان الشرف فى الحياة اليومية ؛ فهو يؤم الناس فى الصلاة ويتأكد من القيام بها . ويحيونه بتقبيل يده ، وحتى السلاطين لا يمكنهم تجنب ذلك ، على الأقل فى الظاهر، ويعبر السيد عن تقديره بسحب يده والتظاهر بأنه يريد تقبيل يد السلطان . وتستمر هذه اللعبة من الادعاء الكاذب لفترة ، فالناس فى حضرموت لهم متسع من الوقت يمكن أن يقضوه فى التشبث باحترام زائد إلى أسلوب اللياقة فى الحياة . أما بالنسبة للأعيان من غير السادة فيكفى التظاهر بتقبيل اليد .

تخضع كل السلطات الدنيوية فى حريضة للسادة . فالحاكم شاب فقير يعتمد ماليا بشكل أساسي على عائلة العطاس . يتولى السادة أمر المدارس والمساجد والآبار وكل الخدمات الأخرى .

تعانى حريضة مشكلة امدادها بالماء . فشاهدنا آبارا كبيرة محاطة بجدران ، عمقها ٥٥ قامة (أي أكثر من ٣٠٠ قدم) . وكانت مجموعة من العبيد الأشداء رجالا ونساء ، ينشدون جماعيا وهم يرفعون الماء بالبكرات ويفرغونها فى أنبوب يقود إلى الحوض الأسمنتي . إن العمل اليدوي الرخيص من جانب والثراء فى المهجر من الجانب الآخر مكنا مناطق مثل حريضة على البقاء . واعتمدت بساتين النخيل فى بقائها على ماء السيل، لكن يبدو أنها فى حالة انهيار ، فقد أخذت أطرافها تتداعى أمام كثبان الرمل المتراكمة .

استقبلت رسميا فى مساء الحادى والعشرين من مايو ، فى المنزل البسيط لحاكم حريضة . قام حاكم المشهد والسيد حسن العطاس بدور المضيف وبتوجيه اللقاء . الحاكم شاب هادئ ودود ، فأضفى على كل الجو رقة وإلفة . وألف شاب من عائلة العطاس قصيدة ترحاب . وألقى السيد حسن كلمة قرأ خلالها القصيدة التى قيلت فى الترحاب بنا باعتبارنا أول أوربيين يزورون حريضة . وبما أنهم رعايا هولنديين ، فقد كانوا فى غاية السرور أن يكون أحدنا مبعوث الحكومة الهولندية . وقلت فى ردى إنه من الطبيعي والمناسب بالنسبة لى أن يسبق الهولندي البريطاني إلى حريضة ، فالهولندي فى جاوا موجود بالنسبة لها للمعاشرة الطويلة والعلاقات الوثيقة . ووجدت أيضا فى حضرموت بجانب المفاجآت السارة ، بعض الأوضاع المخيبة للآمال . فقد كنا نعتبر الحضارم الحيويين ، الذين عرفناهم فى جاوا ، لهم القدرة على تحسين الأوضاع المتردية فى بلادهم .

كنت أغتنم أي فرصة تسنح لى وأشير إلى ضرورة النشاط المستقل وبذلك أرد على الأسئلة المتكررة حول العون الهولندي أو أي عون أجنبي آخر من أجل تحسين الاوضاع.

قام رفيقى بصحبة السيد علي العطاس بتسلق جبل غمدان لاستقصاء العجائب التى تحكى عن هذه القمة التاريخية . ولا بد من وجود أنقاض ، وبئر عميقة فى القمة يقال إنها تتصل بمجرى سري مع بئر علي فى الساحل. يظهر أن أنقاض الحصون الدفاعية فى غمدان

حديثة العهد . وعثروا أيضا على البئر ، وتجرأ السيد علي البدين بالهبوط إليها ، بـالرغم من القصص الرهيبة عن الثعابين والوحوش الأخرى التى قيل إنها تسكن فـى قاعـها . وتبدو الحفرة أنبوبا عمقه ٩٠ قدما ؛ يعترض الجزء الأسفل منها ممر دخل فيه السيد علـي بضع ياردات ، وفى يده مسدس محشو . ثم أصبح صرير الخفافيش المتطايرة حوله حـلدا لدرجة لم يعد يحتملها فعاد إلى الأنبوب ، حيث كان فون فيسمان قد تبعه . ولـم يسـتبينا بضوء المصابيح الكهربائية التى معهما أي أثر لنشاط آدمي أو كنوزا مخفيـة . وتسـلقا عائدين إلى أعلى دون أضرار ، لكن بمشقة كبيرة .

أصبح السيد علي منذ ذلك الوقت قريبا من فون فيسمان بحكم الصداقة والإعجاب . كـان يريد بالطبع أن يذهب معنا إلى وادى حضرموت إلى السيد الكاف العظيم فى تريـم ثـم يصحبنا حتى قبر هود ، ويقوم هناك مع صديقه "حرمل" باستكشاف أسرار بئر برهـوت . فالذى تجرأ ونـزل إلى بئر غمدان سوف يتجرأ أيضا على الفـم الجـهنمي لـبرهوت ، وسوف تتداول الأجيال اسم السيد علي بالفخر فى سجل تاريخ حضرموت . عـاد السـيد علي مع فون فيسمان إلى حريضة وهو مخمور بالزهو والفرح . وحكـى قصتـه حتـى منتصف الليل ، و أصبحت أكثر تشويقا عند تلاوتها . وذاعت شهرة رفيقى وسبقته إلـى حضرموت . كان سيد علي يقدمه بزهو قائلا : "حرمل الطيار الألماني (انظـروا إلـى ركبته التى أطاح بها الرصاص) ، الرجل الذى لا يهاب أي شاهق أو عمق " .

تلقينا دعوة أخرى فى صباح الثانى والعشرين من مايو وكانت هذه المرة لتناول الشاي مع السيد طالب، الذى قدموه لنا باعتباره سندباد حضرموت . لقد سافر كثيرا فى أرجاء العالم الإسلامي ، وكان يقابل بالترحاب فى كل مكان لأنه سيد ولأنه من سلالة رهط من علمـاء الدين ، وعاد ثريا من تلك الأسفار . كان بيت السندباد جميـلا يسـمونه مزاحـا "يلـدز الصغيرة" . وهو الآن رجل مسن ، لكنه يستمع ضاحكا عندما يحكى ضيوفه الصغار أنـه يتزوج فى كل عـام أجمل فتاة فى حريضة . وعطرنا أنفسنا بـالبخور ، أمـا مضيفنـا فيتعطر بطريقة أجود منا جميعا . يبقى دخان المبخر تحت عباءته الفضفاضة . ثم قدمـوا لنا الشاي مع حلوى الزنجبيل . كان سندباد بوجهه الماكر المحاط بلحية بيضاء أطرافـها

مصبوغة بالحناء ، يحكى عن أسفاره . ويلتهم المستمعون من الشباب الأقاصيص الذكية لهذا الرجل الدهري -- شخص منقرض لنموذج مجتمع السادة فى حضرموت .

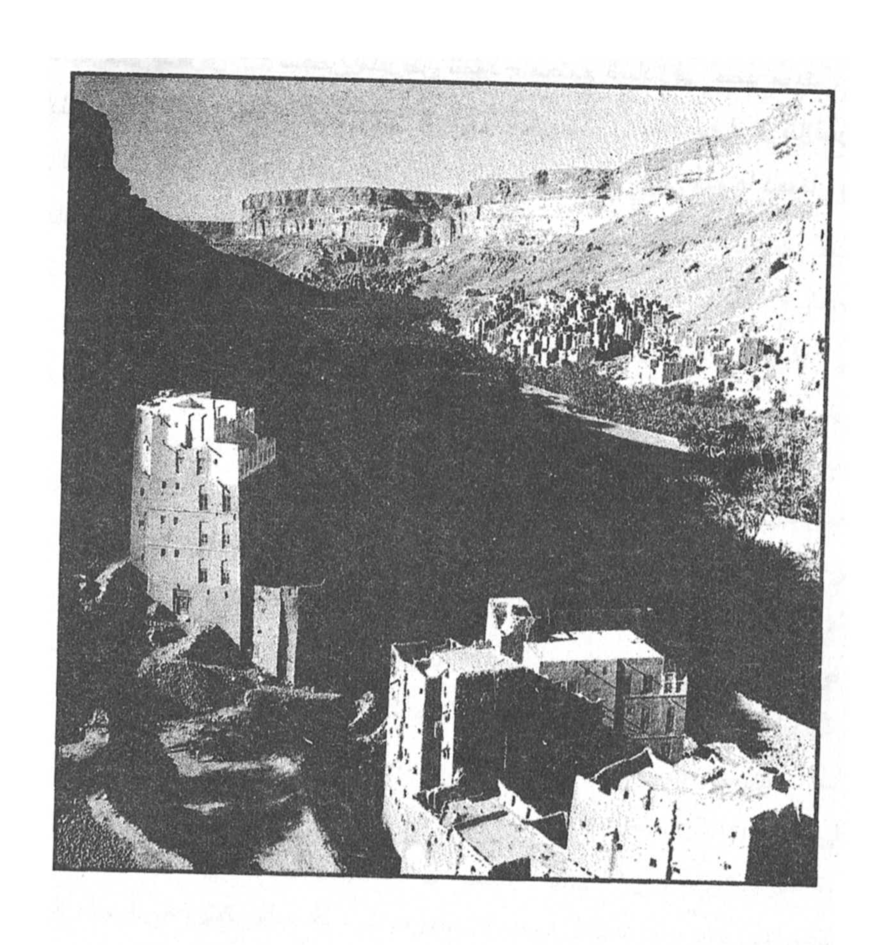
تبادلنا الهدايا التذكارية مع السيد حسن العطاس لتبقى ذكرى مستديمة لزيارتنا لحريضة .

إن الاستقبال السخي الودي الذى لقيناه هنا والمشاعر الرقيقة التى أبدوها نحونا ، مهدت لنا الطريق فى رحلتنا عبر حضرموت .

هوامش

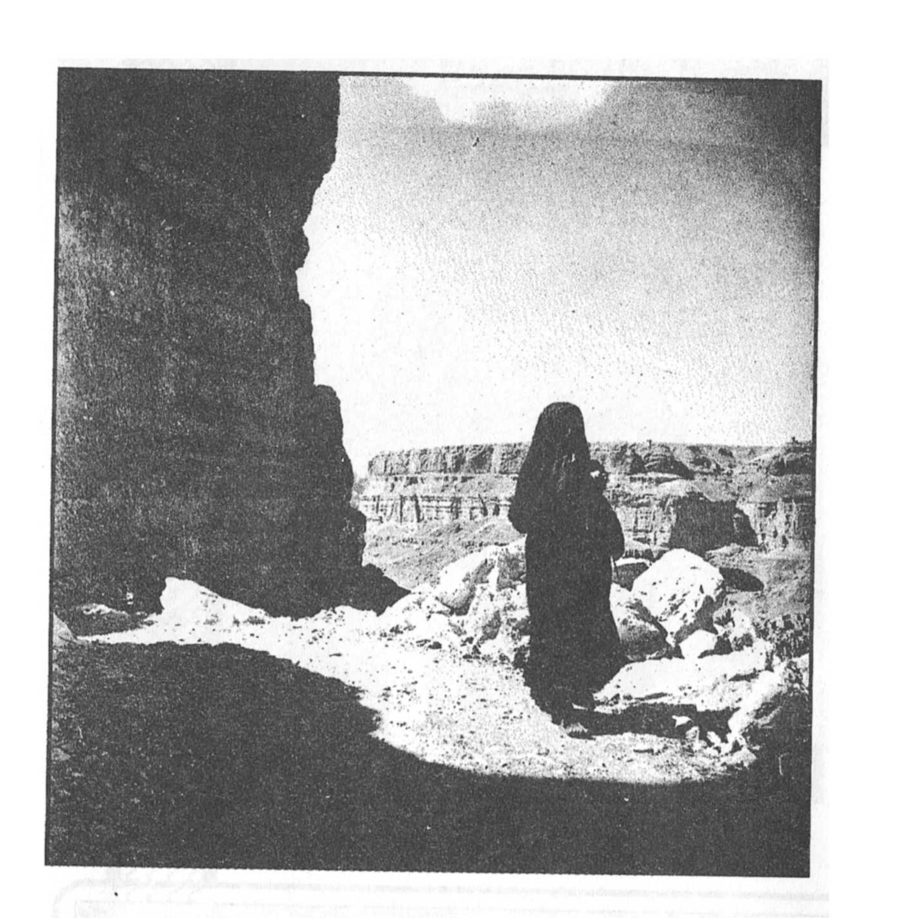
(١) عندما ذهب آل بن بريك واستقروا فى ميناء الشحر ، تنازلوا عن حريضة لآل العطاس ، وذلك فىالنصف الأول من القرن التاسع عشر . ونشأت على إثر ذلك علاقة حميمة بينهما .

(٢) ويلقب بالمهاجر لأنه جاء من العراق .



الخريبة


الفصل السابع
المدخل إلى وادى حضرموت الرائع



بالقرب من وادي دوعن

وصلت فى اليوم التالى أول سيارة إلى حريضة . فقد استطاع بن عوض مرتع من هينن ، وهو تاجر جملة من "سرابايا"، أن يجد طريقا عاليا عبر روابى الطفال الرملي والرمال . غادرنا فى العصر بعربته، التى ملأناها تماما . لم يكن الطقس حارا بدرجة لا تحتمل فحسب ، بل فوق ذلك يبدو أن الرياح المحرقة تهب عصرا فى هذه الوديان الرملية العريضة . وانغرست السيارة عدة مرات فى الرمل الرخو ، لكن أخرجناها مرة أخرى بجهودنا الجماعية، وواصلنا مسيرنا المترنح عبر الصحراء الموحشة وحرارتها الحارقة . لا يوجد أحد فى الطريق فى مثل هذا الوقت من اليوم ؛ وكانت القرى الطينية الصغيرة التى نشاهدها أحيانا من بعيد تبدو كأنها ميتة . وتلتمع أشجار النخيل الهزيلة بين الحين والآخر عبر ستار الرمل الذى يحلق ساكنا فى الهواء .

(١) ديار آل البقري ، بؤرة اقتتال

وصلنا بعد حوالي ساعتين مدخل وادى عمد عند "وادى الكسر " (١). التربة هنا أصلب، وتتكون فى الواقع من تلال من الراسب الطفالي . يشبه الوادى عند هذه النقطة سهلا شاسعا ، وكان السائق يقود السيارة ، وهو يستهدي بقمم بعيدة عالية فوق الحائط الصخري تلوح بين الحين والآخر خلال ضباب الرمال . كنا نتعرج وننحى باستمرار وسط تلال الراسب الطفالي . وبن مرتع بالتأكيد سائق بارع . ثم لاحت بعد فترة من خلال الضباب قلاع آل البقري بلونها البني الأبيض ، وهي تقع تقريبا فى منتصف الوادى . إنها مركز المنطقة التى تدور فيها الحرب ، حيث تحارب مجموعتان من القرى بعضهما البعض مدى أحد عشر عاما . وأبناء آل البقري هم قواد أحد الجانبين . القلاع عالية جدا ومسلحة تحسبا لأي هجوم محتمل . والحدائق محاطة بجدران من الطين بها بوابات من خشب متين ومزينة بزاخرف من قطع حديدية . كنا نتلهف للماء ولمكان نحتمى به من العواصف الرملية . وأطل الجنود برؤ سهم من فوق درابزين السطح عندما سمعوا صوت عربتنا ، وصاحوا علينا أن نلتف الى الجانب الآخر من القلعة، حيث قد يصيبنا رصاص الأعداء فى هذا الجانب . وتقع قرى الأعداء على بعد نصف ميل . ثم فتحوا لنا البوابة فى الجانب الآمن ورأينا إخوان آل البقري يقفون وسط جنودهم . واستقبلونا استقبالا وديا ، وقادونا وسط جمهرة من الجنود والأطفال إلى

مجلس كبير فى الطابق الثالث. المنزل من أكبر وأطول المنازل التى رأيناها هنا حتى الآن . حديث البناء ومصان جيدا ومطلي كله بالجير الأبيض من الخارج والداخل. والجانب الخارجي مزين بأطراف رمادية داكنة فى النوافذ والشرفات مما يعطى انطباعا بذوق رفيع. الرجل القائد هنا طويل نحيف ، عريض المنكبين وعيونه بنية نفاذة وأنفه معقوف : نموذج للجندي. وعندما جلسنا وانتهت عبارات الترحيب ، قال القائد : " الحرب مهنة الرجال " . كانت تلك إجابته على نظراتنا المتسائلة نحو الجدران التى تتعلق فوقها البنادق وأحزمة الرصاص ، بينما يجلس تحتها الجنود فى صفوف مكدسة . ثم تبادلنا بعد ذلك الحديث الذى عرفنا من خلاله أن مضيفنا عمل مع البريطانيين فى شرق أفريقيا حيث تعلم "مهنة الرجال " . وتقبل بروح طيبة المعارضة الواضحة من جانبنا . وبعد مناقشة تابعها الجنود باهتمام ، قفز إخوان آل البقري الاثنان الى النقيض وعبروا عن ضيقهم بالحرب واشتياقهم لانتهاء الأسر داخل منزلهم . وتتوقف الحرب بالتفاوض خلال ثلاثة أشهر كل عام . وهو وقت الأسواق الموسمية والحجاج والسفر . ينتمى الفريقان المتحاربان إلى قبيلة النهدي ويتطلعون بشوق الى انتهاء صراعهم . لكن لا توجد سلطة مركزية لتتدخل وتفرض قرارها .

أدركنا خلال الأيام الأخيرة أن انعدام الأمن هنا مسألة أكثر خطورة مما كنا نتصور حيث سار كل شيء فى يسر وفى أمان كما يبدو . أدركنا الآن أننا وسط ناس يتطلعون الى يد قوية تحقق الاستقرار والأمن القانوني . كانت عائلة العطاس ترغب فى تقديم أفضل نموذج ممكن فيما يختص بالأوضاع فى منطقتهم . لكن كان السيد حسن مجبرا فى المقام الأول على فرض سلام لبضعة أيام حتى يجعل رحلتنا من و إلى حريضة ممكنة عبر منطقة قتال .

وصلت رسالة تهديد قبل رحيلنا بيوم ، تمنع عبور النصارى . فوضع البدو الثلاثة الذين أحضروا الرسالة فى السجن وتوعد السيد حسن بأنه سوف يستدعى كل أتباعه البدو ويشن حربا على الذين يهاجمون ضيوفه ، عندها فقط منحونا حرية العبور . كنا مع آل البقري فى وسط منطقة القتال ؛ فالرجال المسلحون يملأون المنزل ؛ ولم يسمحوا لنا بأخذ الصور والمقاسات من فوق السطح إلا تحت حراسة الجنود وعلى شريطة أن نزيل قبعاتنا ؛

وكانت فتحات التصويب فى كل الجدران ، وحتى فى المراحيض ، ووقف المراقبون فوق السطح .

أثناء تقديم الشاي والزنجبيل المعلب ، واصل أخوان البقري المناقشة بلغة الملايو . ولهم معرفة بالعالم. ونشب الخلاف حول الخيانة من جانب الخصوم ؛ ثم أريقت بعد ذلك الدماء باستمرار ، لا يمكن الآن التوصل لتسوية الحساب فى هذا الثأر الدموي . لكن يمكن أن يأتى الخلاص من الأجانب ، بريطانيين أو هولنديين . لماذا لا يقومون بذلك ؟ ويفضل آل البقري التعاون مع هولندا على بريطانيا ، بالرغم من أن هولندا تفرض ضرائب باهظة، لأن الأمن أوفر والشرطة أفضل فى المستعمرات الهولندية . تكرر نفس السؤال مرة أخرى فى المساء ، فى غرفة استقبال مضيفنا فى هينن ، وعلى الرغم من دلائل الإعجاب هذه بالحكومات الاستعمارية الغربية ، إلا أنى واصلت الإجابة بمراوغات وألححت عليهم أن يأخذوا الأمور فى أيديهم بأنفسهم لتحقيق الوحدة ، التى تفرضها عليهم الضرورة .

(٢) مدينة هينن العتيقة المنقرضة

كلفنا رفض الدعوة الملحة للبقاء فترة أطول ومواصلة الرحلة إلى هينن بعد الظهر مشقة كبيرة . ما زالت الرياح الساخنة تملأ الوادى بضباب كثيف متسارع من الرمال والتراب. رافقنا آل البقري الى خارج البوابة على الجانب البعيد من الأعداء، وهم محاطون برهط من جنودهم . من الواضح أنهم يشعرون بالأسى لمغادرتنا السريعة وأن يأتى هذا التنويع فى حياتهم الرتيبة إلى نهاية مبكرة . ووعدناهم بسرور وإخلاص قبل أن نرحل بأننا إذا عدنا بهذا الطريق ، فسوف نقضى ليلة فى حصنهم العالى الجميل . ولم يمض وقت طويل حتى اختفت ديار آل البقري فى ضباب الرمال ، وواصلنا سيرنا فى وحشة تامة بين تلال الراسب الطفالي . كان بن مرتع يقود السيارة فى طريق ملتو ،باحثا عن الأماكن التى يمكن أن تعبر فيها سيارته بين صف التلال . فقد كانت الأجزاء المنخفضة مليئة برمال ناعمة راكمتها الرياح فكان علينا أن نسلك طريق المنحدرات عند سفح تلال الراسب الطفالي . ومررنا على بعض القرى المتداعية ؛ أما النبات فبالكاد يوجد له أثر .

أخذ عدد القرى يزداد كلما اقتربنا من ضواحى هينن . وهي تقع جزئيا عند سفح جـــــدار الجبل الذى يشكل الجانب الشمالي لوادى الكسر ، والجزء الآخر بالقرب فى بطن الوادى. والسدود الصغيرة، التى تتكون منها أقسام مستطيلة ، هي برهان أكيد علـــىأن الزراعـــة كانت تمارس هنا فى وقت ما . يظهر أن هذا ما عاد ممكنا بأي حال ؛ فقد قضت الرمال الزاحفة على أشجار النخيل وانخفضت زراعة الذرة الى الحد الأدنى وما شـــابه ذلـــك . والقرى الصغيرة شبه مهجورة ومنازل الطين متداعية .

شاركت مدينة هينن القديمة نفسها فى هذا المصير . فيقع المكان مثل خط طويل عند سفح جدار الصخر. وتداعت الحصون وأبراج الدفاع العالية الى خرائب كما حدث لأغلـــب المنازل فى هذه المدينة التى كانت فى وقت ما أهم مدينة فى الطريق الى اليمن .

عاد بن عوض مرتع إلى مسقط رأسه من سرابايا وهو عازم أن يسعى لإيقاف تداعيـــها . فقام بترميم منزل الأسرة وبنى فيه طابقا جديدا . وأحضر معه من جـــاوا مضخـــة مـــاء نصبها عند البئر التى عمقها سبعين قدما . وتضخ ثلاثين جالونا من ماء الري فى الدقيقة، بحيث أنها إذا عملت لمدة ثمان ساعات فى اليوم فإنها تستطيع انتزاع بعض الأفدنة مـــن الصحراء الرملية وأن تحافظ على حياة ..٢ نخلة صغيرة مزروعة بينها .

وتوصل بن مرتع الآن إلى قناعة بأن هذا ليس إلا تعبيرا عن الحب عند فـــراش المـــوت وأن مضخته لن تستطيع إنقاذ هينن من التداعي ومن بحر الرمال الذى يبتلعها . وتشـــبه هينن مدينة صغيرة حطمها إعصار على ساحل صخري عند بحر لامحدود من الرمـــال ابتلع أولا بساتين نخلها وغمر الآن المكان ذاته . ولم نر أثرا لآل باعطوة ، شعراء هينـن المتسولين. لقد دفع بهم الفقر الى الأماكن المترفة فى وادى حضرموت وإلى جاوا .(٢)

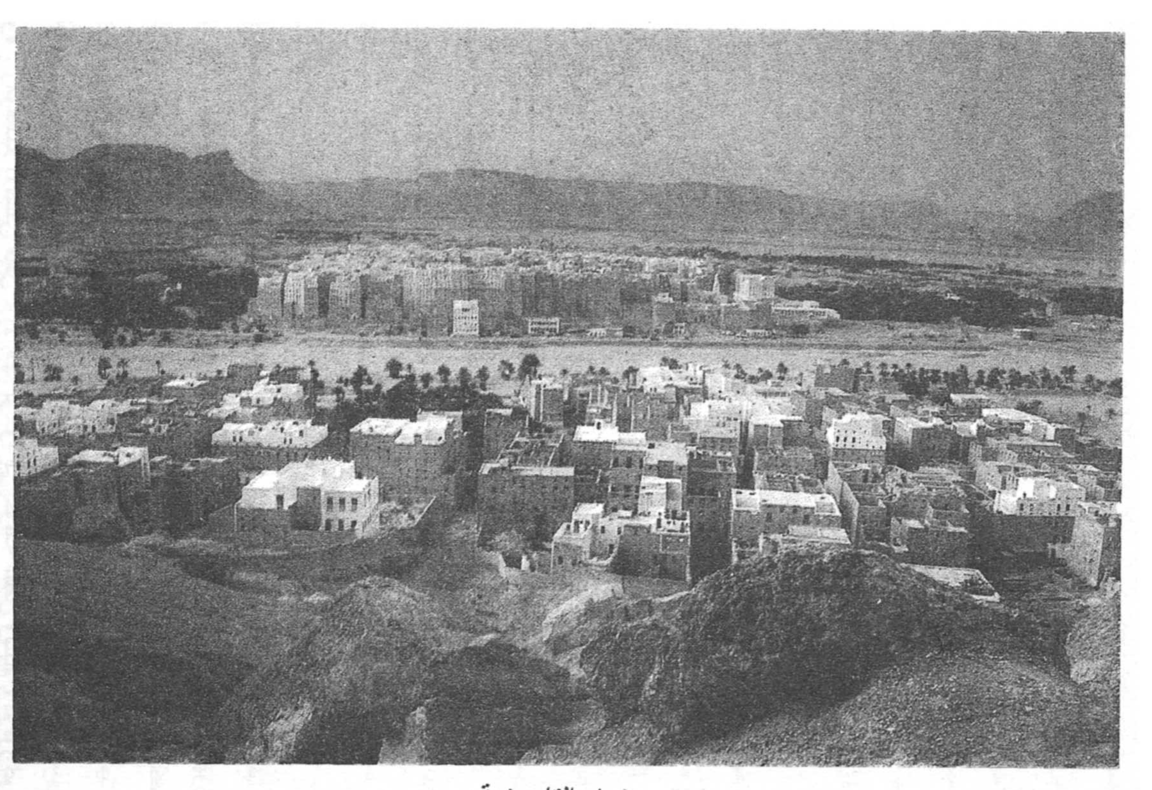
تقع هينن اسميا تحت حكم القعيطي ؛ ويقوم سلطان شبام والقطن بحماية المكان والقـــرى المغمورة الصغيرة التى تحيط بالمنطقة التى يحكمها . قابلنا فى ذلك المساء فى مجلس بن مرتع فى منزله الكبير، شيوخا بسطاء من المناطق المجاورة وكذلك شيخ بدو الصيعـــر . الذين يسكنون الجول والوديان شمال هينن . ويشتهر الصيعر بأنهم متخلفون جدا وفقراء . وبالرغم من أن الشيخ الذى يسكن ريدة الصيعر كان ودودا ، إلا انه تجنب أن يســـتجيب لرغبتنا فى أننا ربما نزوره فى ريدته .

قضينا الليل فى هينن فى غرفة ، حيث أن شرفة السطح التى لم تكتمل قد احتلتها العائلة . وقد جعلت الحرارة والناموس الذى سببته المضخة النوم مستحيلا .

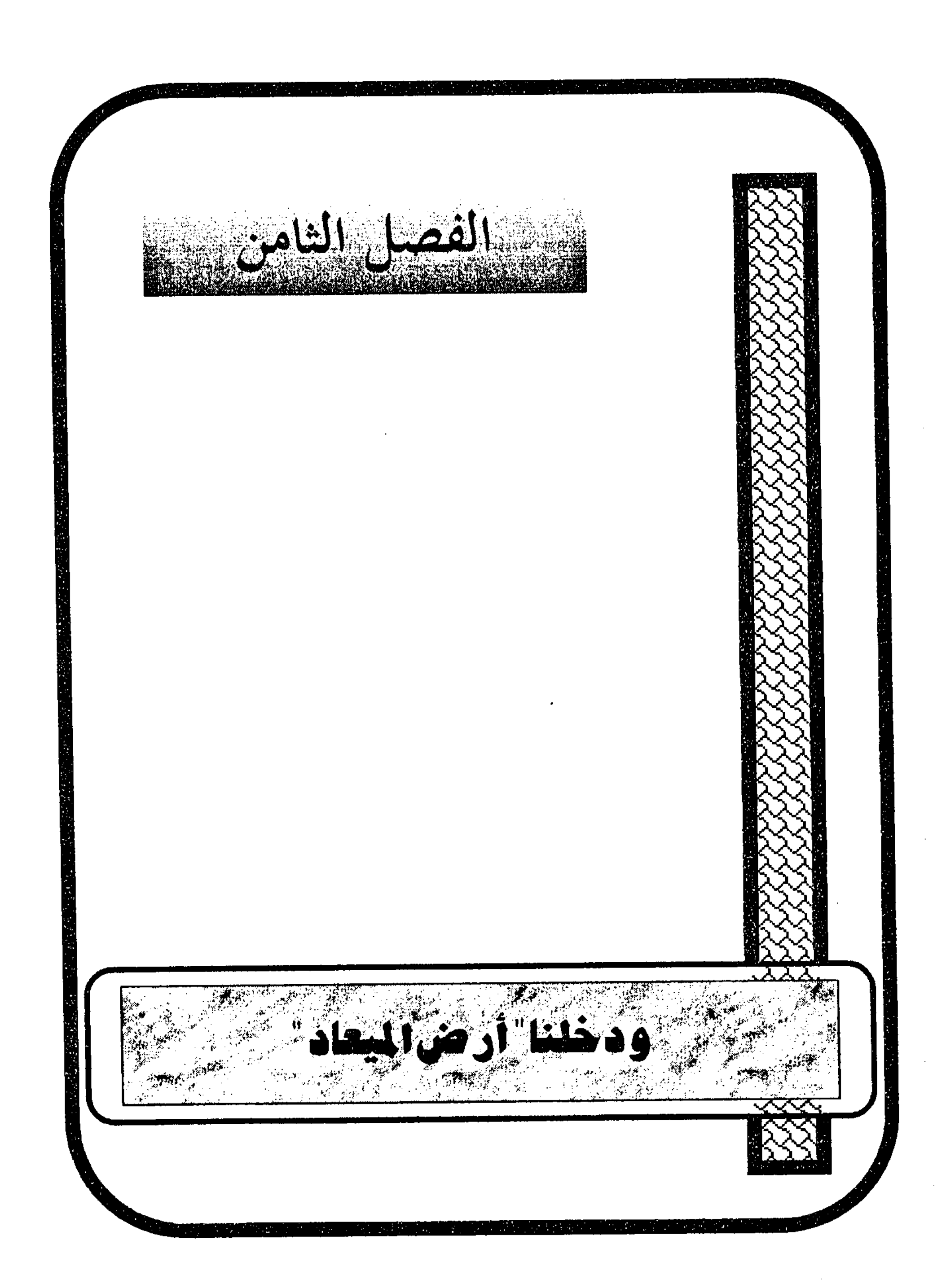
هوامش

(١) تسمى منطقة الكسر وليس وادى الكسر ، وهي المنطقة الواقعة بين قعوضة وهينن وحورة .

(٢) آل با عطوة عائلة كبيرة فى أدنى درجات التراتب الإجتماعي . ويرجع ظهورهم بشكل مؤكد الى الفترة التى أعقبت دخول الإسلام الى حضرموت . وآل با عطوة شعراء اتصفوا بإجادة الهجاء والمدح . واعتمدوا على الشعر كأحد مصادر العيش بالذات شعر الهجاء حتى لقبوا "بالقباحين " ، إلى جانب قيامهم ببعض الأعمال الخدمية . وأصبح الشخص سليط اللسان يسمى با عطوة . وموطنهم الأصلي هينن ، إلا أنهم نزحوا إلى حوطة القطن وشبام ، ثم توزعوا فيما بعد فى جميع مدن وقرى حضرموت ، بل ارتاد بعضهم بلاد المهجر .

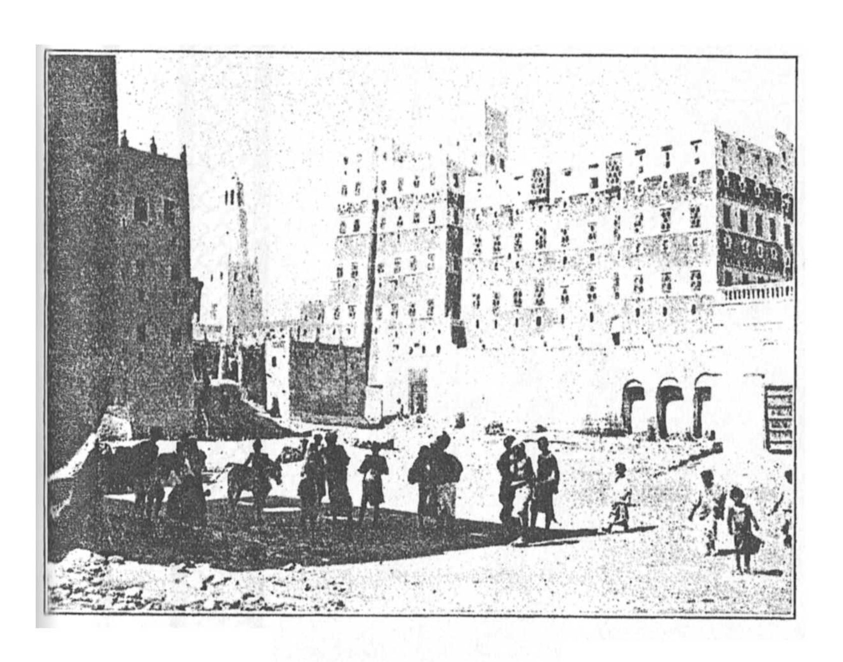


شبام التاريخية



الفصل الثامن

ودخلنا "أرض الميعاد"



قصر السلطان في شبام

(١) القطن وشبام

لم يسمح لنا مضيفنا أن نغادر يوم ٢٣ مايو إلا إذا تناولنا معه إحدى الوجبتين اللتين يتناولهما أثناء النهار . ولم يكن لنا اعتراض محدد ضد هذه الدعوة ، إذ أن بن مرتع هو الذى سيأخذنا بعربته إلى القطن . وكانت الحرارة والعاصفة الرملية بغيضة إلى حد بعيد . فهذا هو موسم نضج التمر . فالعناقيد المثقلة بالثمار بألوانها الصفراء الفاقعة والحمراء الداكنة التي يصل عددها إلى عشرة عناقيد فى الشجرة، تحتاج إلى تلك الرياح الساخنة حتى يستوى نضجها . والسفر فى السهل الرملي ليس كريها فى هذا الوقت فحسب ، بل هناك مشقة لتبين الاتجاه الصحيح . وعلى الرغم من أن بن مرتع سوف يتولى هذا الأمر، إلا أن فون فيسمان سيجد مشقة كبيرة لوضع رسومات الطريق ، وفى مسح جدار الجبل الذى يظهر من وقت لآخر ، وفى وضع اسكتشات القرى .

دخلنا بعد هينن إلى صحراء الرمل الحقيقية . التربة هنا من الراسب الطفالي ، لكن انجرفت فوقها طبقة سميكة من الرمل فى الأماكن المنخفضة . وتنمو هنا وهناك بعض شجيرات الأراك فوق تلال الراسب الطفالي . يبلغ اتساع الوادى هنا سبعة أميال ، واختفت القرى على جانبه الآخر فى العاصفة الرملية. حددنا اتجاهنا نحو جانب الوادى الجنوبي الغربي ، إلى الموقع الذى ينسكب فيه وادى "المنوب" . وما إن ظهرت الصخور حتى استبنا أيضا قمم أشجار النخيل تلتمع من خلال ستار الغبار المشحون بالألوان .

"فرط القطن" هي بداية المنطقة المأهولة المزروعة التى تسمى القطن ، التى تنتصب الآن واضحة عند حائط الصخر . وتصبح الأرض مسطحة ؛ فيتخلص الراسب الطفالي من الرمال ؛ وهناك رقع مستطيلة تشير إلى أن الأرض تزرع عرضيا فى موسم الأمطار الغزيرة . وفى المزارع نبات بطيء النمو ، نوع من العشب يستعمل علفا للأبقار .

"فرط" القطن عبارة عن قرية صغيرة ، لكن بساتين النخيل ومزارع الذرة والسمسم تمتد منها إلى ما بعد "حوطة القطن" ، حيث يسكن السلطان . تروى كل الزراعة الفعلية بواسطة الآبار . وهناك شريط عريض من الأرض يزرع عندما تكون مياه الأمطار وفيرة وتمتد خارج بساتين النخيل . منسوب الماء تحت التربة هنا قريب من السطح، حيث يهبط الوادى بسرعة أكثر من النهر الجوفي . ثم يبرز بعد تريم فوق السطح لمسافة كبيرة .

تقع الآبار والممرات التى يسير فوقها الحيوانات والرجال فى الغالب تحت ظلال النخيل . وعندما لا يتوفر الظل، ينشرون قطعا من الخيش أو أي قماش . ويستخدمون الحمير الأبقار فى رفع الماء ، لكن فى الغالب بمساعدة الإنسان . ويسمون الفلاحين الذين يقومون بالأعمال الشاقة " الضعفة - أي الضعفاء " ووضعهم مثل المنبوذين ، عملهم الأساسي مهمة الري هذه التى تستمر فى الواقع طوال العام. يقوم الضعيف بالتراجع إلى الخلف بجانب الحمار أو البقرة ، ويدفع بالحبل الذى يسحب الماء إلى الخلف بفخذيه ، وبهذه الطريقة يكون لوزنه أثر فعال . وعندما يصلون إلى نهاية ممر سحب الماء ، تظهر القربة المليئة بالماء على حافة البئر ، وترشح الماء عادة من ثقوبها . ويقوم "السانى" بسحب قربة الماء " الغرب" بحبل رفيع ، فتفرغ محتوياتها فى حوض طينى صغير ، تخرج منه جداول ينساب منها الماء إلى الأرض المزروعة(١) . وتشارك كل العائلة فى العمل فى البئر : الأب والأبناء يقودون الحيوانات ويسيرون معها بحبل السحب وتتبادل الأم والبنات معهم هذا العمل . وتجلس فى الظل امرأتان متقدمتان فى السن ويقمن بإعداد العلف للحيوانات، الذى يتكون من قصب جاف يربطون حوله نباتات خضراء فى شكل حزم ، ويدفعونها فى فم الحيوان كلما وصل القمة أو القاع . وشاهدت نسوة يقمن بضفر الحصير ، فى نفس الوقت الذى يسرن فيه إلى الخلف فى ممرات سحب الماء . العمل مرهق : السحب عند الهبوط ثم الصعود مرة أخرى . والطريق الذى يبدأ فيه عملهم من طلوع الشمس ، طويل مثلما البئر عميقة .

(٢) قصر السلطان فى القطن

تبرز مبانى حوطة القطن حتى من بعيد ، حيث تظهر من فوق أسوارها ومن فوق قمم أشجار النخيل. المكان ليس كبيرا ويقع ، مثل قرى وادى دوعن الصغيرة "townlets "، ممتدا ومنحصرا بين أشجار النخيل والحاجز الصخري . ويحيط به سور من الطين مصان صيانة جيدة . وشاهدنا قافلتنا عند بوابة المدينة ؛ إنها فى طريقها إلى شبام مع أمتعتنا وارتاحت هنا أثناء النهار الحار . بالرغم من أنهم أخبرونا أن السلطان موجود فى شبام، إلا أننا كنا نرغب فى تسجيل زيارة مجاملة لنائبه فى القصر ؛ فربما سمح لنا بعمل مسح وأخذ صور فوتوغرافية من سطح منزله العالي . وقد تم تجديد القصر جزئيا من

وقت قريب ، لذلك لم يزين بعد بالطلاء الأبيض البهيج . توجد درجات عريضة تقود إلى باب به نحت جميل . هناك سلمنا رسالة التقديم إلى الحارس وبعد فترة دعانا أن نتبعه إلى أعلى. وصلنا إلى غرفة الاستقبال التى جددت حديثا بعد أن عبرنا ممرا عريضا ودرجات لا نهاية لها كلها مبلطة بالطين الجاف . وقد شوهوا الأسلوب العربي القديم الجميل هنا باستيراد الأسلوب الغربي . واستبدل السجاد الشرقي الأصيل بآخر من المصانع الأوربية. وتم طلاء النحت الخشبي . والألوان الأرستقراطية القديمة البنية والبيضاء والحمراء زحمتها أصباغ زاهية أقل انسجاما جلبت من المصانع الغربية . واستعمل الزجاج الملون زينة فوق الأبواب والنوافذ . ورغم أن القديم أكثر جمالا ، إلا أن الجديد أكثر بهجة ونظافة وإضاءة .

استقبلنا قريب السلطان الخجول بمظهره الهندي. ولم يبلغه سيد علوي بزيارتنا مقدما بوقت كاف، لذلك أخذناه بغتة . استجاب لطلبنا بأخذ صور من السطح . بل صعد معنا مضيفنا الدرجات العديدة إلى أعلى ، وأبدى تقديره لإعجابنا الصادق ونحن نحدق حولنا فى ريف القطن الرائع . يوجد بستان نخيل كبير خلف القصر . ويقف مسجد السلطان الأبيض رائعا أمام قمم النخيل الرمادية الخضراء . رأينا ما بعد ذلك بساتين نخيل كبيرة منفصلة ومسورة ومنازل ريفية بيضاء يمتلكها الجنود والضباط اليافعيون الذين أثروا من الخدمة فى الحكومة القعيطية. كان الجنود والضباط الذين عملوا مع السلاطين السابقين يكافأون بهبات من الأرض . وأصبح لبعضهم إمكانيات ، وأسسوا هنا مستعمرة يافعية كاملة ؛ وكانوا ملزمين بتقديم المساعدة للسلطان ضد أعدائه فى أوقات الخطر . وتقع المدينة التى بها بعض المنازل الكبيرة ذات المظهر المترف ، بالقرب من حائط الصخر. لا يمكننا أن نبقى طويلا فوق السطح ، لأن ذلك يعنى أن نرغم مضيفنا على البقاء معنا تحت حرارة الشمس المحرقة . بعد وادى عمد والرحلة عبر سهول الراسب الطفالي والرمال ، وتوقفنا فى ديار آل البقري وهينن ، فإن تعرفنا الأول بحضرموت الفعلية الحقيقية هذا ، كان بكل تأكيد مفاجأة كبرى بالنسبة لنا . كان وادى دوعن جميلا ، لكن هذا أفخم وأكثر اتساعا. إذ يبلغ اتساع وادى حضرموت هنا خمسة أميال .

لاحظنا عند مرورنا بطوابق القصر التحتية ، أن بها مدرسة يتلقى فيها ما بين مائة إلــى خمسين تلميذا تعليما أوليا علمانيا ودينيا (٢). و مندوب للسلطان الذى رافقنا كان صامتــا ولكنه لطيف ، وأوصلنا حتى العربة وسمح لنا بأخذ صورة له أمام منزله .

(٣) عبر عاصفة رملية إلى "مدينة حضرموت" (٣)

مضينا الآن بالسيارة عبر قطعة الأرض المزروعة حتى طرفها الرملي الخارجي . فــى هذا الأثناء اشتد عنف العاصفة الرملية ، وكان بن مرتع يضل الطريق من حين لآخر مما جعل تقدمنا نحو شبام بطيئا. و من حسن حظنا وجدنا طقسا صافيا فى رحلة العودة مكننا من رؤية هذا الجزء من الطريق واستطعنا أن ندون التفاصيل الضرورية فــى وصفــه . كلما اقتربنا من حوطة القطن أصبح شريط الأرض الزراعية الخصبة ضيقا ثم تلاشى بعد ذلك نهائيا . وأصبحت القرى مثل الجزر الخضراء الصغيرة وسط الأرض الجرداء عنــد سفح الجبل . يمر طريقنا عبر تلال رملية ينمو فيها نوع من القصب .

عبرنا بالقرب من شبام على مزارع ذرة وبساتين نخيل صغيرة تخص قــرى الــهيم(٤) والشيخ علي. وتصل الأرض المزروعة عند هذه النقطة جوانب بطن الــوادى العميــق . وخلال فصل الأمطار يصبح السيل هنا مصدر تهديد وينحط من نعمة إلى خطر : فيخترق وابل المياه العنيفة طريقه عبر بساتين نخيل شبام القديمة ويعرى جذور الأشجار . وشيدوا فى مجرى السيل سدا من أسمنت وحجارة وبه فتحات لتخفيض قوة اندفاع المــاء ؛ يبلــغ طوله نصف ميل(٥) . فقد دمر السيل السدود القديمة الواحد تلو الآخــر ؛ وشــيد هــذا بتكاليف كبيرة ، ويبدو أنه قادر على احتجاز الماء والتحكم فيها .

يمر الجزء الأخير من الطريق إلى شبام مرة أخرى فوق سهل خال من النبــات ، حيــث وصلت العاصفة الرملية الساخنة أقصى درجات العبث . وعلى اليمين المزارع وبعــض بساتين النخيل التى تعتمد على الأمطار ، وهي تخفى نفسها خلف ســتار عريــض مــن الغبار. وفجأة رأينا أمامنا شيئا يشبه السراب : كتلة مربعة رمادية ترتفــع عاليــة فــوق الصحراء ، ويبدو جانبها الأعلى وكأنه مغطى بالجليد. هنــاك تقــع شــبام ، نيويــورك حضرموت، وواحدة من أكبر مدنها الثلاث ومركز لتجارتها لقرون مضت . وربما كــانت مدينة هامة حتى فى عصور ما قبل الإسلام . وتحمى مزراع النخيل أسوارها العالية مــن

الرمال الزاحفة ؛ فهي مخفية حتى أن المنظر الخلاب للمدينة العظيمة وهي تلــوح فــي الصحراء يفاجئ الشخص الغريب بعنف وهو يقترب من شبام للمرة الأولى مـــن اتجــاه القطن . لا توجد مدينة فى حضرموت مصممة بمثل هذا الإحكام وبهذه المنــازل العاليــة مثل شبام . كل المنازل تقريبا لها طابق فى السطح مطلي بالجير الأبيض ، ممــا يعطــي ذلك الإحساس الرائع بأنها تشبه الكيكة البنية اللون المحلاة بالسكر. والمدينة مطوقة بشكل ضيق بجدار عال متين، ومتداخل لحد كبير مع الجانب الخلفي من المنازل . وعلى بعــد مسافة قصيرة من الجدار يمر الطريق فوق قنطرة مشيدة من جذوع النخيل ، تمتد فــوق قناة الري الجافة، ثم تدخل إلى بساتين النخل . كل شيء مغطى بطبقة من الغبار . كــان الجفاف حادا هذه السنة ، حتى النخيل التى تعتمد على الفيضانات، لم تنتج ثمارا . ويمــر الطريق متابعا السور حول المدينة ، ثم يهبط إلى مجرى السيل الرملي العريــض ، فــي وسطه سلسلة من الآبار يجلب منها سكان المدينة الماء (٦). يهبط من هنا منحدر عريض إلى إلى بوابة المدينة المزدوجة .وتجد السيارة صعوبة فى صعود الطريق المعبــد ، ثــم عبرنا من البوابة الأولى إلى الأخرى ، التى تبعد عنها ٩٠ قدما . ووجدنا أنفسنا فى مربــع ترتاح فيه الجمال، فارتعبت من سيارتنا ، وتراجعت بأرجلها الخلفية وحاولت الفــرار ، بالرغم من عقالها وحمولتها الثقيلة . والمربع مقفول من الجانب الأيمن بقصر الســلطان الضخم العالى. توقفت السيارة عند البوابة الصغيرة نسبيا وأفرغ حراســنا بنادقــهم مــن الرصاص . ثم فتحت البوابة وسرنا مع الجنود صاعدين سلالم طويلة تمتد عبر البنيــان الأمامي وخلف الجدار الخارجي إلى المدخل الرئيسي . يعطى القصر انطباعا بالإهمــال والاتساخ . والسبب لأن السلطان يعيش فى حوطة القطن ويأتى إلى هذا القصر من وقــت لآخر ويبقى بضعة أيام ليباشر مهام الدولة . فى كل الأوقات الباقية يعهد أمره إلى الجنــود المهملين الذين يسكنون فيه .

أخذونا إلى غرفة بسيطة ، سجاجيدها قديمة مغبرة ، يجلس فيها على بساط أوربي سفري رجل شاب طويل نحيف جدا ، هو سلطان شبام ، علي بن صلاح بن محمد بن عمر بــن عبد الله بن عوض القعيطي ، ابن الأخ الأكبر لسلطان المكلا . واستقبلنا بهدوء ومــودة . كان السلطان مستاء جدا لأن حراسنا لم يعطوه إخطارا كافيا بوصولنا؛ ولو عرف فـــي

الوقت المناسب لاستقبلنا فى قصره فى القطن؛ فهو مؤثث تأثيثا مناســـبا للاســـتقبالات . حاول السيد علوي أن يعتذر ، لكن دون جدوى . فى هذا الأثناء تم استلاف كراسي مـــن المدينة وضعت فى غرفة كبيرة . أخيرا أمكننا أن نرتاح ونغسل طبقـــة الغبـــار العـــالق بأجسامنا . لكن لم نترك لوحدنا أثناء هذه العمليات الخصوصية : الجنود اليقظـــون فـــى حالة حراسة بل سمحوا لوجهاء شبام فى ملابسهم النظيفة بالدخول . فقد ســـمع أولئـــك بوصول أجانب فكانوا فى الحال فى الموقع ليعلموا عنهم كل شيء . جـــاءوا بعرباتـــهم الفارهة الجديدة ودعونا بالضيافة العربية أن نذهب معهم بالعربات إلى مدينة البستان أمام شبام ونتناول معهم الشاي فى مقصورة حديقتهم . وقبلنا بامتنان، على شرط أن يوافـــق السلطان على مغادرة سطحه المضياف فى الوقت الراهن .

(٤) استقبال رائع فى بستان المدينة سحيل شبام

كانت عائلتا "علي التوي" و"آل لجدم" على أحسن علاقات الصداقة مع السلطان ونظمـــوا معه الأمور. وفيما بعد اخترقت العربات الكبيرة الشديدة الحمرة البوابة وعبرت مجـــرى السيل فى اتجاه بساتين النخيل، التى تسمى سحيل شبام . دخلت السيارة حضرموت فقط فى السنوات القليلة الأخيرة . وقد جعل السيد أبو بكر الكاف هذا ممكنا بتشـــييد طريـــق للعربات . وتأتى أجزاء العربة المنفصلة محملة على الجمال لمسافة طويلة من الطريق .

لا يرى من الطريق إلا القليل من بساتين النخيل والمقصورات الصيفية التى تتوسـطها ، إذ تحجب أسوار الطين العالية الحدائق من حملقة العابرين . هناك استثناء واحد ، حيـــث شيدت النقطة المركزية ببناء جديد على نسق حديث . هذا هو نادى شـــباب شـــبام ، ولا تأتى النساء هنا لذلك ليس هناك شيء يخفونه . وبعد مسافة التفت العربات نحو البوابـــة التى تقود إلى حديقة آل توي وآل لجدم . هذا هو المقر الصيفي لعائلتيهما ولم يسكن بعد؛ لأن وقت الانتقال من المدينة إلى الريف قد حان لتوه . وتوجد خلف المنزل بئر ، يسحب منها الثيران والحمير الماء صافيا كالبلور ، وإن كان مالح الطعم قليلا . كل ما حول ذلك المكان أشجار الباباي والموز ،وشجيرات الرمان والليمـــون وكذلـــك النخيـــل . وتقـــع المقصورة الصيفية فى عمق الحديقة ؛ وقد كرس مضيفنا وقت فراغه لبنائها . إنها نتـــاج الخيال الحضرمي متأثرا بسنغافورة وجاوا . وفى الجدران الخارجية اســـتبدل الأبيـــض

البسيط بالأخضر الناعم والوردي والأزرق السماوي . و بـــروزت الشـــبابيك الكبـــيرة بزخارف ملونة . ويتصل مع الفيلا حوض سباحة به شرفة عالية . لكم يشـــتاق المـــرء للألوان التى تفتقد كثيرا فى هذه الأرض المشمشة ، وهذا القصر الساحر يعـــزف نغمـــة سعيدة وسط قمم النخيل الرمادية الخضراء مع لون الصخور الأصفر البني الذى لا يتغير فى الخلفية . إن المقابلة بين هذا الجزء من حضرموت وصحـــراء الراســـب الطفـــالي والرمال الملتهبة ، التى تحرق القرى الصغيرة المحتضرة ، هي بكل تأكيد مفارقة كبيرة. لكم أسفنا كثيرا إذ لا يمكننا أن نبقى فى هذه الأرض الخلابـــة إلا فـــترة قصـــيرة ، لأن السلطان ينتظرنا للعشاء فى قصره . ورجع بنا مضيفونا إلى المدينة واستأذنوا الســـلطان أن يسمح لنا بقضاء الليل معهم فى فيلا حديقتهم . ومنحنا الإذن بل إن السلطان وعـــد أن يقضى معنا اليوم التالى هناك . وتناولنا الطعام فى القصر بمفردنا. فقد أوى السلطان إلى مخدعه بعد أن دعانا أن نجلس على مائدة الطعام على الأرض . ورجعنا بعد ذلك إلـــى الحديقة على ضوء القمر . وقدموا لنا الشاي والرمان فى الشرفة . لم يكن الحديث الـذى دار بالملاوية مرهقا؛ وأشعرنا مضيفونا بأنهم يرحبون بنا ترحيبا حارا ويقـــدرون هـــذا التغيير فى حياتهم الرتيبة جدا . وعندما أردنا أن نسبح فى الحوض قدموا لنـــا ملابـــس السباحة النظيفة جدا و كذلك أمشاطا وعطورا . القمر يشع فوق قمـــم النخيـــل الداكنـــة الهادئة الصامتة، والماء صاف فاتر . وكنا نسأل أنفسنا المرة تلو الأخرى : "هل هـــذا حقيقة ؟ هل هذه فعلا حضرموت؛ المنعزلة ، المتعصبة ، الفقيرة ؟ " .

جاء السلطان على بن صلاح فى صباح اليوم التالي حسب الاتفاق ، . وبدأ على الفـــور استفسارات فاحصة حول خطة سفرنا القادمة . نحن هنا فـــي أقصـــى حـــدود منطقـــة القعيطي، ومن الطبيعي أن يثار السؤال : "ما الذى ينتظرنا عند الكثـــيري ؟" . أخبرنـــا السلطان أن تجربتنا سوف تحدد طريق عودتنا . علينا أن نذهب أولا لمقابلة سيد أبوبكـــر الكاف الشهير فى تريم ؛ فإذا وافق ويعتقد أن هناك ما يبرر الدخول فـــي المخـــاطرة ، فعندها ، سوف أعود أنا على الأقل، بأقصر الطرق ، و سيكون ذلك رأسا عبر منطقـــة الحموم إلى الشحر . وكانت نصيحة سلطان علي ضد هذا بشدة ، فالطريق خطير وســـيد أبوبكر نفوذه مالي فقط وليس له سلطة حكومية . لا ، يجب أن نعود إلى شبام، ونبقـــى

معه فى القطن ، و أثناء بقائنا هناك ، نقوم معه بزيارة لآثار الحميريين القريبة . سوف يتولى إعداد الجمال والحمير ، ويمكننا أن نعود إلى المكلا عبر وادى حوير فى ظرف ستة أو سبعة أيام . ما يقوله سلطان علي يتطابق مع النصيحة التى قدمها لنا الوزير فى المكلا وهي تمثل موقف القعيطي . لا نريد أن نتخذ قرارا فى الحال، فنحن نفضل العودة بطريق مختلف ، لكن من الجانب الآخر ، نرغب فى ترك الإمكانيات مفتوحة لرحلة العودة عبر منطقة القعيطي ، حتى لا نحرم أنفسنا من دعم السلطات هنا .

(٥) شبام El-- Djarima " العالية "

شبام بها ..٥ من المنازل الشاهقة وسكانها حوالي ...٨ نسمة . ويصل العدد إلى ...٩ نسمة إذا ضم إليهم سكان ضاحية البساتين ومساكن العمال خارج أسوار المدينة . وهناك مدرسة بها حوالي .٢٥ تلميذا ، أسسها ويصرف عليها مضيفنا . وفى المدينة نفسها خمسة مساجد كبيرة أنيقة ، وهي المبانى الوحيدة المنخفضة والمطلية كلها بالجير الأبيض. يسافر ربع السكان من الرجال باستمرار إلى الخارج لجمع المال ، يذهب الجزء الأعظم منهم إلى المكلا وعدن . وحوالي ..١ فى جاوا و .٥ فى سنغافورة . ويملك آل التوي على سبيل المثال ، عقارات فى سنغافورة ، بتافيا، وسرابايا ، وعندما تكون الظروف حسنة يمارسون أيضا التجارة . وتعيش حوالي ..٣ عائلة على عقارات الأسرة هذه . كل عقارات إخوة لجدم فى سنغافورة . والرأسمالي الشهير باسويدان ، وهو مالك أراضى كبير وله مئات المنازل فى سنغافورة وبتافيا ، هو أيضا من شبام . على أن سيؤن وتريم ، هما المركز الذى يسكن فيه الحضارم الذين أثروا فى جاوا ، و فى المدينتين يوجد العديد من رعايا هولندا.

لا يدفع السكان فى شبام ضريبة الرأس (الدقنية) مثلما هي الحال فى سيؤن وتريم . وتجبى ضريبة ربع ريال (يساوى الريال فى وقتنا روبية) على كل حمولة جمل تدخل بوابة شبام ؛ ويأخذ السلطان أيضا ٤% على مبيعات المنازل والأراضى. ويخصص ١% من إنتاج المزارع التى تروى بالأمطار لخزينة الدولة، أي أنها تذهب إلى جيب السلطان. ولا تفرض الحكومة ضرائب على الأراضى التى يرويها أصحابها بمجهودهم الخاص . يملك السلطان القعيطي فى المكلا أراضى كثيرة فى مملكته : دخله من

زارع التمباك فى غيل باوزير بالقرب من الشحر حوالي ٣٠٠٠٠ ريال فى السنة ، يمتلك العديد من بساتين النخيل فى وادى حضرموت . على أن دخله الأكبر يأتى من ومبي وحيدر أباد ، حيث له أراض شاسعة وعقارات ، ويتلقى ١٥٠٠ روبية فى الشهر من نظام حيدر أباد نظير خدماته كقائد للفرق العسكرية .

إن ثروات عائلة القعيطي الضخمة هي مصدر قوتهم . فوجود السلطة المركزية ، بالرغم من المفاسد الكثيرة ، ظاهر فى منطقتهم . وتصبح محسوسة فى أي وقت تكون ملحة وضرورية ولا تجد مشقة فى الوقوف فى وجه آل كثير ، المنقسمين على أنفسهم ويفتقدون الدعم المالي القوي .

يتلقى سلطان شبام فقط مرتبا شهريا من سلطان المكلا ، الذى تربطه به علاقات أسرية . تتكون القوة العسكرية للقعيطي ، فى زمن السلم ،من ٥٠٠٠ جندي ، منهم ٢٠٠٠ من الجنود الزنوج العبيد ويوجد منهم فى شبام وحدها ١٠٠٠ فى الخدمة المستديمة ، بينما حوالي ٥٠٠ فى الاحتياطى لساعات الحاجة . وهؤلاء يعيشون عادة فى منازل حسنة حول القطن كلها .

ويقدر السلطان عدد الناس فى شبام ، والقطن والقرى بينهما ، فى حدود ٢٠٠٠٠ .نسمة وهؤلاء كل سكان دولة شبام . ليس من بينهم قبائل البدو المتحالفين بمعاهدة مع حكومته. أطلعنا سلطان علي على الكتب عن حضرموت التى أحضرناها معنا وبعض الصور الجوية الإنجليزية. وعندها بدا جليا أن السلطان وحاشيته يعرفون القليل جدا عن البلاد خارج حدودهم الصغيرة . ولا يعرف السلطان سيؤن ولا تريم ؛ ولم يعرف أي من الحاضرين مدينة الهجرين .

رجعنا فى نفس اليوم إلى شبام، قبل مواصلة السفر ، لنلقى نظرة على هذه المدينة العجيبة. تكون الشوارع أنفاقا ضيقة داكنة ، بين المنازل العالية الرمادية المبنية فى صفوف . يوجد فى وسط الشارع مجرى صناعي تجرى فيه مياه الصرف من المنازل ، التى تتناثر فى الشوارع من البالوعات المصنوعة من جذوع النخيل . تجد القطط والحمير والدجاج ، مرتعا فى الروائح الكريهة المتخمرة . وكنا مرغمين على النظر إلى أعلى بإستمرار حتى لا تبدأ تمطر علينا رائحة كريهة من إحدى تلك البالوعات . تتكون

المنازل من خمسة أو ستة طوابق ، الطابق الأعلى فقط مطلي بالجير الأبيض ولا يمكن رؤيته من الشارع . وتقام المساجد فى الساحات وهي بحق مثل التحف المصنوعة من السكر وسط البيوت العديدة الطويلة الكئيبة التى تحيط بها . فى شوارع البازار ازدحام كبير من البائعين والمشترين . الباعة إما لهم دكاكين صغيرة أو أكشاك فى الشوارع . والأبواب والشبابيك فى منازل الأغنياء من خشب منحوت نحتا رائعا . وثقب المفاتيح الخشبية الضخمة ، التي تبدو بأوتادها الخشبية الكثيرة مثل الفرشاة ، قريبة من الباب حوالي أربعة أقدام ونصف وغالبا ما يغلق بمزلاج صغير مزين بشكل جميل (٧) . الظلام المعتم ، والحرارة الخانقة والشوارع الشديدة العفونة ، تشكل مرتعا خصبا للذباب والناموس والجراثيم الأخرى التى تنشر الأمراض .

هوامش

(١) يسمى هذا الممر المقود . وهو عبارة عن مسافة طويلة تبدأ من أعلى عند البئر وتنحدر إلى أسفل إلى مسافة طويلة حتى تصل إلى مستوى عمق البئر ، فعندما يصل السانى إلى أعلى يكون الغرب قد وصل إلى منسوب الماء فى البئر ، وعندما ينحدر السانى والحيوان إلى أسفل يصل الغرب إلى حافة البئر مليئا بالماء . ونهاية المقود عادة واسعة لتسمح للحيوانات بالاستدارة لتواصل الصعود مرة أخرى .

(٢) هذه مدرسة الهدى التى أسسها السلطان علي بن صلاح القعيطي عام ١٣٣٩ هـ . وهي مدرسة أولية للبنين ثم ألحق بها قسم للبنات .

(٣) شبام لها عدة ألقاب . من أشهرها شبام العالية ومدينة حضرموت . وقد أشار الوزير المحضار إلى اللقبين فى قصيدته التى أشرنا إليها سابقا حيث قال : جيناك يا شبام العالية ، يا مدينة حضرموت .

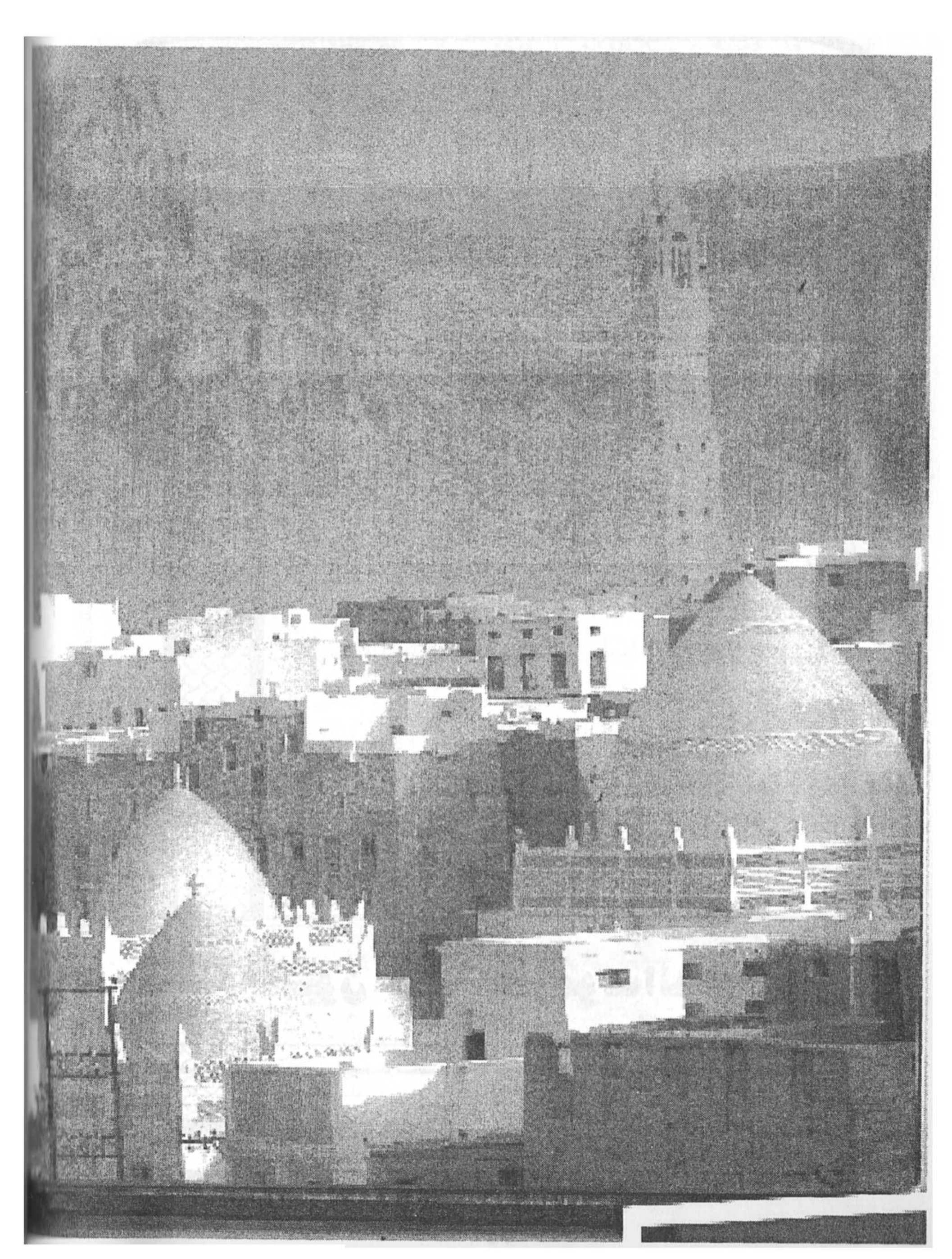
(٤) لعله يقصد قرية نهيمة التى يسكنها آل نهيم وهم فرع من آل باوزير .

(٥) يسمونه الموزع وهي تحريف لكلمة موزع ، ويقع بين العقاد شمالا وخشامر جنوبا .

(٦) زالت هذه الآبار الآن بعد توصيل الماء من حويبة على بعد ثلاثة كيلو متر من المدينة .

(٧) يسمى قليد أو قالودة وتلاشى استعماله الآن .


الفصل التاسع
سيؤن، قلب حضرموت الداخل



سيؤن

(١) التوغل داخل منطقة الكثيري

تقع حدود منطقة القعيطي مسيرة ربع ساعة شرق شبام . و هناك على البعد فوق حافة الجبل توجد قلعة ونقطة مراقبة ؛ ويوجد أيضا فى السهل منازل من مربعات طينية . تظهر النقاط العسكرية البيضاء للدولة الكثيرية فى مكان ما بعيدا على امتداد حافة الجبل . غادرنا شبام عصر الرابع والعشرين من مايو ، مخترقين الوادى الرملي مباشرة فى خط قطري اتجاه الجانب الشمالي ، الذى يصبح فيه النبات شحيحا، والحرب أيضا فى حدها الأدنى . على عكسه الجانب الجنوبي غير الآمن . هنا فى الشمال ، يتابع الجنود خطواتنا بدقة حيثما توقفنا لأخذ صور . القرى مبنية قبالة سفح الجبل، وتوجد فى النقاط العالية أنقاض تحصينات . تبعنا الحافة ودخلنا مرة أخرى بساتين النخيل ، لكنها على أي حال بائسة وفى طريقها إلى الزوال فى الرمال التى تحتضنها. ثم سرنا عبر تلال رملية مغطاة بنوع من حشائش الساحل . عندما اقتربنا من سيؤن كان علينا أن نخترق بطن الوادى مرة أخرى ، إذ يقع هذا المكان فى الجانب الجنوبي . الماء متوفر هنا ، وأيضا فى بطن الوادى ؛ لكنه مر جدا . والتربة بالقرب من هذه البرك الراكدة مغطاة بطبقة من الملح الأبيض .

تقع سيؤن داخل حزام عريض من بساتين النخيل الرائعة ومزارع الذرة . يصل منسوب الماء من ثمانية عشر إلى عشرين قدما فقط تحت السطح ؛ وطعمه مالح ، لكن يبدو أنه مناسب جدا لري البساتين . لم نر من قبل أشجارا مزدهرة ويانعة ، و ذرة نموها بهذا الارتفاع ، كما رأينا فى هذا الجزء من البلاد . و أصبحت عناقيد التمر ناضجة بفعل الرياح الساخنة، وتغطت العناقيد الآن بالسلال الواقية . يقال إن سيؤن أرقى وأكبر مدينة فى حضرموت . وتستحق لقبها "الطويلة" ، لكن يمكن أن تلقب أيضا "النظيفة" أو "الجميلة". فالمنازل منخفضة وصغيرة ومتباعدة عن بعضها ليس مثل تلك التى فى شبام. كما أن المياه القذرة والأوساخ الأخرى لا تنهمر بشكل عشوائي فى الشوارع إنما تمر فى بالوعات مغطاة أو مكشوفة على امتداد الجدران الخارجية للمنازل إلى برك تصريف صناعية محكمة الغطاء . صحيح الشوارع ضيقة ؛ حتى أن سيارتنا كانت تنفذ منها أحيانا بصعوبة ، لكن الضوء كاف ولا توجد روائح كريهة . وعلمنا عند بوابة القصر السلطاني

الضخم أن السلطان تنتظرنا فى المقر الصيفي المسمى "عزالدين" . لكم أصبحت سيؤن مدينة البساتين هذه قريبة إلى قلبى ؛ كثير من العائلات الثرية تعيش فى قصورها المحاطة بالبساتين طوال العام . وبعد أن عبرنا بوابة فى سور من الطين ، صعدنا بالعربة ساحة كبيرة محاطة ببناء طويل أبيض من طابق واحد فقط . وتبرز قمم أشجار النخيل من حافة مصطبة السطح الشاسع ، وجزء كبير منه مغطى بالسجاد ، هناك كان ينتظرنا سلاطين سيؤن وتريم وهم محاطون بمستشاريهم .

(٢) سلاطين سيؤن وتريم وبلاطهم

علي بن منصور بن غالب بن منصور الكثيري ، سلطان سيؤن ، رجل قصير وممتلئ الجسم ، وله عين واحدة ، لكنه ينظر بها إلى ضيوفه بمودة زائدة . وكان أخوه وأبناؤه الصغار ضمن الحشد الكبير الذى تجمع هناك ؛ وكذلك محمد بن منصور الكثيري ابن أخ سلطان تريم ، وهو شاب طويل نحيل وبشرته داكنة جدا . وسلطان تريم دائما مع عمه فى سيؤن ؛ ويقع قصره الصغير الرشيق قبالة قصر عمه تماما؛ وهو أكثر جمالا من قصر إقامته الرسمي .

فى منتصف مصطبة السطح غرفة مفتوحة من كل الجوانب ، لكنها ظليلة أثناء اليوم ، حيث تقدم وجبات الطعام . لاحظنا أننا نقترب من تريم وصفائها الحضاري من الماء المثلج الذى كان يمر علينا فى حافظات ثلج ضخمة. وسيؤن هي موطن كثير من الحضارم الذين راكموا ثروات فى جاوا ومناطق المضيق. وكان استقبال السلطان مفعم بالمبالغة الشرقية حيث قال : "أنت فى الواقع سلطان هذه البلاد ، فأكثر من نصف سكانها تابعون لهولندا" ، و فى هذا بذرة من حقيقة ، لأن سيؤن متأثرة بإندونيسيا بشكل كبير. ألا يتحدث حاشية السلطان دائما بالملاوية ؟ ألا يسمع المرء هذه اللغة من أفواه الأطفال فى شوارع المدينة ؟ وقد دخلت كلمات مختلفة من جاوا إلى اللهجة العامية . والوجبات التى تقدم وجبات جاوية أصيلة من الأرز (rijsttafel) . حتى الخيول القليلة فى سيؤن مستوردة من غرب جاوا . وحسب ما ذكر السلطان ، توجد حوالي ثلاثين امرأة جاوية جاء بهن أزواجهن ولن يعدن أبدا إلى بلادهن . ويمكن ملاحظة اختلاط الأجناس من الوجوه ومن ملامح الأطفال فى الشوارع .

تدفقت المناقشات منسابة ولم تقاطع إلا بالصلاة والوجبات . يواجه السلطان مشاكل كثيرة من أعدائه الذين يعملون من خلف ظهره بمساعدة الأموال المجلوبة من جاوا ، فلا غرابة إذا كانت له طلبات كثيرة وكلام كثير يريد أن يقوله لمبعوث هولندا . وسوف يكون مسرورا إذا حصل على مساعدة هولندا ليقهر أعداءه فى جاوا . فإذا صدر مرسوم من حكومة هولندا يهدد بعقاب كل من يساعد حركة ثورية فى بلاده ، سوف يعتبر كافيا هنا .
دار حديث مطول خلال الأيام التالية حول هذا الموضوع ومواضيع أخرى متصلة به . أثير فيما بعد سؤال آخر فى تريم بين دائرة السادة، خاص بالصراع بين السادة الحضارم والحضارم الذين لا ينتمون إلى هذه الطبقة المتميزة ، واعتبروا أن حكومة هولندا تتبع خطا محايدا جدا وديمقراطيا جدا (١) . وعلى الرغم من المناقشات الحامية والخلافات العميقة فى وجهات النظر التى برزت إلى السطح ، فإنها لم تعكر بأي حال حرارة الضيافة ، فوجدنا هنا مرة أخرى تجربة مدهشة . كما طلب منا أيضا بلا استثناء أن ندلى بانطباعاتنا عن حضرموت . كان هذا الطلب بغرض سماع رأينا حول انعدام الأمن القانوني ، وفقر الناس المدقع ، وتخلف البلاد في مجال التعليم والطرق والري . وكانت محاولاتى بإبعاد نفسى خارج اللعبة بعقد مقارنات بين الأوضاع هنا وفى بلدين عربيين تعرفت عليهما وهما الحجاز واليمن ، ورغم أن مقارناتى كانت تتابع باهتمام ، إلا أنها لم تخدم غرضى . ففى النهاية يقوم السلطان أو أحد مستشاريه ، بسؤالنا مباشرة عن رأينا فى حالة الأوضاع هنا . عندها لا يمكن تحاشى الإجابة ، فننفجر فى صراحة معبرين عن خيبة أملنا حول انعدام الوحدة وحالة الحرب وهما عار على القادة الحضارم ، الذين عرفناهم فى جاوا رجالا مقتدرين ونشطين ومواطنين مسالمين . ثم أقول لهم عليهم ألا يبحثوا عن مساعدة من الخارج ، سواء من إنجلترا أو هولندا ، أو من أي دولة أخرى يتوقعونها ، بل عليهم أن يبحثوا عن الوحدة فى أنفسهم ويشمروا أيديهم إلى المحرات بثقة فى النفس ؛ وبعد ذلك ، وبعون الله ، سوف ينجحون فى وضع حد لكثير من الأوضاع المشينة فى بلادهم . ورددنا هذا بإيقاعات مختلفة فى أجزاء كثيرة من منطقة الكثيري ولم نلاحظ أن ذلك أفسد علاقاتنا الممتازة بأقل درجة .

ما إن يلمح السلطان رغبتنا فى الراحة ،حتى يعطى إشـــارة بالانســحاب ، فيتبــع كــل الحضور مليكهم وسيدهم خارج الغرفة ، ما عدا بعض الخدم . الذين يتجمعون مبتـــهجين حول الساموار ، ويستمر تقديم عدد لا حصر له من أكواب الشاي إلى وقت متأخر مـــن الليل ، ولا يخطر ببالهم أننا نحن الأوربيين ربما لا نريد سماع القصــص التــى تحكــى والأغانى التى يترنمون بها . كانت ليالي لا تنسى تلك التى قضيناها فوق مصطبة السطح الكبير فى "عزالدين"، حيث يلتمع القمر فوق قمم أشجار النخيل حولنا وتضـــىء النجـوم فوقنا سماء الجزيرة العربية .

دعانا السلطان يوم ٢٥ مايو إلى جولة بالسيارة عبر بساتين سيؤن . وتهادت العربتان بين بساتين محاطة بأسوار من الطين ؛ اختفت المنتجعات الصيفية البيضـــاء وســط أشــجار النخيل بعيدا عن أعين الفضوليين . أخذونا إلى حائط الجبل حتى نتمكن من رؤية ســيؤن الجميلة جيدا ، فتسلقنا التل على منحدرات حطام الصخر . فالتمعت المدينة وهي تقع عند سفح حائط الصخر ، فأعطت بذلك انطباعا مترفا . ويقف قصر السلطان فى أعلى مكــان فيها ، وهو أفضل نموذج يمر علينا لفن المعمار الحضرمي للقصور . و كــل مصــاطب السطوح والغرف المبنية فوقها مطلية بالأبيض . وفى بقية المنازل شريطان أبيضان فـــى خط مع النوافذ ، بينما منافذ التهوية محاطة ببرواز أبيض . أركان المبنى الضخم الطويلـة المستطيلة ، محصنة بأبراج زينة مستديرة . تصبح جدران الطين السميكة فـــى الأعلـــى رفيعة أكثر مما هي فى الأسفل ، لذلك فالجدران الخارجية ليست عمودية ، إنما تنحـــدر نحو الداخل، مما يعمق الانطباع بالقوة والجمال فى المبنى . ويقوم القصر فوق مصـــاطب مشيدة فى جدران داخلية ، بها منازل حراسة عنـــد البوابـــات ، ومخـــازن بـــارود ، و إسطبلات، ومساكن الجنود . وعلى بعد مسافة قصيرة يقع القصر الأنيق ، وكله مطلـــي بالأبيض ، لكنه أصغر لحد ما من قصر سلطان تريم .

تقع المقبرة تقريبا فى وسط المدينة وبها خمسة قبور لأولياء تعلوها قباب مهيبـــة تكريمـــا لهم. وتبرز العديد من المآذن فى المدينة فوق بحر المنازل ، لتذكرنا بأن سيؤن كانت فـــى وقت ما قاعدة شهيرة للدين والعلم . وتتصل المدارس عادة بالمساجد ومازالت هي الحالة

مع بقاياها القليلة . وتحيط بالمدينة حافة عريضة من بساتين النخيل ، تتخللها المنازل الصيفية البيضاء هنا وهناك . ومنازل آل السقاف بارزة نسبة لعددها وحجمها .

أرغمتنا الشمس على مغادرة التل الصغير العارى ، لكن وعدنا السلطان بجولة أخرى مماثلة فى المساء. سنلتقى مرة أخرى على الغداء فى قصر سلطان تريم ، الذى يستضيفنا اليوم .

كانت الحرارة عالية جدا عندما غادرنا مدينة البستان واتجهنا إلى القصر . واستقبلنا مضيفونا فى ممر عريض، وهو المكان الوحيد الذى به نسمة باردة . فرش الممر بسجاد جميل ، وفى أحد جوانبه منضدة حولها كراسى ، وفى جانبه الآخر مساند على السجاد . بدا الاستقبال على الكراسى ، لكن ذلك لم يستمر طويلا . فسرعان ما جلسنا كلنا على الأرض . واتكأنا على المساند كما هي العادة هنا . وتناولنا الطعام فى قاعة بها صفان من الأعمدة . فلا يمكن الحصول هنا على عوارض السقف الطويلة القوية ، حيث الخشب نادر وقصير ؛ فلذا كل الغرف الكبيرة بها أعمدة يرتكز عليها السقف . فرشت قطعة قماش طويلة على السجاد فى وسط الغرفة . وجلست المجموعة الكبيرة حولها وسيقانهم متعارضة تحتهم ، ومع كلمات قليلة وإيقاع سريع ، أخذوا يلتهمون وجبة الأرز الجاوي الجيد الطهي الذى وضع أمامهم.

بدت الغرفة خالية إلا من الزخارف على جدرانها ، من مرايا ، ونسخ من لوحات إنجليزية قديمة ، وصور فوتوغرافية من جاوا وسنغافورة وساعتين على الحائط بهما أجراس موسيقية .

تناولنا الشاي فى غرفة استقبال صغيرة بها أثاث حديث . إن الجديد فى حضرموت أقل درجة فى أدائه من الناحية العملية من القديم الأصلي . والطقس حار جدا هنا ، فحمدنا الله جميعنا عندما انفض اللقاء .

أخذنا السلطان فى العصر بسيارته إلى سهل شاسع حيث ينحسر حائط الجبل . يريد أن يستنير برأينا حول مطار يريد إنشاءه هنا . ستكون الطائرة وسيلة مواصلات مثالية بالنسبة لكل الجزيرة العربية ، خاصة لحضرموت . فالمسافات ليست بعيدة فحسب ، و الاتصالات ليست شاقة ومساحات الأرض شاسعة وماؤها غالبا ليس شحيح فحسب ، بل

فوق هذا فإن هذه الحروب الداخلية التى لا حصر لها تجعــل الحركــة خطــرة وترغــم المسافرين على سلوك طرق ملتوية جدا . لذا فالحضرمي قل أن يعرف بـــلاده جيــدا . أخبرنى حضرمي عالم عرفته من قبل بصدق تام قائلا : " أنا أعرف كل براكيـــن جـــاوا وكل المحطات فى خطوطها الحديدية الرئيسية ، لكنى لا أستطيع أن أعطيك معلومات عن الوديان والجبال التى تبعد بضع ساعات من موطنى " . أما سلطان سيؤن فاستثناء إيجابي نسبي عن هذه القاعدة فقد زار عدن ؛ ذهب إلى هناك لحضور مؤتمر عقدتــه الســلطات البريطانية ، حيث تمت محاولة للوصول إلى تسوية سلمية للخلافات بين الحكام القعيطييـن والكثيريين . وله الرغبة ليرى أكثر عن العالم، بما فى ذلك جاوا ، فثلاثة أرباع رعايـــاه لهم فيها مصالح .لكن عبور الحاجز القعيطي هو الصعوبـــة الكبــيرة، لـــهذا فالطـــائرة ضرورية. والموقع لمطار المستقبل الذى شاهدناه مناسب تماما .

تم لقاء مرة أخرى فى المساء فى مصطبة سطوح "عزالدين " . والموضوع الذى طـــرح للنقاش هو فقر حضرموت وكيف يمكن الخلاص منه . إن منسوب الماء فى سيؤن ومـــا حولها ليس عميقا ، وهو السبب في وجود بساتين نخيل يانعة ومزارع ذرة . لكن لا بـــد من زيادة إمداد الماء إذا كان له أن يدفع الناس حقا إلى الأمام . لن يتحقق هذا بمضخـــات الماء، لأنها مكلفة جدا من الناحية العملية . فالمضخة فى هينن تعمل ثمان ســـاعات فـــى اليوم لتروى بضعة أفدنة من الذرة و ٢٠٠ شجرة نخيل ، وهذا يكلف جازا وزيوتا للتشحيم أكثر مما يعود به محصول الأرض المزروعة . التربة فى سيؤن أفضل والماء أقـــرب إلى السطح ، وأثبتت التجارب هنا أيضا أن مضخة الماء غير مجزية . هل يمكن تحســين الأوضاع بواسطة آبار ارتوازية ؟ طلب منا السلطان أن نساعد بإرســـال خبــير ومعــه المعدات الضرورية . وقال إنه فى وقت من الأوقات فى أيام مملكة الحميريين ، لا بــد أن حضرموت كانت مزدهرة . فقد أنشئت خزانات ري ضخمة لتجميع وتوزيع الماء . مـــا عاد هناك جهد موحد ، فأصبحت الخزانات حطاما وخرابا، والآن ، فى كل سنة، هنـــاك كميات من المياه التى تمنح الحياة تنساب إلى البحر وتذهب هدرا. وقـــد فحصـــت هـــذه المسألة مرة أخرى فيما بعد فى تريم بشكل شامل .

تحدد يوم ٢٦ مايو لمغادرتنا إلى تريم . وضعوا تحت تصرفنا فى الصباح ، عربات لتمكننا أن نأخذ جولة فى المدينة وما حولها ونأخذ صورا فوتوغرافية . واغتنمنا هذه الفرصة شاكرين ، فقد مكنتنا من وضع سجل بالصور لبعض المنازل الأنيقة والمناظر لهذه المدينة التى تقع وسط غابة من النخيل فى وسط الصحراء . وعندما كنا نأخذ صورا لمنزل السقاف فى المدينة كان من المستحيل أن نتحاشى دعوة السيد هود السقاف بإصرار لنتناول معه كوب شاي، ووعدناه بتلبية دعوته حال ما ننتهى من أخذ الصور. ولا يمكننا أن نمر على المقبرة دون أن نأخذ لقطات لبعض المقابر وقبابها ذات اللون الأخضر وجمالها الذى يخلو من المباهاة . هناك عدد من المساجد الصغيرة فى منظر خلاب . وتعطف السلطان وسمح لنا بالتمتع بجمال سيؤن من فوق سطح قصره . الملاحظ هنا فى هذا القصر النظام والنظافة التى تكاد تومض فى وجه الزائر . إن القصور بشكل خاص ، التى بها مساكن للجنود وللعديد من الزوار ، يكون الوضع العكسي فيها هو الغالب . ومضى بعض الوقت قبل أن يخطر النسوة فى الممرات والسلالم بقدومنا . وعندما أنجز هذا بنجاح تهادينا عبر ممرات الطين الخاوية وصعدنا درجات السلم المتساوية المشيدة تشييدا جيدا إلى السطح الأبيض المشع . هنا شاهدنا أروع منظر فى حضرموت . بذلت تريم جهدا كبيرا فى قصورها الفخمة لتتساوى مع سيؤن ، لكن هنا الرشاقة ، هنا التنوع البهيج للخضرة العميقة، والحدائق المترفة والمنتجعات الصيفية الأنيقة ، وهنا التمسك بالأسلوب الحضرمي نقيا ومتجانسا .

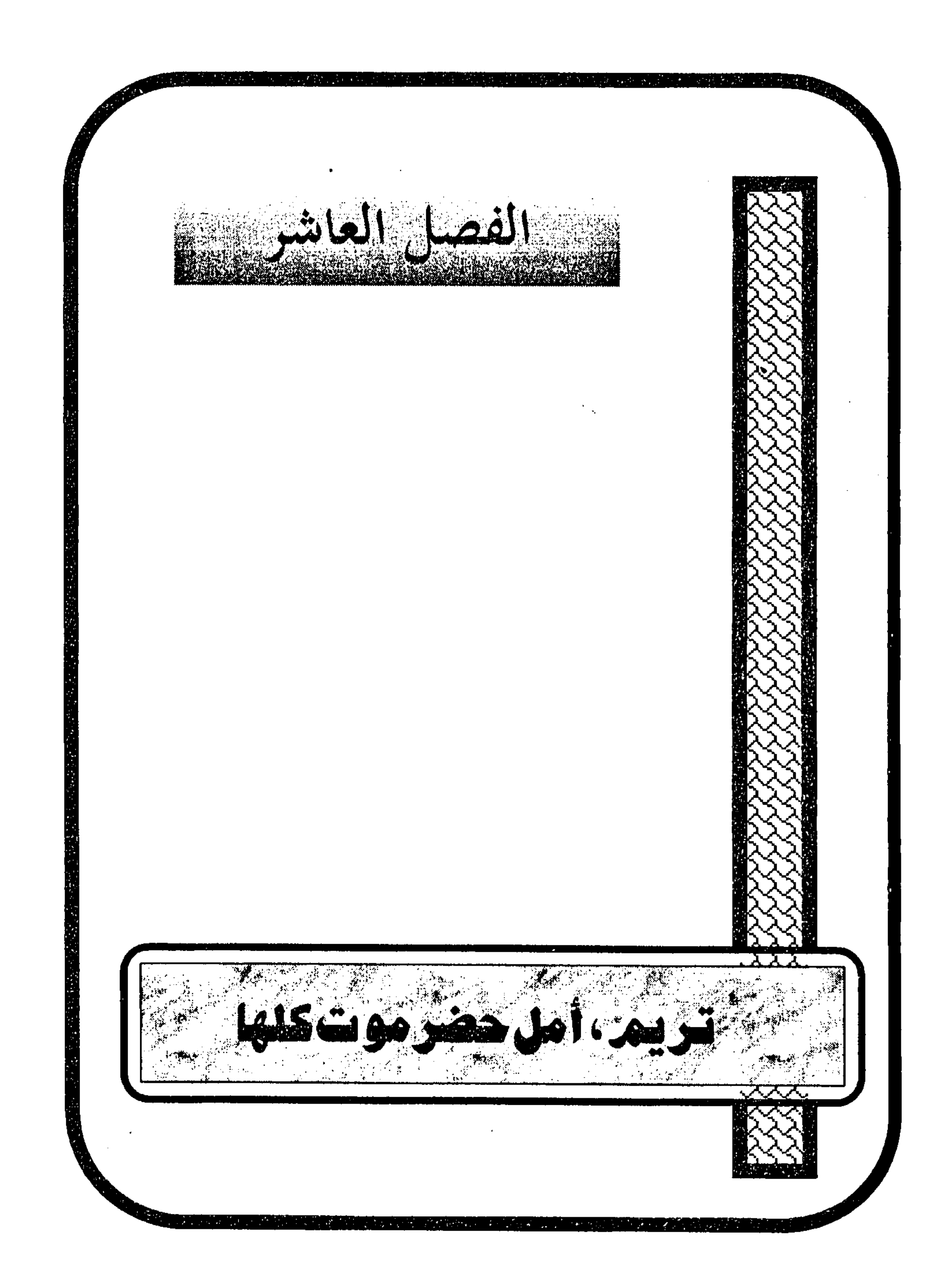
كان كوب الشاي ينتظرنا فى منزل سمي النبي العظيم هود . استقبلنا سيد هود السقاف بشعره الأشيب بمودة فائقة وقادنا إلى غرفة ، فى منزله الملوكي المشيد بالطين ، و اختفت قطعة القماش المفروشة على الأرض تحت صحون الفطائر والحلوى والفواكه المعلبة . بل قدم لنا سيجارا هولنديا مع كوب الشاي الجاوي الممتاز . كان ذلك تعبيرا عن عرفان كبير للمعاملة الممتازة التى قدمتها حكومة غربية مسيحية. كانت زيارتنا إلى سيد هود قصيرة ، لكن كل لحظة فيها كانت مفعمة بضيافة حميمة .

ودعنا سلطان سيؤن فى العصر، وكذلك أبناءه ، وأخاه ، ومستشاريه وخدمه ، وأيضا سلطان تريم وأخاه ، ونحن نردد " إنشاء الله نلتقى مرة أخرى " . ووقفنا جميعنا على

سلالم مدخل "عز الدين" الأبيض : لقد سار اللقاء الأول مع الحكم الكثيري بشكل ممتاز جدا. خرجنا به من المناقشة بانطباع هام هو أن الحالة السياسية فى بلادهم أبعد من أن تكون مثالية ، هم يشعرون أيضا بهذا ويرغبون فى تحسينه من كل قلوبهم . لقد عرف وجهاؤهم عن كثب بلادا تحكم بشكل جيد مما يجعلهم تواقون لوضع حد لنزاعاتهم ، وللأمن والقانون ، من أجل سلامة الإنسان، ومن أجل توحيد الجهود لحرث الأرض لتحقيق التقدم فى البلاد ، ولفتح الطرقات للاتصال بالعالم الخارجي ، الذى يسير قدما دون أن يزعج نفسه بحضرموت الراكدة . وحتى الحكام والوجهاء يسمون بلادهم باستمرار أرض النعاس ويضيفون : "النوم مثل الموت " . الشيء الأولي الضروري للتحسين موجود من قبل : إنهم غير مقتنعين بالأوضاع القائمة ، والعناصر النشطة بينهم شاهدت أوضاعا مختلفة فى الخارج . إن التعصب الذى يغلق بلاده عن العالم الخارجي ، من أجل الحفاظ على دينه وعلى قداسة تربته من الانتهاك ، أصبح من الممكن التغلب عليه أكثر فأكثر . إن السادة أنفسهم ، حماة العقيدة وأرض الأجداد ، هم أكثر العاملين بجد لإزاحة الحواجز التى تحيط ببلادهم .

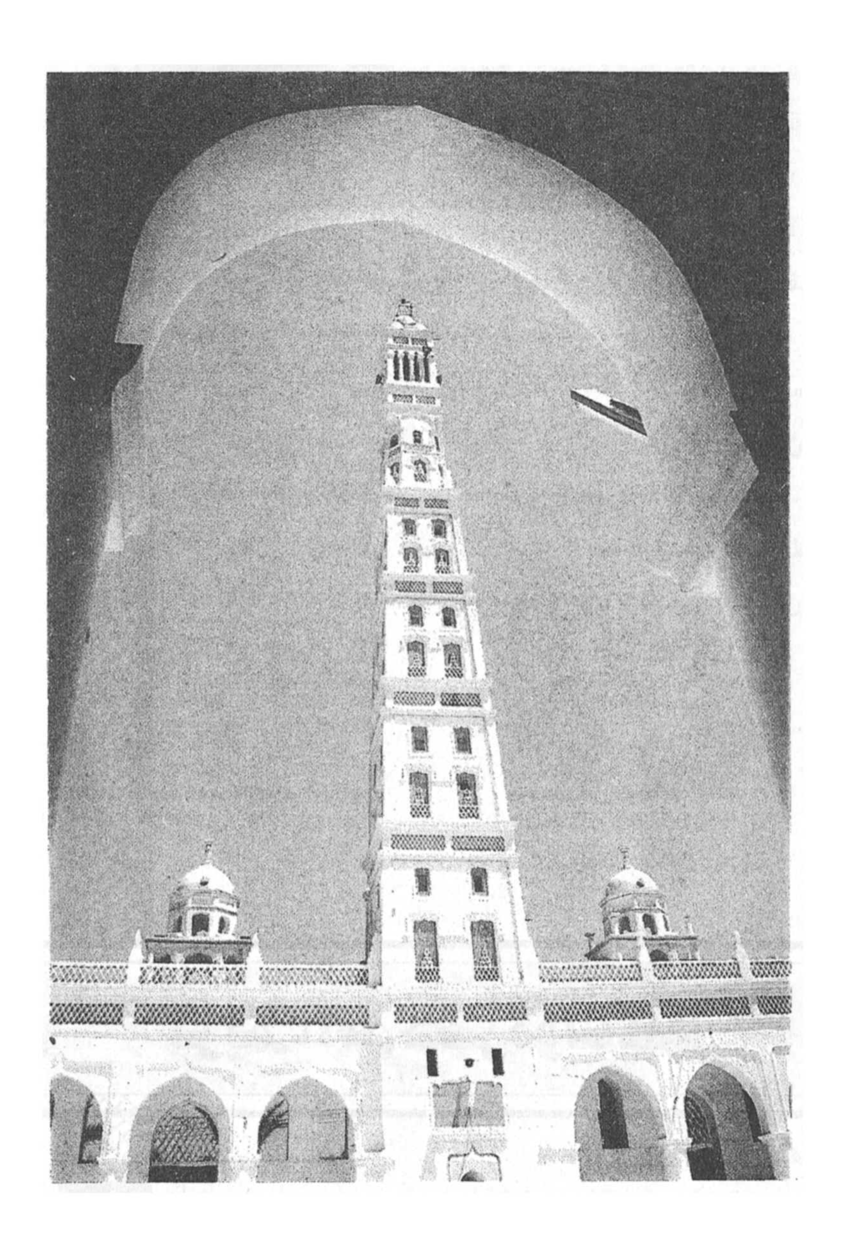
هوامش

(١) يشير هنا إلى الصراع العلوي الإرشادي فى اندونيسيا ، الذى كان له أثر على العلاقات الاجتماعية والسياسية فى حضرموت .



الفصل العاشر

تريم، أمل حضرموت كلها



كنا قد سمعنا من قبل في منطقة القعيطي باسم السيد أبوبكر الكاف ، ويذكر اسمه دائما مصحوبا بالاحترام، والآن دخلنا منطقة نشاطه(١) . لقد سخر سيد الكاف طاقته ، وحبه، وكل ممتلكاته لخدمه بلاده وشعبه. ونموذجه دعوة قوية للوحدة ولطرح المصالح الشخصية والحساسيات جانبا من أجل الصالح العام . فالمدارس التى تبرع بها ومازال يصرف عليها ، تنتشر فى كل أنحاء البلاد . وقد خصص سلاطين القعيطي والحكام منازلهم لها، وسوف يخترق نفوذ هذه المدارس الصغيرة بالتدريج كل البلاد .(٢) ومشروعه الثانى المثير ، الذى سيكون له أهمية قصوى بالنسبة لمستقبل البلاد ، هو تشييد طريق للسيارات من وادى حضرموت إلى الساحل . رغم أن الطريق لم يكتمل بعد ، إلا أن أثره بدأ يكون محسوسا . وقد تم قهر العقبات الصعبة حتى تتمكن العربات من الوصول إلى وادى حضرموت ، بالرغم من أن الترحيل ما زال مكلفا . وعندما تعبر أول سيارة ، فسرعان ما تتبعها أخريات ، وسوف تجد السيارات تقديرا خاصا فى هذه البلاد لأن السفر فيها مرهق وبطيىء . والحضارم الذين حققوا نجاحا فى الخارج لا ينقصهم المال . فعندما تظهر السيارات فلن تختفى مرة أخرى ، عندها سوف تتغير الأوضاع داخل حدود حضرموت تغيرا كاملا . و بدأ تشييد الطرق فى الوادى نفسه دون إبطاء ، ووجد سائقو العربات والميكانيكيون طريقهم إلى هناك . وظهر أثر المضايقات التى تسببها الحروب الداخلية بشكل واضح وفعال ، وسوف يدعم السيد أبوبكر دخول العربات ضمن العمل العظيم الذى يقوم به لتهدئة حضرموت وفتح سبلها .

غادرنا على سيارتين أنيقتين يمتلكهما سلطان سيؤن إلى تريم ، المدينة التى سبقنا إليها "ليو هيرش" قبل أربعين سنة وأرغمه تعصب السادة وكراهيتهم للمسيحيين على الهرب منها بعد ساعات من وصوله . وقبل عام كامل من مجيئنا ، وصل رجل إنجليزي "مستر بوسكاوين "(Boscawen) ، لكنه لم ينشر وصفا لرحلته ، وذكر حسب ما جاء فى التقريو أنه جاء من أجل السياحة . وفى إحدى المرات حلقت عاليا فوق المدينة طائرات سلاح الطيران الملكي البريطاني ، بقيادة المقدم كوشران والمقدم ليك والملازم طيار ريكاردز ، لكنهم كانوا يقومون باستطلاعات جوية ، على الرغم من أن الطيارين أنفسهم كانت لهم

رغبة قوية ليضعوا أقدامهم فى هذه الأرض الرائعة . يقول الحضارم عنها: "تريم ولا تروم غيرها " .

سارت بنا العربات فوق ممرات طينية متعرجة عبر الامتداد الهضبي من الرمال والراسب الطفالي الذى يقع خارج المدينة . تزرع فى الرمال أشجار النخيل على مسافات بعيدة من بعضها البعض ؛ وانتهت مزارع الذرة لكن مازالت السدود الصغيرة تشاهد لمسافة طويلة بعد ذلك فى المنطقة التى يمكن أن تزرع عندما تأتى أمطار كافية. وسرعان ما عبرنا على أنقاض مدينة "مريمة" ، ولعلها من ماضى بعيد . لقد أصبحت القلعة والمدينة حطاما بعد حرب محلية ، ولم يبق من زراعة الأرض إلا السدود الصغيرة التى تقسم المزارع إلى مربعات . يوجد بالقرب من "مريمة" طريق قديم يتجه جنوبا فوق حائط الجبل . وتسلق رفيقى هذه العقبة التى تسمى "دقم الأسود" ووجد على جدار الصخر بالقرب من الجول رسومات ونقوش ربما صنعها البدو العابرون بقوافلهم قبل قرون عديدة مضت . اختفت القرى وبساتين النخيل بعد مسافة عند سفح جدار الجبل الجنوبي . وتلاشى الراسب الطفالي تحت طبقة سميكة الكثافة من الرمال وكثبان الرمال فوحلت السيارات عدة مرات. كان السلطان قد نصحنا بأن نتفادى الطريق المألوف إلى تريم وأخذنا بنصيحته ، لكن تابعنا طريق الجبل الذى شيده السيد الكاف . عندما دخلت العربات إلى حضرموت قبل سنوات خلت ، كانت تريم فى حرب مع القرى فى الوادى، وكان من الصعب عبور هذا السهل الطويل . لكن السيد الكاف لا يستسلم لأي حرب مهما كانت وبمجهود كبير ونفقات كثيرة شيد طريقا فوق الصخرتين البارزتين اللتين تفصلان تريم عن سيؤن .

كان سلطان سيؤن فخورا بهذه القطعة من الهندسة الحضرمية لذلك أصر أن نسلك هذا الطريق . من الصعب على سائقي السيارات عبور الوادى عند هذه النقطة ، و تحاشى المرتفعات والمطبات ، ثم الوصول فى النهاية إلى طريق الجبل المتعسرج عند قاعدة الصخرة . يظل الطريق الضيق الشديد الانحدار صاعدا إلى أعلى عكس منحدر حطام الصخر، تستطيع السيارات الصغيرة فقط أن تلتف بلباقة عند الزوايا الحادة . تتوقف السيارة فى منتصف الطريق لتبرد وليأخذ السائق فرصة ليسترد أنفاسه، و نحتاج نحن

أيضا لنستجم من التوتر . فالهبوط من الجانب الآخر للحافة بانحدارها الحاد ربما كان أكثر صعوبة من الصعود . كان على السائق أن يعتمد فقط على الفرامل ويبدو أنه غير قادر على تقليل السرعة بأن يترك السيارة تنطلق بالترس المنخفض دون زيادة البنزين . كنا قد اقترحنا ذلك، ولكن يبدو أنهم لا يثقون فى اقتراحاتنا ، فسرعان ما أصبحت الفرامل ساخنة فكان لابد من تبريدها بالماء الذى حملناه معنا فى القرب . وتم قهر السلسة الثانية من الصخور دون حادث مؤسف؛ على أنى افضل الهبوط على الأقدام.

(١) " تريم – ولا تروم غيرها "

شاهدنا أول منظر لتريم من حافة الصخرة التالية . فهي تقع فى السهل الصخري القاحل جدا .وشريط الأرض المزروعة أضيق من مثيله فى سيؤن ولا يبدو عليه وفرة النمو والخصوبة ، لكن العدد الكبير من الأماكن المربعة الكبيرة كان ظاهرا من الوهلة الأولى . وهي ليست رمادية وبيضاء كما فى سيؤن ، بل خليط من كل الألوان الزاهية . أحدها كله أزرق اللون ، مما جعله بارزا جدا ؛ فى البعض الآخر يطغى الأصفر والوردي . وهنالك مئذنة عالية جدا ، مربعة وليست مستديرة ، مطلية بلون أزرق خفيف ، ترتفع عالية فوق أشجار النخيل والمنازل. تريم كمدينة ، شيء بذاتها . هي مدينة العديد من الأغنياء : يمكن ملاحظة ذلك حتى من بعد .

يقود الممر الجبلي إلى سهل مغطى بجلاميد صخر صغيرة . يوجد طريق جيد يبدو أنه استعمل كثيرا ، يتجه رأسا عبر منطقة السهول إلى بوابة تريم . ويحيط بالمدينة سور طيني يبدو أنه حديث التشييد ، به ثكنات عند البوابة وحصون على الأركان فى حالة جيدة، ويضم فى داخله بساتينها ومقبرتها ، ويصعد عاليا إلى جدار السور على الجانبين . الحرب ظاهرة عادية حول تريم وتحتاج المدينة إلى حماية قوية . وتولى السيد أبوبكر الكاف تشييد وصيانة الأعمال الدفاعية للمدينة، وتحمل نصيب الأسد فى النفقات .

ما إن عبرنا البوابة ، حتى قادنا الطريق عبر مقبرة مصانة جيدا ، بها ثلاث قباب تكريما لرجال صالحين دفنوا فيها ، وكذلك مسجد صغير . بعد أن عبرنا شارعا ضيقا ملتويا ، وصلنا إلى منزل السيد أبوبكر الكاف ذي الشهرة الواسعة . المنزل كبير لكن لم يكتمل بناؤه بعد . اجتزنا بوابة طينية إلى الحديقة ، التى يقوم فيها العمال بالبناء بأدوات تستعمل

فى الأبنية الطينية ، كان الفقراء ينتظرون الصدقة ، والزوار فى غدو ورواح . قادونا إلى الجناح الجديد ، إلى غرفة استقبال مؤثثة على النسق الغربي ، هنا قابلنا مضيفنا وحاشيته المعتادة من الرجال .

(٢) قضينا أياما جميلة مع السيد أبوبكر الكاف وعائلته وأصدقائه

السيد أبوبكر الكاف فى منتصف العمر ؛ لبسه أكثر بساطة من زواره وأقاربه . ولا يحب أن يظهر فى المقدمة فكان يحدق فينا فى البداية بجد وبعين فاحصة ، يقول القليل ، لكنه يدفع بالآخرين إلى الأمام . والطبيب الهندي الشاب ، الذى جاء به قبل عام كان أول طبيب تلقى تدريبا غربيا يعمل فى حضرموت ، و أوكل إليه استقبال الزوار الأوربيين(٢). فكان هو والسيد علوي العطاس رفيق رحلتنا، يتناولان الطعام معنا دائما ، ويجلسان بجانبنا على المائدة ، بينما يجلسْ السيد الكاف والضيوف العرب حول المائدة على الأرض ، حسب عادة البلاد .

كانت دهشتى كبيرة أن ألتقى مرة أخرى ، فى هذا المحيط ، مع السيد محمد بن هاشم بن طاهر ، وهو عالم حضرمي ، لعب لفترة طويلة دورا هاما فى مجالي التعليم والصحافة فىْ جاوا(٣). أما السيد عمر بن شيخ بن عبد الرحمن الكاف ، الأخ الأصغر لمضيفنا ، الذى كان يستجم فى تريم من نشاطه التجاري المرهق فى سنغافورة ، كان يزورنا يوميا فى المنزل(٤) . وضعت تحت تصرفنا غرفة كبيرة فى حجم صالة لننام ونعمل فيها . وتركت لنا حرية تامة، فعندما نريد رفقة الناس نذهب إلى المجلس ، الذى يتحول بعد الغروب إلى ساحة واسعة تفتح عليها غرفتنا . هناك تقدم وجبة العشاء ، وتقرأ الصحف ، مع العديد من أكواب الشاي المنعشة ،وتقال أشياء كثيرة نستمع لها .

كان من عادة الأعضاء العديدين لعائلة الكاف العظيم أن يقوموا بجولة بالسيارة عند المغيب فى ضواحى تريم ليستنشقوا هواء منعشا فى هذا الفصل الحار من السنة . ويؤدون فيما بعد صلاة العشاء معا فى منزل أو حديقة أحد أفراد الأسرة . و من عادة الشباب اللقاء فى حديقة السيد عمر ، التى بها حوض سباحة كبير يجدد ماؤه دائما من مضخة "ديوتز"(Dÿeutz) -- منسوب الماء هنا ٤٥ قدما تحت السطح -- فكانت مركز جذب. فأصبحنا مع الطبيب الهندي الشاب ، أعضاء منتظمين فى المجموعة . لا يُشجع

دفء الماء على الاستحمام ، لكن عندما تتعرض أجسامنا المبتلة لهواء المساء الجاف يسبب بكل تأكيد أثرا باردا منعشا . هناك بالطبع خادم مع السماور ، يقدم أكواب الشاي، وهو شيء مفضل دائما في هذه البلاد بحرارتها الجافة . ويقدم من الحدائق أكثر التمور نضجا؛ وهي حلوة لكنها قابضة جدا . ثم يتعود الأجنبي ببطء على هذا الطعام غير المألوف ، وهو غير شهي في البداية . على أننا سرعان ما تعودنا الاستمتاع بالتمر وهو ما يزال قويا وطازجا .

كان الاستحمام في ضوء القمر رفاهية ليست في الحسبان ومتعة جميلة لنا في هذه البلاد . توجد مصلاة في أحد الجوانب قريبا من حوض السباحة ، وفي الجدار محراب يوضح القبلة ؛ أي شيء فيه مسحة ضياء ، لون ناعم ؛ و خطوط الجدران والسقف محلاة بأشكال وحواشي زخرفية ، ويكاد المرء ينسى أن المادة التي صنعت منها طين بني عادي. قضينا وقتا طويلا مع الشباب في مودة أخوية. وانطلقوا على سجيتهم الآن حيث لا يوجد أفراد الأسرة الكبار . وتجرى مباريات السباحة والغطس بحيوية دافقة ، حتى يحين وقت صلاة العشاء ، فتؤدى بالخشوع المناسب . الأمسيات في المنزل فوق السطوح الواسعة دائما جذابة ؛ حيث يبقى حتى ذلك الوقت فقط الأصدقاء الحميمون، ويطرح مضيفنا أسئلة توضح جليا أن أفكاره دائما منصبة نحو بلاده وشعبه ، و البحث عن سبل تطويرها .

تعرض تشييد الطريق إلى الشحر لصعوبات جمة . يمر جزء كبير من الطريق بمنطقة بدو الحموم ، الذين اشتهروا بحبهم للقتال ، فوقع معهم السيد الكاف إتفاقا -- بعد أن دفع لهم بسخاء -- وتعهدوا أن لا يعارضوه إذا التزم السيد أبوبكر بأن لا يسمح باستعمال الطريق إلا للمسافرين بالسيارات، و يترك نقل البضائع لجمال البدو . بقي جزء بسيط لم يكتمل عبارة عن مسيرة ثلاثة أيام بالجمال . يتوقع السيد أبوبكر نشوب صراعات كثيرة بين البدو في المستقبل ، لذلك يفكر في إمكانية تدشين خدمات للطيران بين تريم والشحر . فمنذ أن رأى الطائرات البريطانية تناور فوق تريم ، وسمع بالانطباع العميق الذي تركته هذه الطيور المجهولة الضخمة على البدو ، نما لديه اقتناع أن الطائرات هي الوسيلة الحاسمة التي يمكن أن تخضع البدو للنظام وتبقيهم تحت قبضته . فلا يمكن مقارنة

الطائرات بالسيف والبندقية ، والوديان ليست عقبة أمامها ، ولا يوجد موقع فـي الجـول الأجرد يمكن أن يفلت من عين الطيار الفاحصة . يرى السيد أبوبكر أن برهانـا عمليـا واحدا ، يوضح الآثار الرهيبة التى تحدث من إلقاء قنبلة واحدة من طائرة ، تكفى لوضـع حد للحروب البدوية التى استمرت لعدة قرون ، وسوف تكون هذه أول خطوة نحو تقـدم حقيقي للبلاد(٥) . ونصحناهم -- بالرغم من أنهم يعرفون الطائرات الهولندية الفوكـرز فى جاوا والأنواع الشبيهة ، مثل الجنكرز فى اليمن -- أن يستشيروا السلطات البريطانية فى عدن ليدبروا لهم نفس الأنواع التى يستعملونها .

قمنا بجولات بالسيارة فى عصر الأيام التالية فى ضواحى تريم ، لـنرى المكـان الـذى يصلح مطارا . واختار رفيقي بخبرته الموقع الموضح فى خريطة تريم ، على الشرق من "الحاوى"، به فقط جزء بسيط يحتاج إلى تسوية ؛ فهو قريب ومتصل بالمدينة وليس قريبـا جدا من حائط الجبل بانحداره الحاد ، كما أن التضاريس الأخرى قيد البحث. وبناء علـى طلب السيد أبوبكر قام فون فيسمان بوضع خريطة كروكية للمهبط المقترح ومـا حولـه، لتقديمها لحاكم عدن عند التشاور معه حول إمكانية السماح للطيران الملكـي البريطـاني بالهبوط فى مثل هذه الأرض . كان صديقنا الحيوي السيد حسن العطاس من حريضة، قـد عمل مع بعثة الجنكرز فى اليمن ، وسوف يوكل إليه عمه السيد أبو بكر فى النهاية تنفيـذ مشروعات الطيران هذه .

أخذونا فى صباح اليوم الأول لوصولنا لمشاهدة ما يسمى "بقرة الوحش" ، وهـي هديـة للسيد أبوبكر من بعض البدو الذين قبضوا عليها صغيرة عند حدود الربع الخالي . يبـدو أن بقرة الوحش أنتلوب (نوع من الظباء) أبيـض بخطـوط سـوداء وقرنيـن طويليـن مستقيمين. لقد عاش الحيوان الضخم الجميل فى الأسر اثنتي عشرة سنة ، ويبدو فى حالـة جيدة ، ما عدا حوافره التى نمت طويلا نتيجة لانعدام الاحتكاك.

وجدنا فى الإسطبلات فى الطابق الأرضي لمنزل السيد أبوبكر، بعض الحجارة بها نقوش، أحضرها البدو من أنقاض "سون" . و لفت هذا انتباهنا نحو منطقـة الأنقـاض ، ووعـد مضيفنا أن ينظم لنا رحلة إلى هناك .

(٣) قصور تريم

قمنا فى ما بعد بزيارة للسيد عمر بن شيخ الكاف ، الأخ الأصغر لمضيفنا ، وقد أشـــرنا إليه من قبل ، وقد انتهى لتوه من ترميم منزله ، يقال إنه أجمل منزل فى تريم ، ويكـــثر الحديث عن القصور فى هذه المدينة . منزله ملفت نسبة لاتســـاعه وألوانـــه . الجـــزء الخارجي مطلي بأزرق غامق ، وزين صف النوافذ الطويلة الفخمـــة وحواشـــيها بلـــون أصفر. استعمل كذلك اللون الوردي والأخضر . أما الأسلوب فهو هندي أكثر ممـــا هـــو حضرمي كل المنازل الفخمة فى تريم لها سمات خاصة بها لا يشاهدها المرء فـــى مـــدن حضرموت الأخرى . فهي ضخمة ، ومربعة الشكل ، وبها صفوف طويلة من النوافـــذ ، وامتدادات السطوح محدودة والزخرفة قليلة فى أعلى الجـــدران والشـــرفات . والطـــابق الأرضي فخم جدا ، ويوجد به عادة مدخلان عاليان بالقرب من أبواب التيك ، تقود إليـــهما سلالم من طين. يمكن ملاحظة علامات الاتصال الوثيق مع البلاد الأجنبية خارج وداخـــل هذه القصور، بالذات مع سنغافورة وأيضا جاوا ،. مثال ذلك ، يبدو أن الممارسة الســـائدة هنا هي استيراد الأبواب جاهزة من جاوا وسنغافورة . إن ترحيل هذه الأبـــواب الثقيلـــة وبراويز الشبابيك هو بكل تأكيد مكلف وشاق ، لا بد من اختيار أقوى وأضخم الجمـــال ، لكن كمية الأخشاب فى حضرموت قليلة وأنواعها رديئة ولا يمكـــن أن تكفـــى للمبـــانى الضخمة الجديدة فى تريم فى زمن قصير كهذا . مثل هذه النفقات الزائـــدة محتملـــة لأن تكلفة بقية المبنى فى حضرموت قليلة . فالعمالة رخيصة فى هذه البلاد الفقيرة المكتظـــة بالسكان . حتى الفنيين من الدرجة الأولى ، بما فى ذلـــك المهندســـون المعمـــاريون ، لا يحصلون على أكثر من أجر يومي معتدل جدا . والمادة الرئيسية المستعملة فى البناء هـــي الطين ، الذى يحصلون عليه فى أي مكان قريب من المنزل الذى سيبنى (٦). وبما أن كل شيء مبلط بطبقة من الطين، فيمكن استعمال أي أغصان ملتوية من النبـــق والأعشـــاب الصحراوية لتشييد السطح ولتفاصيل مشابهة . وتستعمل جذوع أشـــجار النخـــل أساســـا للسقف والأعمدة . رأينا أعمدة وعوارض من خشب فى القلاع القديمة المتداعية فقـــط ؛ تتخلل هذا الخشب بلونه البني الغامق المنحوت ، أغصان شقت إلى جزئين منسوجة مـــع بعضها ، ومطلية بالأحمر الغامق والأبيض والأسود وهي بلا شك جميلة جدا ؛ لكن نســبة

لقلة الأخشاب ، اضطروا للاستعانة بجذوع النخل . السقوف والأعمدة وعمدان السقف ، مبلطة بالطين ، ثم تطلى مرة أخرى بألوان زاهية ناعمة . لهذا فالمبانى الجديدة تعطى انطباعا مبهجا ومشرقا ، لكن اختفى شيء من الجمال القديم .وأصبح البناؤن بارعين بحق فى التعامل مع الطين والجير الأبيض . واستطاعوا تحويل الأعمدة المصنوعة من جذوع النخل ، كأنما بلمسة سحر ، إلى أعمدة مستديرة قوية المنظر ولها تيجان أنيقة فى رؤوسها.

النظافة الفائقة ظاهرة جدا فى بيوت الأغنياء . يجرى التصريف من المراحيض والمطابخ عبر قصبة عمودية إلى أماكن مخصصة لها فى الطابق الأرضي ، لكن لسوء الحظ يتسرب إليها الضوء مما يجعلها مستنقعا لتكاثر الذباب. والحمامات وكذلك المراحيض موضوعة جزئيا فى الخارج مثلما فى الهند الشرقية . توجد فى العادة صهاريج لماء الحمام ، يغرف منها الماء للاستحمام . ويمتلك مضيفنا ثلاجة ضخمة توفر الماء البارد لعدد من الضيوف وسكان المنزل، وأضافت الفاكهة واللحم اللذيذ الطيب صفاء ومتعة رفيعة .

تأثر الطبخ فى تريم وسيؤن تأثرا كبيرا بسنغافورة وجاوا . يقوم الطباخون الصينيون بإعداد كميات كبيرة من وجبات الأرز التى يستمتع بها يوميا عشرات الزوار . ويستورد الكثير من الطعام المجفف والمعلب من جاوا . وتزرع بعض أنواع الخضراوات فى بساتين تريم ؛ والفواكه الطازجة التى تقدم فى المائدة هي بطيخ بيضاوي وتمر طازج . وبما أن الأخير قليل نوعا ما ، فإن تمر العام الماضى يقدم فى المائدة بعد أن يعد فى شكل عجينة مثل كعك الرغيف الذى يوضع عليه السكر.(٧)

منزل السيد عمر الكاف ، مثل منزل مضيفنا ، نصفه مؤثث على النسق الأوربي . فهناك كراسى متأرجحة هندية من الطراز القديم فوق سجاد جميل . ويزين غرفة الاستقبال الكبيرة ، سرير معد بالطريقة الجاوية . وفوق السرير مفرش وردي وليس أبيض . وعلى الجدران العديد من المرايا كذلك صور لعقارات الأسرة فى الهند الشرقية . يمتلك السيد عمر فندقا أوربيا ضخما فى سنغافورة ؛ وأطلعنا بزهو -- ولاعجب -- على نموذج لفندق جديد يعطى انطباعا بالفخامة الأمريكية . والجدران مزينة فوق ذلك "بمـيزر"(٨)

وببنادق أمريكية ، وهي مما يصعب الحصول عليها فى هذه البلاد، لذلك قيمتـــها كبــيرة جدا. وقد شد انتباهنا من قبل أن الجنود الكثيريين أفضل فى لبسهم من القعيطيين . عـــدد الجنود المحترفين أقل هنا ، وعنصر العبيد السود غائب تماما . والســـادة أنفســـهم غــير مسلحين فى حضرموت(٩)، لكنهم يشيدون مخازن كبيرة لبعض البنادق المـــيزر الجيـدة وكميات كبيرة من الذخيرة .

(٤) أعلى مئذنة فى حضرموت

ذهبنا فى العصر بصحبة ابن مضيفنا والطبيب ، وصعدنا أعلى مئذنة فى حضرموت . لا يعرف أحد طولها الحقيقي ؛ قدرناه ب : ١٥٠ قدما (١٠). من المؤسف أن هذه المئذنـــة مبنية على النسق الحديث. المآذن الحضرمية الأصيلة مستديرة وتضيق قليلا عند القمــة، ويزينها طوق وحيد من شيش ؛ وفى قمتها عمدان صغيرة تقف عليها القبة. و يبرز اللون الأصفر الشاحب ، واضحا عكس السماء الداكنة الزرقة وفوق أشــجار النخيـل بألوانــها الرمادية الخضراء . لكن هذه المئذنة مربعة وملونة بالأزرق والأبيض ؛ وبها العديد مـــن النوافذ الصغيرة وتزينها حواشى رمادية. وهي تضيق أيضا عند القمة ، حيث هناك سلالم لولبية من الطين لا تناسب إلا الأشخاص النحاف . وفى القمة أيضا قبة صغيرة بها أعمدة يقف عليها السقف .

تمتد أمام أعيننا من هنا بانوراما رائعة وسط الواحة الخضراء المنمقة ، وقصورهـــا ذات الألوان الزاهية ، وحدقنا فى الفضاء نحو سهول الوادى الشاســـعة الرمليـــة الجـــرداء ، وجدران الجول الداكنة المتداعية ، يرى المرء من هنا بوضوح أن تريم مدينة لها بعــض الامتداد ، كثير من المنازل الضخمة العديدة ، جديدة ما زالت فى طور التشييد. و تشــكل مقبرتها ، بقبابها الثلاث فوق قبور الرجال الصالحين ، فضاء شاســـعا . المســـاجد هنـــا كثيرة، تتميز بمآذنها ذات الأشكال المختلفة ، إما عالية أو قصيرة أو مستديرة أو مربعة . وتقف القلعة القديمة فى وسط المدينة القديمة فوق رابية . كنا نشعر أثناء قيامنا بـــالتصوير والمسح وعمل الاسكتشات ، فى المكان الضيق الذى نقف فيه أننا نتأرجح برفق إلى الأمام والخلف. لم يكن شيئا مبهجا أن نفكر من ذلك العلو الشاهق أننا نقف فوق ســطح الأرض على برج رفيع مصنوع فقط من طين جاف

(٥) أنقاض صغيرة خارج تريم

خلال الجولة العائلية بالسيارة فى المساء، حيث يتجول آل الكاف وصحبهم فـــى موكــب يسير الهوينى عبر بساتين تريم وسهول الصخر المحروقة التى تقع خارجها ، أشاروا إلى تل فى وسط وادى "عيديد" ، الذى يقال إن له ارتباطات تعود إلى عـــهد عــاد . يظـــهر بوضوح من مسافة معينة طريق قديم معبد ، يقود إلى قمة التل ، حيث يعتقد أنه كان بـــه معبد . لا يرى الآن فوق التل سوى صخور مهلهلة بينها هــاون ؛ وفـــى قاعدتـــه بقايـــا أساسات مبان، يبدو أنها تشير إلى بيت ضيافة بغرفه العديدة الصغيرة . هذه الأنقاض لـــها مكانة مقدسة بالنسبة لأهل تريم ؛ هناك بالقرب تل صغير ، يذهب إلية النساء اللائى لـــم يلدن كمكان للعبادة ، حيث يقمن ببعض الطقوس الليلية التى يأملن بها أن ينجبن .

(٦) جولة داخل تريم

ذهبنا فى اليوم التالي ، الثامن عشر من مايو ، مع الدكتور لنرى منزله وعيادته . مهمـــة هذا الرائد لعلم الطب الغربي هنا ليست يسيرة ؛ فمازال الناس متمسكين بأفكارهم القديمـــة حول الطريقة التى يعمل بها جسم الإنسان وأسباب الأمراض . يعتقدون أن المرض لـــــه ثلاثة أسباب : هي الريح ، البرودة ، والحرارة . ويقولون إن الأطعمة هي التى تـــؤدى إلى برودة الجسم وحرارته أو تسبب أو تزيل النفاخ . حتى الرجــــال مـــن ذوى الشـــأن يتحدثون عن علتهم بنفس التعابير ، فكان على طبيبنا أن يكيف نفسه مؤقتا معها ويحــــدد الرغبات بشأن الغذاء ، على أمل أن ينمو فهم أفضل وثقة أكبر . لذلك فإن نتيجة عملـــــه باعتباره الطبيب الأول والوحيد فى حضرموت ليست كبيرة كما يتوقع الإنســـان . حتـــى السيد أبوبكر نفسه لم يقتنع تماما بقيمة الطب الغربي ليستجيب للمتطلبات التى لا تنتـــهى من أدوية ومعدات يحتاجها الطبيب لأداء مهمته . وكان أول ممرض رجل عربـــي مـــن إحدى مدن الساحل الإفريقي ، الذى افتقد السينما والمقاهى إلى درجة أنه هرب سريعا من مكان العقاب هذا ، ليعود إلى المدينة ليستمتع بنعم الحضارة الغربية . فانصب كل العمـــل على الطبيب وحده .

خصص للطبيب بناء ضخم من الطين ليكون مستشفى . وفيه سكنه، و الصيدلية ، والعيادة وبداية غرفة للعمليات . وهناك شاب من أسرة الكاف كان يعمل مساعدا لطبيـــب أســـنان

مصري عمل هنا من قبل لعدة أشهر ، خصصت له غرفة وبها معدات حديثة ويمارس فيها طب الأسنان .(١١)

حسب رواية الطبيب فإن حضرموت تبدو بلادا صحية . لكن ينتشر مرض العيون بين الطبقات الدنيا، وتظهر الملاريا أيضا فى فصل الخريف . سوف يعتمد مصير هذه البداية للخدمات الصحية على براعة وإخلاص هذا الطبيب الشاب وقدرته على تحمل البقاء .

سرنا بعد ذلك مع الطبيب فى جولة نتفقد فيها معالم مدينة تريم . كان من الطبيعي أن نذهب أولا لزيارة معالم تريم القديمة ، وهي على حدود المنطقة السكنية من المدينة ؛ وتتكون من هضبة منخفضة جرداء على قمتها خرائب قلعة كانت فى يوم ما كبيرة وشامخة . توجد فى مثل هذه القلاع آبار لماء الشرب . هذه الآبار عميقة جدا لأنها محفورة من قمة الهضبة إلى داخل ساحة القلاع . وشاهدنا من قمة هذه القلعة المحطمة منظرا كاملا لتريم الغنية بمساجدها ، وقصورها و ... المقبرة . الحديث الشائع في حضرموت أن المدينة بها ٣٦٠ مسجدا . أخبرنا أحد آل الكاف أن بينها ٢٠٠ صالحة للاستعمال و ١٦٠ متداعية دون أمل لإصلاحها . أما صديقي السيد هاشم فيقدرها ٦٠ صالحة و ٣٠٠ منهارة ؛ وهذا بلا شك أقرب إلى الحقيقة .

سكان تريم بكل تأكيد حوالي ١٢٠٠٠ ، لأن مضيفنا لديه قوائم بالأسماء لعلاقتها بحصص الطعام الذى يوزعه على الجماهير . على ذلك لا بد أن يكون سكان سيؤن أكثر من ذلك ، أي بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ نسمة .

ذهبنا بعد القلعة لزيارة تريم الجديدة . شيدت هناك ضاحية جديدة بأكملها ، جزء منها للعاملين مع آل الكاف . لم نجد بين الأماكن التى زرناها حتى الآن مثل هذا المكان الزاخر بالحياة والتوسع . ويتشكل فى تريم مجهود واع ومدروس جيدا ، لتصبح المدينة فى فترة وجيزة المدينة الأولى فى حضرموت . الكاف وتريم هي الأسماء التى نسمعها فى كل مكان حيثما تناقش التزامات أو مشاريع جديدة .

سرنا عبر الضاحية الجديدة حتى وصلنا سور المدينة ، الذى يصعد منحدر الجبل عند هذه النقطة حتى يصبح صعب التسلق . هناك قلعتان بجنودهما لتقوية نقطة البداية هذه للأعمال

الدفاعية للمدينة. ويشرفان من علوهما على نصف الجدار الصلب المصان جيدا و يحتوى المدينة وبساتين النخيل فى خطوط مستقيمة .

إنه يوم الخميس ، يوم توزيع الطعام على الفقراء . فعندما عدنا إلى المنزل ، كان الشارع والساحة أمام منزل مضيفنا مسودة من النساء والأطفال والرجال المسنين ، كلهم ينتظرون حصة الأرز والدقيق المخصصة لهم . وتستمر عملية التوزيع لساعات . يقوم الخدم بتوزيع الحصص ، ويقوم آخرون بمراجعة وإمضاء قوائم طويلة من الأسماء . وكان الجنود والبدو من منطقة القعيطي الذين رافقونا يحدقون بدهشة بلهاء إلى هذا التصدق المسرف . وحالما يعودون إلى بلادهم سوف ينشرون على نطاق واسع ويضخمون حكاويهم الحية عن شهرة الرجل نبيل النفس السيد أبوبكر الكاف . لهذا فإن آمال وتطلعات أعداد متزايدة من الناس تتجه نحو تريم[١] . وإذا كان السيد أبوبكر يسعى إلى سلطة سياسية، فلديه الفرصة لتحقيق الوحدة والسلام فى مناطق الكثيري التى تمزقها الآن حرب ضروس.

هوامش

(١) ولد السيد أبوبكر بن شيخ الكاف فى ثمانينات القرن التاسع عشر فى سنغافورة . كان والده واسع الثراء ، له عقارات وتجارة ، ورثها ابنه أبوبكر من بعده . ثم انتقل السيد أبوبكر إلى تريم وانغمس فى السياسة وفى المشاريع الاجتماعية القومية مثل التعليم والصحة والمواصلات وفى الأعمال الخيرية . وكان ينفق بسخاء . انتقل أخيرا واستقر فى سيؤن . وكان يلقب سلطان حضرموت غير المتوج . وفى عام ١٩٤٥ أنعمت عليه ملكة بريطانيا بلقب سير .وتوفي عام ١٩٦٥ عن عمر جاوز الثمانين .

(٢) عندما زار المستر قريفث عميد معهد التربية فى بخت الرضا فى السودان حضرموت عام ١٩٣٨ ليضع تقريرا لتطوير التعليم فى البلاد اتصل بعدد من الناس منهم السيد أبوبكر الكاف . فقال عنه : "أما السيد أبوبكر بن شيخ الكاف عميد اسرة آل الكاف التى تمتلك حسا اجتماعيا عاليا فينادى بالتعليم الحديث على أساس قيمته الوطنية ، كما يرى أن التعليم الحديث مصدر منفعة للبلاد حيث يساعد على كسر الحزازات القبلية وينمى روح التعاون والخدمة الاجتماعية " .

(٣) ذكرنا اسمه من قبل وهو : محمد عمر حياة

(٤) عمر بن شيخ الكاف أخ السيد أبوبكر من أبيه . أمه صينية . وهو أصغر أبناء السيد شيخ الكاف . إستقر أخيرا فى تريم وتوفي بها.

(٥) رأي السيد أبوبكر هذا هو الذى طبقه الإنجليز بعد توقيع معاهدة الاستشارة عام ١٩٣٧ ، وأخضعوا به القبائل لسلطة الدولة المركزية.

(٦) راجع هامش (٣) الفصل الرابع للمزيد عن مادة البناء المستعملة فى حضرموت .

(٧) يسمى هذا التمر المرزوم

(٨) الميزر من أوائل الأسلحة النارية التى دخلت حضرموت وراج استعمالها فيها ، حتى ذكرها كثير من الشعراء الشعبيين فى قصائدهم . والاسم مأخوذ من اسم المصنع الألماني الذى ينتجها . وجاء ذكرها فى الشعر الشعبي من ذلك قول أحد الشعراء :

حيا قروحك يا الميازر   حيا قروحك أمات ردة

(٩) يروى عن سبب عدم حمل العلويين للسلاح أن الفقيه المقدم جد وعميد العلويين فى تريم أفتى بعدم حمل أو اقتناء العلويين للسلاح إيمانا منه بوجوب السلام وأنه لا يجوز أن يقتل العلوي أحدا بالسلاح .

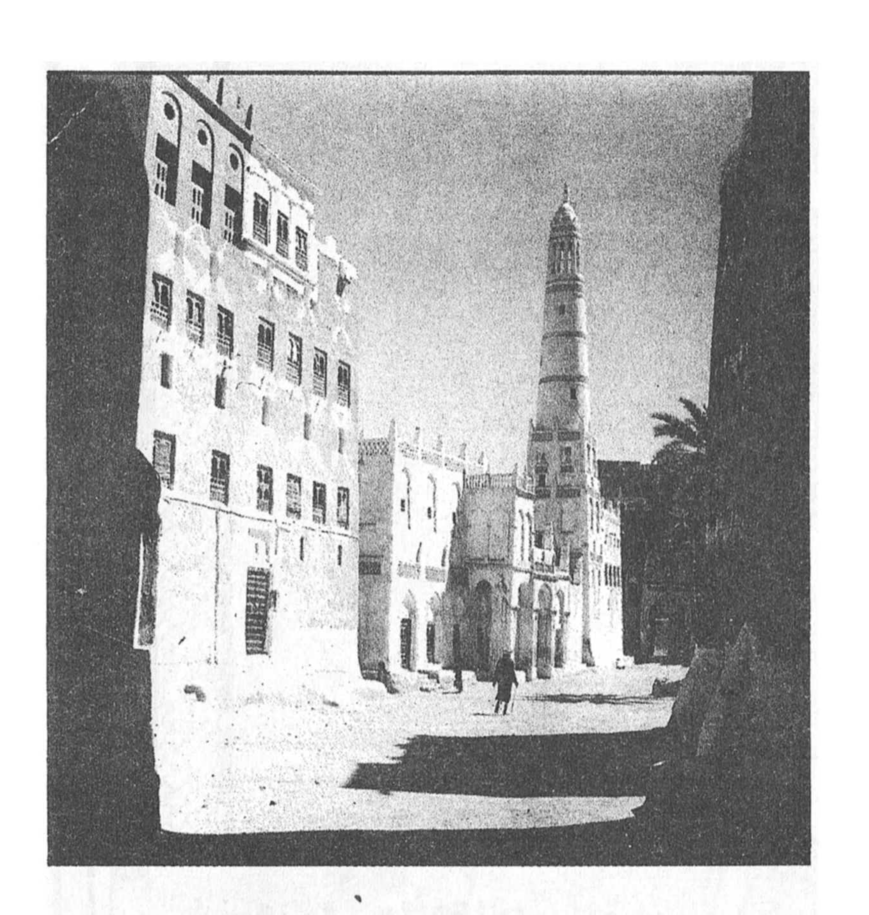
(١٠) تسمى منارة المحضار نسبة للسيد عمر المحضار الذى تكفل ببنائها عام ١٨٢٣ . وتقع فى قلب تريم . ويقال إن الذى شيدها هو المعلم عفيفى. وهي أطول منارة فى اليمن. وبها سبعة طوابق ، وارتفاعها ١٧٠ قدما ، وبها ١٥٢ سلما ولعل هذا ما جعل الكاتب يقدر إرتفاعها بأنه ١٥٠ قدما .

(١١) اسم الطبيب شيخ عبد الرحمن الكاف ، وعمه السيد أبولكر . درس الطب فى القاهرة .



صورة لمدينة سيئون


الفصل الحادي عشر
رحلة الى الأنقاض بالقرب من سيوة



سيئون

فى مناقشات إحدى الأمسيات ، طرحنا السؤال حول خطط أسفارنا القادمة . ضحكوا في البداية فى ريبة وقالوا إن الطقس الآن حار جدا للسفر أثناء النهار : وهم أنفسهم يخرجون من المنازل نحو المغيب. وعندما قلنا لهم إننا لا نستطيع أن نفهم كيف أن قادة العمل التجاري الكبار فى سنغافورة وجاوا وأولئك الرجال الذين لعبوا دورا بارزا هناك في التعليم والصحافة ، يمكنهم أن يحتملوا هذه الحياة الخاملة ، أجابوا : "هذه أرض النوم والموت . لقد جئنا هنا لننام ونحن نسير نحو نهاية عمرنا، حتى نموت هنا " . إن سهول الصخور الجرداء الرتيبة ، وجدران الصخور ، وصحارى الرمال، وبساتين النخيل المخضرة دائما ، والحرارة الملتهبة ، وطبيعة حضرموت الهادئة تجعل الإنسان يفكر بحق فى النوم والموت . لكن ما زال يملؤنا قلق الغرب ، وأدركوا رغبتنا الجادة في رؤية المزيد من البلاد، بالرغم من الحر والظمأ وبالرغم من الصعوبات المتوقعة بكل تأكيد من البدو . كان هدفنا الكبير أن نرى قبر هود وبئر برهوت ، لأن الأول حرم مقدس كبير فى حضرموت يحج إليه الآلاف كل عام ، والثانى لأن القصص المثيرة تروج منذ قرون خلت حول بئر برهوت ولا يمكن لأحد أن يقول بالتأكيد ما هي فى الواقع "فم الجحيم" هذه. وقد وعد السيد أبوبكر بمساعدتنا . فالرحلة إلى قبر هود وبئر برهوت تحتاج إلى أيام للاستعدادات لذلك رأينا من الأفضل أن نقوم أولا برحلة مبسطة ونزور الأنقاض في وادي سون .

غادرنا تريم فى فجر الجمعة ٢٩ مايو فى عربتين . كنا فى العربة الأولى مع السيد هاشم والطبيب ، الذى يأخذ عطلته يوم الجمعة . والعربة الثانية مشحونة بالبدو المسلحين ، وهم من القبيلة التى سنعبر أرضها . تنتهى محافظة تريم بعد حدودها مباشرة . وأشاروا لنا إلى حصون القلاع الصغيرة فى الأركان والتحصينات ، حيث كان إطلاق الرصاص مستمرا حتى عام مضى . توضح حالة القرى والحقول المهملة أن الازدهار قد أوقفته الحرب . بعض تلك القرى تحت حكم السيد العيدروس ، وبعضها الآخر مستقل ، أي أنها تخضع للقبائل التى تقع فى منطقتها وليست تابعة للدولة ، حسب التعبير السائد .

يسير الطريق فوق واد رملي إلى وادى "عدم" العميق ،الذى يبدو أنه مروي بالماء بدرجة لا بأس بها، حكمنا على ذلك من النبات الكثيف على ضفتيه ومن بساتين نخيله الجيدة .

هنا تقع قرية المسيل ، وهي مسقط رأس العالم الحضرمي الجاوي السيد هاشم . وقد تلقى رئيس القرية تعليمات من السيد أبوبكر ليوفر لنا وجبة منتصف النهار ، لذلك وجدناه يقف على استعداد بأوانيه وبالشاة التى ستذبح. توقفنا لما يكفى لأخذه مع الشاة وأوانى الطبخ، ثم واصلنا السير مرة أخرى عبر منطقة رملية بها تلال، وقرى ومزارع متناثرة . وكلما ابتعدنا فى السير أصبحت القرى أفقر؛ والبساتين مروية جزئيا والمنازل فى حالة خراب . وتقلص عدد الرجال من الحروب القبلية، والفقر والجوع يقتلان الآن البقية .

وجد سائق السيارة صعوبة فى العثور على طريق سهل العبور بين تلال الرمل . وصلنا أخيرا "رضيح"، قرية السيد العيدروس ، حيث كانت تنتظرنا الحمير . يعتقد السائق أن العربات يمكن أن تسير أبعد إذا ساعدنا بدفعها من وقت لآخر . وأجبرنا أن نخترق مجرى السيل الرملي مرة أخرى . ومن الضرورى بذل مجهود كبير لإخراج العربات من الرمال الناعمة ، ثم يصبح السير بعد ذلك ممتعا فوق سهول الراسب الطفالي وعبر الوديان . نضطر فى بعض الأحيان أن نحفر للصعود أو الهبوط ، لكننا كنا مستعدين لذلك: كانت معنا معاول ورفش . ونجحنا في الوصول بالسيارات قريبا من موقع الأنقاض عند " هضبة الغصن " ، بالقرب من قرية سون . عبرنا قبيل وصولنا ، على قطعة ضخمة من جدار مصنوع من حجارة طبيعية كان موصلا بالتأكيد فى الماضى بجدار الصخر . والمفترض أن يكون بقايا سد شيد عبر الوادى ويعود إلى عهود ما قبل الإسلام .

هناك أشياء كثيرة مشتركة بين الأنقاض فى سون وتلك التى فى ريبون . فما زالت أساسات المباني المربعة، المصنوعة من قطع ضخمة من الحجارة غير المتساوية ،تظهر فوق قمم الجبال . وتتناثر حجارة أصغر فوق الأنقاض وحولها، هي بقايا نوع من المورتر، وكثير من الشظايا الخزفية . لم نجد سوى القليل من النقوش وحتى هذه مجرد كسر صغيرة . استطاع فون فيسمان أن يتسلل بصعوبة الى داخل كهف فى حائط الجبل ووجد هناك خمسة مدافن فى الحائط خالية . الحرارة غير محتملة ولم يساعدنا أحد من رفاقنا فى أبحاثنا . ثم أرغمتنا الشمس على التراجع بعد أن أخذنا بعض الصور ورسمنا بعض الاسكتشات .

تمكنا من العودة بعد رحلة مرهقة ، كانت العربات توحل فى رمـال الـوادى باسـتمرار وحديدها ساخن جدا يحرق الأيدي عند دفعها . عندما عدنا إلى رضيح وجدنا فى مـنزل السيد العيدروس ظلا نحتمى به من حرارة الشمس، وحيث كانت تنتظرنا وجبة الغـداء . من الضروري الدخول فى مفاوضات مطولة لتحقيق هذا الترتيب ، فحتى وقت قريب كان فى حرب مع أتباع السيد أبوبكر . واستغلت مناسبة زيارتنا كأول محاولة حذرة يختـبرون بها الصداقة ، التى تحققت بعد التوصل إلى سلام قبل عام مضى. رضيح قرية فى حالـة انهيار ، فى ريف يموت من نقص الماء للعمال وللري .

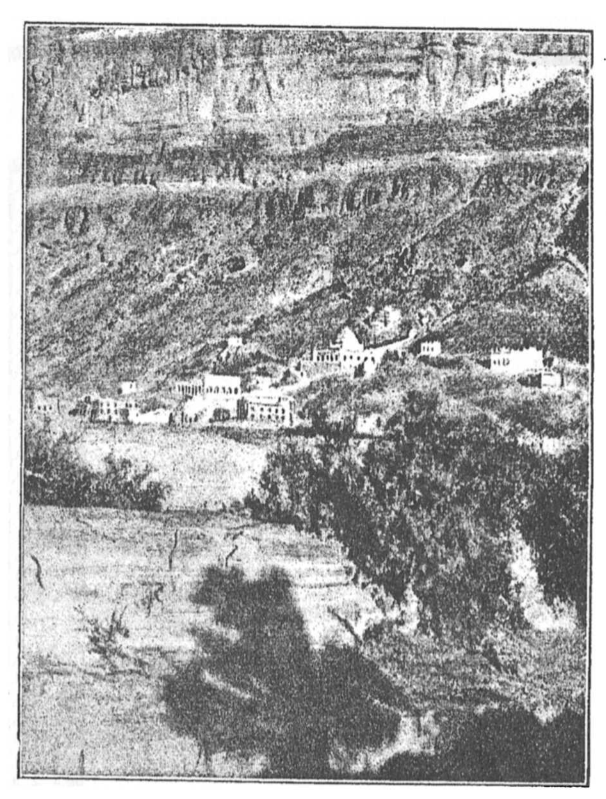
عندما عدنا إلى تريم قدمنا تقريرا مفصلا لمضيفنا الذى كان شديد الإهتمام . وسلمناه قطع النقوش التى وجدناها وطلبنا منه ضمها إلى القطع الأخرى من سون التى فى حوزته مـن قبل . ونصحناه بشدة لتأسيس متحف فى تريم حيث يمكن حفظ الآثار ؛ فهذا يحفظها مـن أن تستعمل فى بناء الآبار والمنازل ويصعب التعرف عليها بعد أن تغطيها طبقة الجـير ، أو تنقل إلى خارج البلاد .

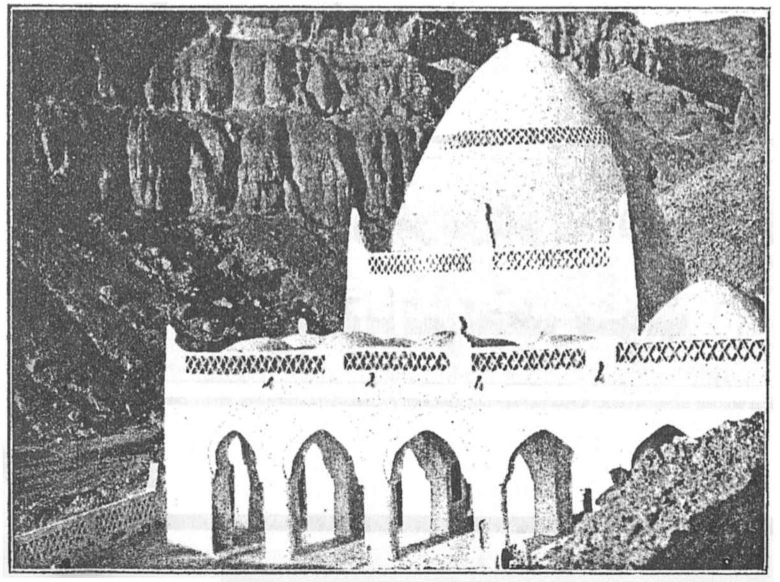
استكملت فى هذا الأثناء الاستعدادات لرحلتنا الى قبر هود وبئر برهـوت فيمكننـا أن نتحرك فى اليوم التالي. أصبح من الملح الآن وضع خطط محددة لرحلة عودتنـا حيـث يتطلب ذلك أيضا وقتا لترتيبها . وطريق تريم – الشحر مفتوح لنا ؛ فلـم يتقبـل السـيد أبوبكر التقارير السيئة المتداولة فى منطقة القعيطي حول هذا الطريق ، وتحمل المسـؤلية كاملة بالنسبة لسلامتنا ، إذا أردنا أن نسافر بذلك الطريق . كان هذا هو الطريق الطبيعـي بالنسبة لى. فأنا كموظف فى حكومتى ، يجب أن أختار أقصر الطرق وأقلـها خطـورة لرحلة عودتى بعد أن أنجزت مهمتى . أما رفيق رحلتى فلا يريـد أن يضيـع الفرصـة المناسبة ، التى هيأها دعم مضيفنا اللامع ، ليرى المزيد من شبه الجزيرة العربية الذى لم يستكشف . فكان لا بد أن يفترق طريقنا هنا ... على الأقل سوف يتحمل السـيد أبوبكـر مسئولية رحلة فون فيسمان داخل البلاد . ووعد أن يجيب على هذا السؤال بعد أن يفكـر فيه بتروى. كانت نتيجة تفكيره أن قال يجب ألا أترك صديقي وحده يترنح . فنحن معـا يمكننا أن نجازف برحلة عبر منطقة غير معروفة ، عندئذ سيكون لنـا هيبـة وضعـى باعتبارى مبعوث حكومة هولندا ، ونمتلك فى ما بيننا معرفة كافية باللغة . عليه لا بـد أن

نترك خطة الذهاب إلى صنعاء عن طريق منطقة مأرب ، ويمكننا أن نحاول الوصول إلى عدن عن طريق "نصاب" . ويعتقد السيد أبوبكر أن هناك بعض فرص النجاح فى هـــذا . لكن يجب أن نترك كل أمتعتنا خلفنا ، و سوف يتولى بنفسه إرسالها إلى عدن بـــالبحر ، عن طريق الشحر ، إذ يجب ألا نحمل معنا أكثر مما يمكن وضعه فى حقــائب ســروج جمالنا . وعلينا أن نستعمل جمالا سريعة مع عدد قليل من الأتبــاع ، و نحــاول اجتيــاز منطقة الحرب بسرعة شديدة بحيث لا يسمع عنا إلا بعد أن نكون قد تخطيناها . وهكذا تـم اتخاذ القرار .

سيقوم مضيفنا أثناء رحلتنا إلى قبر هود وبئر برهوت بعمل كل الترتيبـــات الضروريـــة لرحلتنا السريعة برا الى عدن .


الفصل الثاني عشر
قبر هود وبئر برهوت: هدف أي
رحالة يأتي لحضرموت





قبر النبي هود

تحركنا فجر ٣١ مايو على سيارتين فى رحلتنا إلى قبر نبي الله هود وبئر برهوت . لم يرغب أي فرد من الأسرة أو المقربين إليهم أن يشارك فى هذه الرحلة المرهقة فى الطقس الحار ، ما عدا السيد علي العطاس البدوي ، الذى هبط بئر غمدان بالقرب من حريضة ، فقد ظل وفيا لنا . كان يريد أن يكون أول حضرمي يهبط إلى أعماق بئر برهوت الغامضة، حتى يصبح اسمه بعد ذلك مخلدا فى تاريخ بلاده.

رافقنا طباخنا صالح ، وبعض بدو وجنود السيد أبوبكر . و كلما تقدمنا فى سيرنا عبر الوادى ، مرت علينا قرى كبيرة ، وبساتين نخيل ومزارع ذرة . ولاحظنا من المظهر الخارجي للقرى والبساتين أننا نمر بمنطقة فى حالة انهيار . اتضح هذا جليا عندما اقتربنا من "عينات" التى تقع على الجانب الأيمن لبطن الوادى .

(١) النقرة

كانت عينات من أكبر وأشهر مدن حضرموت . كانت القبة الضخمة للسيد أبوبكر بن سالم (١)، والقباب الست الأخرى التى بجانبها للرجال الصالحين ، تجذب إليها أعدادا كبيرة من الحجاج . وأصبح الاقتراب من المدينة ممتعا عبر غابة كثيفة من النخيل . كانت القباب البيضاء والمساجد العديدة ، جواهر حقيقية لنسق المعمار الحضرمي الصافى ، الذى اجتذب نظرات الإعجاب من آلاف الحجاج الذين اعتادوا المجيء هنا للتبرك . وموقع عينات مناسب ،ولهذا لا بد أن يمر عبرها كل الحجاج الذاهبين إلى قبر نبي الله هود . انتهت عظمتها الآن، وأصبح كل شخص فى حضرموت يعرف النقرة (النقرة تعنى التعرية التدريجية بالماء) ، وهي السبب فى خرابها التدريجي . فمنذ اختفاء الخزانات جرفت تيارات المياه العنيفة الدورية مجرى السيل وعمقته . وتحرك هذا التآكل ببطء إلى أعلى النهر . وكان على شبام أن تحمى نخيلها من هذه الحركة التى تجعل جذوع النخل عارية بإقامة سد طوله حوالي ميل . تقع عينات بعيدا فى مجرى النهر أكثر من أي مدينة أخرى فى حضرموت ، لذلك تتعرض لقوة الاندفاع كلها وتبدأ التعرية هنا أولا ويغدو أثرها الخطير محسوسا . ويصبح السيل أحيانا أكثر قوة عندما تصب فيه مياه الأودية الجانبية ، وعندما تغطى الوادى طبقة سميكة من الراسب الطفالي ينجرف مجراه أعمق فأعمق .

أصبحت جذوع النخيل عارية ، ونتيجة لذلك أصبح محصولها أضعف . وأخيرا تتهاوى الشجرة وتستمر تحمل الثمار ، ولكن نهايتها وشيكة(٢) . فيموت النخيل تدريجيا في المنطقة العريضة حول عينات بسبب النقرة . النخيل محكوم عليه بالفناء : تخترقه أشعة الشمس عبر العديد من المساحات المفتوحة ، تحطمت أعمال الري ، وأصبح كل شيء مغطى بطبقة من الرمال البيضاء . زرنا عينات فقط فى طريق عودتنا ، فقد بقينا الآن فى الضفة الشمالية ، التى سرعان ما ارتفعت عالية فوق بطن الوادى . انحفر الراسب الطفالي بالماء أكثر فأكثر فأصبح من الصعب على عرباتنا أن تجد طريقا آمنا عبره . اتضحت حقيقية هذه الخطورة عند العودة ؛ فقد انقلبت إحدى السيارتين وأصابها خراب كبير. تمت محاولة لتحويل مجرى السيل إلى سفح الجبال فى الشمال بتشييد خزان . وجمعت أموال ضخمة لهذا الغرض ، لكن الماء كان يحطم الخزان باستمرار . لذلك تخلوا فى النهاية عن المهمة . كانت الخطة لتشييد السد بمبادرة من أشهر السادة الحضارم , السيد محمد بن عقيل بن يحيى ، الذى قام برحلة غرب تريم عام ١٩١٣(٣) . وبعد وفاته عام ١٩٣١ عثروا بين أوراقه على تقرير مفصل لتلك الرحلة ، الذى نشر فى جاوا فى المجلة الأسبوعية " حضرموت ".

(٢) " قسم" وقلعتها القديمة

عانت الأرض أسفل المجرى من عينات كثيرا من النقرة ؛ اختفت حضارة النخيل وهاجر العديد من الناس. وتعتبر مدينة قسم الصغيرة نموذجا ظاهرا لهذا التدهور . تحول نصف المدينة التى ما زال يحيطها سور إلى خراب ؛ وبقي الآن فقط بضع مئات يعيشون هنا ، بينما كانوا آلافا فى الماضى . توجد مقبرة شاسعة خارج السور، محاطة من جانبها الآخر بقلعة بمبانيها الملحقة بها ، وهي من طراز العصور الوسطى . وتداعى جانب منها، لكنها ما زالت بخطوطها البسيطة القوية ، محتفظة بروعتها . أصبحت الأبراج المخروطة فى الأركان على مستوى الطابق الثاني غليظة . وكادت أن تختفى الشرائط البيضاء التى فى خطوط مع صفوف النوافذ ؛ سوف يصبح البناء تدريجيا كومة رمادية من الطين وسط أرض هجرها أهلها . استقبلنا المقدم العجوز فى غرفة الاستقبال الكبيرة ؛ حاسة سمعه ضعيفة جدا لذلك يقوم جنوده العبيد بالحديث نيابة عنه . كان والده حاكما قويا

ومهابا على نطاق واسع، بينما كان يقود معركة فاشلة ضد قوى الطبيعة . فجفت أرضه ، وهاجر أتباعه ، وأصبح فقيرا، فقيرا إلى درجة أنه لم يعد قادرا على دفع رواتب جنوده . الحرب ليست ندا للجفاف . وظلت المجموعات الخمس من جنوده وفية له ، ثم سافروا بدورهم فى مجموعات إلى وطنهم الأم فى ساحل افريقيا أو أي مكان آخر ليحصلوا على بعض المال بالتجارة أو العمل الجسماني ثم يعودون إلى سيدهم العجوز ، ليشاركوه وأتباعه المال الذى وفروه .

استقبلنا هذا المقدم العجوز بشعره الأشيب بمودة فائقة . و دعانا بعد الاستقبال فى غرفة الضيوف أن نتبعه إلى أعلى إلى غرفة أصغر تناولنا فيها الطعام وأمكننا أن نكتب ونرتاح دون إزعاج . هنا حكى لنا القصة المحزنة عن ولديه الكبيرين اللذين تركا أرض أجدادهم الجافة وذهبا إلى مستنقعات بورنيو حيث فقدا حياتهما الغضة بسبب الحمى الغدارة المميتة. وذهب أيضا اثنان من أبنائه الصغار إلى هناك ، لكنهما حققا نجاحا حسنا ويتمنيان أن يرسلا إلى أهلهما قريبا بعضا من دخلهما . وسوف تستغل هذه النقود لتغطية مصاريف سفر الأبناء الصغار ، الذين ما زالوا فى البلاد ، لكنهم يجب أن يهاجروا ليبحثوا عن سبيل للعيش . سألنا مضيفنا عن الطقس وطبيعة الحياة فى بورنيو، وأبدى ابنه الأصغر الرغبة فى أن يذهب معى إلى الهند الشرقية . وكنت مرغما لأخيب أمله حيث أنى لن أذهب إلى هناك رأسا من حضرموت .

الطقس حار جدا فى قسم ، حتى داخل الغرف الكبيرة فى القلعة القديمة . وأخذنا صورا للمنطقة من فوق السطح ، لكن الخدم لم يستطيعوا تحمل الحرارة وهم يقفون حفاة الأقدام فاستعانوا ببعض المخدات القديمة و بعض الخرق ليقفوا عليها .

(٣) أنقاض قلعة العر

كان حمل القافلة على مواصلة السير مرة أخرى بعض الظهر مسألة صعبة . فهم يؤخرون الرحيل لأطول فترة ممكنة حتى يتفادوا حرارة الشمس العنيفة . لكن لا بد أن نسافر أثناء النهار حتى نتمكن من مسح المكان . لذلك كانت هناك دائما حالة توتر بيننا وبين حراسنا فى ما يخص هذه النقطة. وقد اختارهم هذه المرة السيد أبوبكر وهو الذى يدفع أجرهم ؛ لذلك لم تكن لنا سيطرة كافية عليهم كما كنا نرغب . وزيادة على ذلك ،

أرسل أحد طباخيه قائدا للقافلة ، رجل ضخم سمين داكن البشرة ، كـــان يكـرس كــل اهتمامه وطاقته للوجبات، التي توفرت مؤنها الضرورية بسخاء من مخازن سيده الوفيرة خاطرنا وتقدمنا القافلة على حميرنا حتى نسهل الأمور . ورأينا أثناء سيرنا على مســافة بعيدة بعض القرى كانت كلها تقريبا خرائب ، رأينا كذلك قلاعا مثل تلك التي في قســم . يوجد هنا ماء وهناك مجرى عميق للسيل لكنه ليس بأي حال واسعا . وقد ظهر بمجرد ما غادرنا عينات وأخذ يزداد أكثر نحو الشرق . هذا الماء مالح جدا ، لكنـــه فــي بعـض الأماكن حـلو لدرجة تسمح بشربه . ويفضل أهل المنطقة ماء البئر المالح ، بينما تشـوب الحيوانات ماء النهر ، الذي يجرى ويختفى بين مرة وأخـرى ليواصـل مجـراه تحـت الأرض. ما زال الوادى واسعا بعد قسم وتتكون التربة من طبقة سـميكة مـن الراسـب الطفالي . ويتسع الممر العريض بين شجيرات الأراك المخضر اليانع بثماره التي تجمـع بين الزرقة والاحمرار ؛ التي يجمعها الأطفال هنا وهناك . عندما سمعنا أنها تؤكل ذقناهـا ؛ لها طعم ال cress ، حالية لكنها حارة مثل الفلفل . ولها تأثير مســهل قـوي وكذلـك أوراقها التي تحبها الجمال والحمير . وحيث ينمو الأراك لا تعطى الحيوانات أي علـف آخر ، على الرغم من أنها تصاب منه بالإسهال . وعند السفر عبر مناطق الأراك يـرى المرء مؤخرة الجمال ملوثة بفضلات مخضوضرة اللون ، وعندما تحرك الجمال ذيولـها فإن الذين يركبونها أو يقودونها يرشهم الرزاز المتطاير . و تصاحب القافلـة فـي هـذه الأوقات رائحة كريهة ليلا ونهارا .

كلما توغلنا فى السير ، تصبح بطن الوادى التي ما زالت عريضة قاحلة أكثر . ويغطـي الرمل طبقة الراسب الطفالي ؛ تبرز منه جلاميد صخر بعضها مغطى بالنبـات . دخلنـا قبيل المغيب منطقة بها العديد من الأنقاض الرائعة. كان الوقت متأخرا لفحصها عن قـرب ، وتجاوزنا الجلاميد الصغيرة حتى نواصل السير إلى الآثار الأساسية فى العر . كـانت واضحة حتى ونحن ما زلنا بعيدين عنها . بقايا جدران ضخمة ، ترتفع عالية فـي وجـه سماء المغيب، تقف وحيدة فوق كتلة من الصخر ، فى منتصف مستوى الوادى تمامـا . ويمتد التل الصخري لمسافة وهو شديد الانحدار ، من الصعب التسلق بجهد فوق المبنـي المتداعى ، الذى تهاوى إلى الأرض . يبرر الموقع إستنتاجنا بأنه كانت هنا قلعة سيطرت

في يوم ما على المنطقة المحيطة . فى القاع بئر مبنية ، نصفها الآن مليء بالحطام . وما زالت آثار الممر من البئر إلى القمة ظاهرة . تنتشر المخلفات حول التل وفوق قمتـــه .و شيدت جدران قوية عالية من صخر نحت جيدا ، وما زالت بقاياه تنتصب إلى ارتفـاغ ٤٥ إلى ٥٠ قدما . فى وسط الجزء الجنوبي الشرقي من الصخرة هناك ممر منحدر ضيـــق ، حيث آثار السلالم ما زالت ظاهرة : لابد أن هذا كان المدخل الرئيسي للقلعة . فشلنا فـــى الحصول على أي نقوش ذات أهمية ، لكننا اكتشفنا بعض رؤوس الأعمـــدة المنقوشـــة . ودفناها فى الرمال بهدف أخذها عند عودتنا حيث نأمل أن نجد فترة أطول لفحص متـــأن لأنقاض هذه القلعة المهيبة .

(٤) ليلة فى السوم

أرغمنا مغيب الشمس فى هذه اللحظة على مواصلة السير إلى السوم، فقررنا قضاء الليل. أصبحت الساعات الأخيرة المرهقة من الرحلة أكثر مشقة بسبب العاصفة الرملية الساخنة، مما أدى إلى تأخيرنا طويلا حتى حل الظلام قبل ساعات من وصولنا إلى مجرى الســيل، الذى يوجد به عند تلك النقطة شريط ماء واسع ضحل . وجدت الحمير والجمال طريقـــها فى الظلام واجتازت الماء الفاتر دون صعوبة ، لكن حماري رفض أن يـــتزحزح حتـــى مقدار بوصة . وتلاشت القافلة فى ظلام الليل ؛ كنت أسمعها فى البـــعيد وهــــي تتســلق جانب الوادى ، ثم أصبح كل شيء ساكنا . فجلست مرهقا من ضرب حماري العنيد وأنـــا أنتظر لأرى إذا كان الآخرون سيفتقدوني ويبعثون لى بنجدة . ولم يمض وقت طويل حتى رجع إلي ثلاثة رجال بمصابيح كهربائية . فتعاونا على دفع الحمار إلى الماء ، ومـــا إن دخلها حتى مد رجله إلى الأمام ليصل إلى الجانب الآخر . ثم سرنا حفاة الأقدام إلى حيث تنتظرنا القافلة . لكن لم يهتم أي واحد بنا ، فقد كانوا يقفون كلهم فى جمهرة حول طباخى صالح ، الذى لدغته عقرب . كان يئن من الألم. ولا يمكن أن نفعل له أي شيء هنا ، مـــا علينا إلا أن نجتهد لنصل إلى السوم بأسرع ما يمكن .

يعطى هذا المكان المحتضر انطباعا بالفقر المدقع والكآبة ؛ سرنا نتعـــثر عـــبر الأزقـــة الملتوية، ونحن مرهقون وهمتنا مثبطة ، الصوت الوحيد المسموع أنين صالح . هل هـــم على استعداد ، فى هذه القرية البائسة ، لاستضافتنا فورا فى منتصف الليل ؟ وهل يمكنهم

أن يفعلوا أي شيء لمريضنا ؟ وقفنا مثل الشحاذين أمام المنزل الذى خصص لنا، ننتظر استجابة لطرقنا وصياحنا . لم يستمر عدم اليقين المؤلم طويلا ، ففتح صاحب المنزل الباب وأصدر تعليماته فورا لتجهيز جانب من السطوح لنا ، وأمر باستدعاء طبيبة القرية. وبينما نحن ننتظر وصولها ، فتحنا البقعة الزرقاء الداكنة التى بها سم العقرب ، مستعملين سكينا صغيرة حتى يمكن امتصاص جزء من السم . ثم وصلت المرأة العجوز وكنا سعداء بترك العلاج لمعرفتها المتمرسة؛ فقامت بحك الجرح بالثوم ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الألم أقل حدة . فى هذا الأثناء أحضر مضيفنا والرجال من أسرته كل ما نحتاج إليه، ووضعنا رؤوسنا المرهقة ذلك المساء يغمرنا إحساس عميق بالعرفان ونسينا متاعبنا. وعلمنا مرة أخرى ، من رعاية مضيفنا الحضرمي، أن تقديم الضيافة للمسافر الذى يطرق الباب ليلا ، واجب مقدس فرضه الدين . وربضت كل القافلة فى نسق أخوي عند شرفة السطح. وأعد "مقدم القافلة" كميات كبيرة من الأكل ، فهو يحب الأكل الجيد الوافر، ومثله كذلك أغلب البدو الذين رافقونا لمجرد مكافأة الوجبات المجانية . استمتعنا بالعديد من أكواب الشاي الخفيف بالليمون ، وأكلنا معها بعض التمر والبسكويت. وبعد منتصف الليل بوقت طويل ، هجع رفاق رحلتنا السمر ، بعد أن أتخموا من الأكل وبعد الكثير من الحديث والشجار .

(٥) "فغمه" ، ثم منية القلب لكل حضرمي

تحركنا مبكرا فى اليوم الأول من يونيو ؛ ففى الساعة الخامسة غادرت القافلة السوم ، التى كانت تستيقظ لتوها من النوم . أرغمنا على النهوض مبكرا فى هذه البلاد التى ينام الناس فيها فى الهواء الطلق . كنا نشاهدهم من سطحنا عندما بدأوا يتحركون فى السطوح القريبة منا ثم يهبطون إلى المطبخ لإشعال النار وإعداد قهوة الزنجبيل . يوجد بستان نخيل صغير حول السوم على جانبي مجرى السيل، مليء بالماء . فاغتسلنا وشربنا كفايتنا عند إحدى الآبار قبل أن نستأنف رحلتنا فى الحر .

بعد حوالي ثلاث ساعات وصلنا قرية فغمه ، التى تتكون من قليل من المنازل تحيط بها أكواخ . كانت الحرارة محرقة على الرغم من أن الوقت ما زال مبكرا . ثم أعلن حراسنا أنه علينا أن نرتاح هنا ونتناول الطعام ، إذ لا توجد قرية أخرى ولن نجد ماء خلال

الأربع أو الخمس ساعات القادمة . لم نصدق هذا الزعم وأصررنا على مواصلة السير ، لكنهم رفضوا مثل رجل واحد ، وأنذرونا من عواقب مثل هذه الحماقة ، ووعدوا باستئناف السير بعد ساعة من الراحة . استسلمنا ضد رغبتنا ، ينتابنا شعور كريه بأننا أرغمنا وأننا ربما نغامر بالمسير أبعد من ذلك . أعدت وليمة رائعة بعناية بالحمل الذى اشتريناه من مضيفنا. فغمه آخر توقف قبل قبر هود ، وتنتظرنا مسيرة أربع ساعات فى أرض جرداء. حملنا القافلة بعد مشقة على استئناف السير عند الثانية . وواصلنا متابعة بطن الوادى ، فحصلنا على الماء فى كل مكان تقريبا . الوقت الآن منتصف فصل الجفاف ؛ بعد الأمطار الشحيحة أو عندما يندفع السيل من الجبال الغربية ، تأخذ "مسيلة" وادى حضرموت فى هذه البقعة شكل النهر الحقيقي. لذلك فإن الطيارين البريطانيين من عدن كانوا صادقين عندما قالوا إنهم شاهدوا نهرا يجرى عبر الوادى بعد قبر هود. لكن يختفى النهر تحت سطح التربة ، قبل أن يصل إلى المحيط الهندي .

عبرنا بالقرب من فغمه على بساتين نخيل صغيرة ومجموعات من الأكواخ البائسة . هذه هي البقعة التى يلتقى فيها البدو من المناطق المجاورة مرة فى العام ، ليحتفلوا بالذكرى المقدسة لرجل صالح . وهذه أيام هدنة مكرسة لله وللتجارة . كنا نسمعهم فى فغمه يطلقون الرصاص ويغنون ابتهاجا ، ثم أصبح الاحتفال الآن ميتا نتيجة الحرارة؛ واضطجع المهرجون المرحون ليرتاحوا بعد اللغط تحت ظلال منحدرات الصخر ، فى كهوف تحت الكتل، أو تحت مأوى من عيدان فوقها قطع من قماش . يبدو أن عدد المشاركين ليس كبيرا ؛ وهذه أيضا حقيقة تشير إلى تدهور المنطقة . جاءت إلينا مجموعة وأمطرتنا بالأسئلة . وأجبنا بأننا بالفعل فى طريقنا إلى قبر النبي هود وأننا ننوى أن نصلى هناك. وعندما أجبت عن سؤالهم عن الجهة التى جئنا منها بأنها "الأراضي المقدسة من جدة"، اتضح لى أن معلوماتهم قاصرة عن مؤسس دينهم وبلاده . لكن بعضهم كان فى شرق إفريقيا ، وحكى هؤلاء أن المسلمين هناك يذهبون عادة إلى مكة مثل ما يذهب الحضارم إلى قبر هود . ثم دعونا أن نبقى معهم لفترة قصيرة ، ليستأنفوا الاحتفال، لكن بما أننا مقتنعون أن الصداقة مع هؤلاء المتعصبين القساة المتشككين مسألة هشة ، فضلنا أن نواصل مسيرنا . فلن نرتاح حتى نصل هدفنا ، قبر هود .

كان أحد أفراد المجموعة والمتحدث باسمهم في زنجبار لفترة ، وهناك خلق علاقات مع الأوربيين. ووعد بأن يتبعنا في المؤخرة ويصاحبنا غدا إلى قبر هود . وبفضل وساطته سمح لنا أن نواصل السفر دون عراقيل

سرنا بأسرع ما أمكننا عبر الوادى، الذى أصبح أضيق .، تكسرت الضفة العالية على اليمين على مسافة بعيدة، بالتحديد حيث "سبعة وديان" تصب فى الوادى الرئيسي ، ويخيم على الوادي سكون الموت ، فلا يرى أي كائن حي . الممر في عمومه جيد وذلك بفضل الحجاج الذين يمرون عبره غدوا ورواحا كل عام في شهر شعبان. ويمر أحيانا عبر تلال رملية جرداء ، وأحيانا بين شجيرات الأراك وبعض شجر الأثل المحني .

(٦) قبر النبي هود ومدينة الحجاج الصامتة

رأينا أخيرا القبة البيضاء لقبر هود والمبانى الملحقة بها ، تقف فى واجهة جدار الصخر الداكن . وينحنى الوادى فى زاوية حادة نحو الشمال ؛ ويبدو من البعد كأن لا منفذ له وأنه ينتهى فى هوة سحيقة بين الصخور السوداء . جئنا قبل نصف ساعة من قبر هود على بناء مربع من الطين فوق قمة تل مسطحة ، يقف عليها حارس . وادعى "المقدم" أنه يمكننا أن ندخل المدينة فقط تحت حماية هذا الحارس . وتمكنا من ترتيب الأمر مع حامينا لينتظر القافلة ويصاحبها إلى المنزل فى شعب (بكسر الشين) هود حيث سنقضى الليل .

نشق الآن طريقنا إلى الهدف الذى كنا نخشى ألا نصل إليه دون أن يصحبنا أحد . لكن بفضل السيد أبوبكر ، فقد سمح لأول زوار مسيحيين بدخول هذا المكان المقدس الذائع الصيت فى حضرموت. وحتى نقترب منه، قمت أنا ورفيقى بمفارقة الطريق واخترقنا المنطقة الريفية ، سار كل واحد منا حسب ما يعتقد أنه أفضل وأقصر الطرق . يقود وادى برهوت هنا إلى وادى حضرموت . و انحفرت الطبقة السميكة من الراسب الطفالي عميقا، فى كثير من الأماكن غير المتوقعة ، بفعل المياه المنجرفة بعد الأمطار . وضفاف مجارى السيول هذه شديدة الانحدار مما يستوجب وقتا وجهدا لاختراقها . التلال بينها مغطاة بطبقة من التراب الناعم يبلغ سمكها ثمان بوصات . وتتحول الأرض المنبسطة بفضل العدد الكبير من شجيرات العشر والأراك والأثل إلى صورة خلابة من الخضرة اليانعة .

لكن اتجهت أنظارنا نحو المبانى البيضاء الرائعة التى تقع أمامنا ، وهي تقف فى واجهة جرف صخري رمادي – أسود ، في اتجاه المدينة الميتة فى الأسفل فى المسيل الضيق – – المدينة التى تكون مأهولة ثلاثة أيام فقط فى العام . كان المنظر عظيما لحد بعيد وأكثر جمالا مما تجرأنا على تصوره فى أفكارنا. المبانى الصافية البياض ، المخصصة لطائفة الولي ، جديدة ، وتم الحفاظ عليها والاهتمام بها بحب شديد . و المدينة التى شيدت منازلها الكبيرة بصلابة تبدو جذابة ، وحافظوا عليها أيضا بشكل جيد. كنا نتوقع أن نرى معسكرا ضخما بأكواخ متداعية وليس بالتأكيد مدينة بقباب ومساجد ومنازل عالية من عدة طوابق وسطوح مطلية بالجير الأبيض ونوافذ عالية . يختلف هذا بلا شك عما كان عليه فى الأزمنة الخوالى . كانت رئاسة قبر نبي الله هود مسندة إلى طائفة دينية من البدو خصصت لهم ، تعود للفترة التى سبقت النبي محمد . و استعملت جزئيا الثروات التى تراكمت فى الخارج ، لإظهار العرفان نحو الله الذى منحها . فقبل عشر سنوات خلت ، ترك أحد آل الكاف الأثرياء مبلغا كبيرا من المال لصيانة هذا المكان المقدس(٤) ؛ قبة المقبرة فقط هي القديمة ، أما بقية المبانى الدينية الأخرى جديدة . والقبة أعلى من بقية المبانى فى واجهة جدار الصخر المنحدر . سوف أعيد هنا القصة الذائعة عن النبي هود، نبي الله علىأيام الوثنية، الذى دعا قومه للتوبة والهداية ، لكنه ، مثل العديد من الأنبياء الآخرين ، لم يكرم فى موطنه . فانتهى فى وقت مبكر من حياته إلى هذا المكان، مطاردا من أعدائه . وفتح الله له الصخرة ولم يره مطاردوه بعد ذلك . والناقة الوفية التى ركبها هود وشرب من لبنها ماتت بالقرب من قبر سيدها . وعندما دخل الإسلام إلى حضرموت، إنبعثت عقيدة هود والحج إلى مقبرته بعد أن تم دمجها فى العقيدة الجديدة .

لابد أن هودا كان رجلا ضخما جدا ، إذ يبلغ طول قبره حوالي ١٢٠ قدما . وشيدت القبة فى الموقع الذى يقال إن رأسه يرقد فيه ، والمكان الذى انصدعت فيه الصخرة . البناء نسق حضرمي خالص ، بسيط وفاتن . وفى المسيل الضيق المحاط والمهدد بكتل داكنة وغليظة من حجارة بنية سوداء ، فإن هذا الصرح الأبيض الزاهى ببساطته الجميلة وزخرفته الرزينة يشبه الصوت الذى يعبر عما هو أجمل وأرقى فى الإنسان فى عالم من الخشونة والفاقة . هذا الصوت ، الذى ينطق فى الصمت الأبدي فى هذا الركن المعزول

الساكن من العالم ، نسمعه ونفهمه حتى نحن ، أول حجاج مسيحيين من الغرب . وفــهمنا الآن البدوي الذى يسمى نفسه مسلما ،ولكنه مازال وثنيا ، حيث يقترب من هــذه البقعــة برهبة مقدسة . هنا ، لمدى ثلاثة أيام ينعم بالسلام وبالخطاب الأخوي مع رفاقــه ، هنــا يزول الخوف؛ وهنا يقف بكل الصدق ، على أعتاب الأرض المقدسة . وتقــترب رغبــة حياته الكبرى ، إلى قبة نبيه التى تصنع المعجزات ، مثل الطفل المفعم بالأمل والثقــة . وهو ، أو فى الغالب هي ،يحمل فى يده وتدا خشبيا وخيطا ملونا من الصوف مربوط فــى نهايته حجر صغير . ويدفع الوتد داخل الحائط الخارجي للقبة أو داخل حــدود الصخــر المستديرة المطلية بالأبيض ،التى تحدد المكان الذى يرقد فيه الجسد . ويبــدو أنــه غــير مسموح بدفع الأوتاد داخل قمة القبة . أما خيوط الصوف فتمضغ فى شكل كتــل وتخلــط باللعاب وتغرز فى الجدران والسقف . فتصبح الجدران مزينة بشكل مسرف حتى لتبــدو أنها مغطاة بورق حائط ملون أو أثرتها رسومات بألوان زاهية .(٥)

اقتربنا من الحرم المقدس فى حذر وهدوء . لم يأت أحد ليمنعنا من الدخول ، فتشــجعنا ودخلنا . ومن حسن الحظ كذلك لم يكن هناك أحد فى الداخل . هناك بعض الحجاج تحتنــا فى مسجد الناقة ، ولو كان معهم حراس المبانى لكانوا لقنوهم كيــف يتلــون الصلــوات الخاصة . ثم ارتفعت إلينا أصوات التراتيل التى كانت تتلى جماعيــا ، وكــانت تكــرر بإصرار رتيب ، وبتعجل متزايد . شاهدنا فى منتصف قبة النبي هود ، قطعة مستديرة من البناء تشبه قاعدة عمود ضخم جدا . وهي مبنية فوق الصخرة الناتئة ، بها فى هذا المكان بالتحديد صدع واسع عميق . هذا هو المكان الذى انفتحت فيه الصخرة بأمر الله ولم تنغلق مرة أخرى تماما . والصخرة ، وعلى الأخص حافة الشق ، صقيلة ملساء من أثــر آلاف الأيدى التى كانت تتمسح بها فى الصلاة ، ومن أثر الشفاه التى كانت تقبل هــذه البقعــة المقدسة . كتبت على الجدران هنا وهناك آيات قرآنية ذكر فيها النبي هود ، أو أحــاديث نبوية ، تمجد مزايا الحج إلى قبر هود . كانت الشمس تميل إلى المغيب عندما انتقلنا مــن القلعة التى تقف عليها القبة إلى الشرفة المبنية حولها المطلة على الوادى الطويــل الــذى جئنا عبره . يشع الماء فى مجرى السيل مثل الذهب من ضياء شمس المغيب. واتخــذت الأعشاب والأشجار على ضفتيه لونا بنفسجيا . وأصبحت جدران الصخر الصارمة غــير

واضحة وفقدت نظرتها الصارمة الخطرة . هذه هي اللحظة المهيبة ، حيث الصحراء والجول والوادى تغدو جميلة بشكل مؤثر.

نزلنا بالسلالم إلى المدينة الصامتة فى المسيل الضيق . ورأينا فى مسجد الناقة بين العمدان البيضاء ، الحجاج يؤدون الصلاة فى صفوف ، يسجدون ثم يقفون مرة أخرى . كان لدعواتهم فى الصلاة صوت مؤثر فى ذلك الصمت العميق الذى يخيم على المساء . المسجد جديد جدا ؛ وتبرز من جانب الجبل فوق المبنى كتلة كبيرة من الصخر يقال إنها الجمل المتحجر . هناك شرفة كبيرة بيضاء ، فوقها صفوف مستقيمة من أعمدة بسيطة مستديرة يقف عليها سطح منبسط ، وسلالم بيضاء عريضة تقود إلى المدينة، شيء شامل مكتمل رزين وجميل .

استطعنا أن ندخل أحد منازل آل الكاف الكبيرة عن طريق باب خلفي صغير . كانت جدران الصخر والمنزل تشع بالحرارة التى امتصتها أثناء النهار ؛ وتمر من وقت لآخر دفعات من الهواء الساخن عبر المسيل الضيق . تسلقنا إلى شرفة السطح . وصلت القافلة قبلنا بوقت قصير واستلقى رفاقنا فى بقية السطح . لم يكن لأي منهم طاقة ليهتم بنا ، ولا أحد يقدم لنا الطعام والشراب ، رغم أننا نموت من الظمأ ولا بد أن نشرب . فقام أحد البدو المرافقين للقافلة يبحث عن الماء ، بعد إغرائه بوليمة موعودة. فالآبار فى المدينة لا توفر ماء جيدا للشرب؛ الماء فى الوادى مالح ولا يشربه إلا الحجاج ، ويستحمون فيه أيضا ، ويعزون إليه قوة مطهرة ، لكن توجد بئر بها ماء حلو فى وادى برهوت ، على مسيرة نصف ساعة على الأقل من المدينة . واستلقينا كلنا ونحن فى حالة إغماء وضيق صدر من الحرارة العنيفة ، و عندما لم يرجع البدوي بعد مضي ساعة ، بدأنا نشعر بالقلق على الماء. هل يمكن أن يكون قد ضل الطريق ، ... وهل جفت البئر ؟ وعذبتنا هذه الفكرة ، وشعرنا بضرورة الحصول على الماء ، إذ بدونها قد يصعب علينا أن نبقى أحياء بعد انقضاء الليل . كنت أحدق من سريري السفري عاليا نحو الصخور الداكنة ، التى تبرز من الجرف الحاد ، وهي معلقة فوقنا بشكل خطير : يظهر أننا سنتحطم إلى أشلاء إذا انهارت منها كتلة . وأمسك الظمأ بخناقنا وبدأت تنتاب عقولنا رؤى مرعبة. من الأفضل أن نغمض أعيننا من الصخور المعلقة . لكن هذا جعل الأمر أكثر سوءا . عندها

بدأت جلاميد الصخر تكبر بشكل هائل ، وأصبحت الحافة خطرا واحدا أسود ، إنها ستنهد فوقنا ، وتلاشينا فيها ، واحتوانا الصمت المميت فى الليل الحالك السواد فى بئر برهوت ، بوابة الجحيم . حاولت أن أصرخ طالبا النجدة ، لكن لا صوت يخرج من حنجرتى الجافة. وشعرت بجسمى ثقيلا مثل الرصاص ، فبذلت كل ما أملك من قوة وحاولت أن أهرب من هذا المكان المرعب . ثم أفقت ورأيت ضوء القمر فوق القمم السوداء عاليا فوقى . ورقدنا فى صمت ، ننتظر ونأمل ونلهث فى طلب الماء .

أخيرا سمعنا حركة البدوي فى طريق عودته فقفزنا على أرجلنا . وضع القربة المليئة بالماء فى وسطنا ، وبدأ رجالنا واحدا واحدا يجثون أمامها ويشربون من فمها فى جرعات كبيرة حتى يفقد الآخرون الصبر فينحوه برفق جانبا . وتركنا الآخرين يشربون أولا ، لكن أكدنا بشكل واضح على صالح ، طباخنا، أن يملأ براد الشاي حتى النهاية بعد أن يفرغ من الشرب . ثم شربنا أيضا بعض الماء الفاتر العكر ، برائحته القوية من أثر القربة التى حمل فيها . اعتدنا أثناء السفر أن نشرب فى المساء أقل ما يمكن من الماء الفاتر النتن ، لأننا سنستمتع بعدها بأنغام الساموار الكبير فوق نار المعسكر، ونشرب الشاي الخفيف الساخن ، وهو أفضل للظمأ ويعطى إحساسا بالانتعاش . فنشرب أكثر ما نستطيع، ولعلى فى هذا قلت الكثير .

بدأ رفاقنا البدو الآن فى طهي الطعام . كان الوقت متأخرا عندما أكلوا ملء بطونهم واستعدوا للنوم . وارتفع القمر فوق الجبال وأضاء الوادى الذى جئنا عبره . أصبح مجري السيل صقيلا مثل المرآة ، وغدا مثل شريط فضي ، وأصبحت الأعشاب والأشجار على الضفاف مثل شريط أبيض، وجدران الصخر المتداعية مثل شيء بدائي، دليل صامت على خراب قوم عاد ، الذين أصبحوا جامدين من الصمت والخمول .

(٧) بئر برهوت ، المدخل إلى مأوى أرواح الكفرة

قررنا أن نبدأ رحلتنا إلى بئر برهوت فى اليوم التالى قبل الفجر ، حتى نلقى نظرة قريبة على بركان الأساطير هذا وعلى فوهته . خصص لنا اثنان من البدو ليدلونا على الطريق، لكن قلة أخرى من جماعتنا كانت لهم الشجاعة ليرافقونا . صالح ، طباخنا ، الذى سافر عبر كل المنطقة القاسية من اليمن مساعدا لتاجر يوناني يسافر على حمار ، لا يخشى

شيئا وألقى بثقله معنا ، وقال إنه سيمضى معنا حيثما نمضى . ثـم هنـاك السـيد علـي العطاس الذى يسعى ليخلد اسمه فى حضرموت ، والذى هبط بئر غمدان مع فون فيسمان، و يسير معنا هذه المرة ليضيف بهبوطه بئر برهوت مجدا إلى أمجاده. وسوف يأتى قـائد قافلتنا أيضا ، فقد برهن على أنه متسلق صخور جسور وأنه يفحـص أي شـيء يثـير إهتمامنا .ثم هناك أيضا بعض البدو الذين سيتركون لأحلام تلك الليلة لتقرر لهم إن كـانوا سيصاحبوننا أم لا . كانت المهمة شاقة فى نظر رفاقنا أكثر ممـا فـى نظرنـا ، لأنـهم مقتنعون عن يقين بأن الثعابين والكائنات المفترسة تعيش فى اللجج السـوداء فـى بـئر برهوت ، وهم يعرفون ويتقبلون بسذاجة الحكاوى التى تقال عن الأبخرة الخانقـة التـى تخرج منها . ومع ذلك ، يثقون فى مقدرة فون فيسمان الأبيض وقوة معداته التى تقلـل من ثقل تلك العوامل المرعبة . فإذا سرنا أمامهم بـهدوء ونحـن مسـلحون بمسدسـاتنا الأوتوماتيكية وبطارياتنا الكهربائية فيمكن أن يمتلكوا شجاعة كافية ويتبعوننا .

جاء ذكر بئر برهوت فى عدد من الأعمال الجغرافية العربية القديمة . فالـهمداني الـذى ألف عام ..٩ م "كتاب صفة جزيرة العرب " ، ذكر بئر برهوت ضمن آبار أخرى شهيرة وأورد اللعنة القائلة : "عسى الله أن يرسل روحه لتنضم إلـى أرواح الكفـرة فـى بـئر برهوت".

ويقول المسعودي الذى كتب "مروج الذهب " حوالي ٩٥٠ م : "أطمة وادي برهوت وهـي نحو بلاد أسفار وحضرموت من بلاد الشحر وذلك بين بلاد اليمن وبلاد وعمان وصوتـها يسمع كالرعد من أميال كثيرة تقذف من قعرها بجمر كالجبال وقطع من الصخور سـود حتى يرتفع ذلك فى الهواء ويدرك حسا من أميال كثيرة ثم ينعكس سفلا فيهوى إلى قعرها وحولها ، والجمر الذى يظهر منها حجارة قد احمرت مما أحالها من مواد حرارة النار ." وكتب القزويني فى "عجائب المخلوقات " ، حوالي عام ١٢٥٠م :" بئر برهوت بالقرب من حضرموت . وهي التى قال صلى الله عليه وسلم فيها أرواح الكفار والمنافقين . وهي بئر عادية فى فلاة وواد عظيم. و عن علي – رضي الله عنه – أنه قال : "أبغض البقاع إلـى الله تعالى وادى برهوت فيه بئر ماؤها أسود منتن تأوى إليـها أرواح الكفـار . وحكـى

الأصمعي عن رجل من أهل حضرموت أنه قال نجد من ناحية برهوت فى بعض الأوقات رائحة فظيعة منتنة جدا فيأتينا الخبر بموت عظيم من عظماء الكفار.

ذكر أيضا الكتاب الآخرون الذين تحدثوا عن حضرموت بئر برهوت وأشاروا إلى أنهم سمعوا عنها . وما ذكروه لا يختلف فى الأشياء الأساسية عما ذكره الكتاب القدامى .

أول معلومات دقيقة جاءت من عالم حضرمي سبق ذكره ، وهو المرحوم السيد بن عقيل؛ وهو أول كاتب يرى بئر برهوت بنفسه بل كانت لديه الشجاعة ودخلها من مسافة وقدم رواية مفصلة لما اعتقد أنه شاهده ولاحظه فى داخلها . صحيح إنه ما زال يتحدث عن دبيب الثعابين ، ورائحة السلفا ورماد السلفا المحروقة ، لكن وصفه يختلف كثيرا عن بحيرة السلفا التى تلقى فيها بأرواح الكفرة .

هذا الوصف لرحلاته نشر فقط بعد عودتنا من حضرموت . ولكن سعدنا أنا ورفيقي بمقابلة السيد العالم وسمعنا من فمه الكثير الذى يستحق المعرفة . وقد قضى سنواته الأخيرة فى الحديدة ، لأن حكومة القعيطي نفته . وقابلنا أخا له فى منزل الكاف فى تريم.

غادرنا قبر هود إلى بئر برهوت فى الساعة الخامسة من صباح الثالث من يونيو . وسرنا على الأقدام ، لكن معنا جمل محمل بقرب الماء . أخذنا من العفش فقط آلات التصوير والبطاريات الكهربائية والبوصلات وحبلا . يدخل وادى برهوت فى الوادى الرئيسي بالقرب من قبر هود . كان فى البداية متسع اتساعا لا بأس به ، وفوق التربة طبقة سميكة من الراسب الطفالي . ما زالت هناك بقايا زراعة وبعض بساتين النخيل الصغيرة . هناك أيضا البئر التى حصلنا منها على ماء الشرب فى الليلة الماضية. لم يبق أثر لأخشاب أشجار النخيل والقرى التى تتحدث عنها الروايات الشائعة ، لم نر أبدا آثارا لمنازل أو قلاع . وانحفر مجرى السيل عميقا وبقيت آخر عشر شجرات نخيل أو ما تقاربها مهددة بالاقتلاع بهذه النقرة الصغيرة . كلما تقدمنا تتغلب الجلاميد والرمال على الراسب الطفالي، ويضيق الوادى وتتلوى الممرات بين شظايا صخر مزعج . أسرعنا السير ، تدفع بنا الرغبة لرؤية هذا السر فى حضرموت . الهضاب هنا متداخلة لحد كبير؛ وترتفع الجروف الهائجة فى كل الجوانب . ولا توجد آثار بركانية . توجد هنا طبقة

سميكة من الصخر الجيري فوق حجر رملي كما فى أي مكان آخر فـــى حضرمــوت . وتظهر هنا وهناك المداخل المظلمة للكهوف فى منحدرات الجبال .

سرنا لساعتين أو ثلاث عبر وادى برهوت ، الذى يصبح أكثر ضيقا كلما تعرج صاعدا ، لم نر أي كائن حي ، فى هذا العالم من الصخر المتوحش الصامت . وإذا قدر لأحـــد أن يسافر فيه وحيدا فسوف يغمره إحساس بوحشة شديدة . وفوق ذلك ،، يصبح الحر غـــير محتمل فى صخرة الوادى الضيق هذا كلما ارتفعت الشمس، إنه منطقة رعب، لكن فـــى الواقع كل المناطق غير المأهولة فى حضرموت كذلك . إنه أكثر قسوة هنا من غـــيره . لكن هذا لا يفسر لماذا ابتدع الخيال الشعبي مثل هذه القصص المرعبة عن بئر برهـوت ، وهي قصص يصدق بها الناس فى البلاد حتى الوقت الحاضر .

وقفنا أخيرا عند جانب من سفح جبل بئر برهوت . ورأينا فتحة الكهف العريضة المظلمـة فوقنا بحوالي ..٣ قدما ، فى جدار جبل شديد الانحدار ، . كان المنظر له تأثير لا يخلـــو من تحد . وأسرع حارسنا يرمي أي شيء زائد فى كومة بجانب الجمل مع قرب المــاء ، ثم تسلق بجهد إلى مدخل الكهف . ارتوينا جيدا ثم تبعناهم . انحفر فـــى الصخـــر ممـــر متعرج يمكن أن تمر به الجمال ؛ حطمت المياه أجزاء منه ولا يعطـــى الانطبـــاع بأنـــه مستعمل . يقول السيد بن عقيل فى بحثه إن الجمال كانت تسير فى هـــذا الممـــر لتحمـــل السماد من بئر برهوت . ولا بد أن هذا السماد كان روث الخفافيش .

عندما وصلنا إلى القمة ، وجدنا رفاقنا يجلسون على جلاميد مبعثرة على رواق عريـــض عال عند مدخل بئر برهوت ، الذى يبلغ اتساعه حوالي ١٢. قدما ،وارتفاعـــه ٤٥ قدمـــا وعمقه ٦. قدما . يوجد العديد من الجلاميد مبعثرة قبل المدخل إلى الكهف فى الحـــائط الأبعد و يبلغ ارتفاعها بضعة أقدام، و يبلغ اتساع الكهف تسعة أقدام وارتفاعه أربعة أقدام. وبعد أن سجلنا هذه الحقيقة أخذنا راحة قصيرة . يشتم السيد علي المغامرة فبدأت أفكـــاره ترى الشهرة تومى إليه ، وأخذ يقود الطريق زاحفا نحو الكهف ، وهو عار إلا من قطعـــة قماش تغطى عورته وعلق على كتفه بندقية أحد البدو الذين تخلفوا. وتبعناه بالبطاريـــات والحبل . كانت البوصلة ومذكرة الطريق مع فون فيسمان . وبما أنه خبير فـــى فحـــص الكهوف ، سوف يضع إسكتشا لطريقنا داخل بئر برهوت ، ولذلك توقعنـــا ، إذا عملـــت

البطاريات والبوصلة بشكل تام ، أن نجد طريقنا للعودة مرة أخرى إلى المدخل . ومعنا بجانب البطاريات الثلاث فانوس ، لنتأكد به أن كمية الأكسوجين فى الكهف كافية . سار السيد علي فى المقدمة بالمصباح ، وتبعه فون فيسمان وبيده شريط المقاسات ،وكنت أتبعهم عندما يصبح الشريط مشدودا ويتم تسجيل الاتجاه .

تسلقنا بحذر الواحد خلف الآخر إلى داخل الظلام الكثيف، ويقود الكهف أفقيا إلى جبل الحجر الجيري . وعبرنا فوق جلاميد حادة وخشنة ، فوصلنا إلى نقطة أصبح الكهف منخفضا جدا حتى زحفنا على أيدينا وأقدامنا لنتمكن من العبور . يصبح الممر بعد هذا واسعا وعاليا مرة أخرى . كان علينا أن نعبر شقوقا عميقة ، لم يتمكن حتى شعاع مصابيحنا أن يسبر قاعها. والصخرة التي كنا نسير فوقها مغطاة بطبقة سميكة من تراب ناعم غاصت فيه أقدامنا بلا صوت . لا يصل ضوء النهار إلى هنا . وأحدث الظلام انطباعا عميقا على العرب الذين كانوا معنا ، لأنهم على قناعة أن هذا الليل الأسود يخبئ وحوشا وأرواحا ، و سوف تستاء من المتطفلين على مملكتها . فكان الأمر فوق الاحتمال بالنسبة لبعضهم ؛ وما زال فى إمكانهم أن يجدوا طريقهم إلى الخارج وخرجوا بالفعل والذين بقوا لم ينبس أي واحد منهم بكلمة استهزاء أو تأنيب . لن نترك قادتنا ، فون فيسمان والسيد علي ، لوحدهما ، وبقلوب مرتجفة واصلنا السير . الكهف دافيء جدا فى الداخل ، نشعر بالخفافيش تتطاير حولنا فتنبعث رائحة كريهة مصدرها هذه الحيوانات ، وكنا نسمع حنينها الرقيق . تقدمنا ونحن نسير بحذر فوق سجادة التراب . ثم يدلف الممر إلى فراغ عال واسع . أخبرنا رفاقنا العرب ، الذين كانوا يحدقون ببلاهة حول أبعاد هذه الصالة غير المتوقعة : "هذه كاتدرائية الكفرة " . وكنا نسمع دعواتهم الهامسة : "الله أكبر، الله العليم " . يضيق الفراغ فى الجانب البعيد ويصبح مرة أخرى ممرا ، وينتهى بأن يصبح ضيقا بحيث يصعب عبوره . يبدو لنا أن "الكاتدرائية " ليست لها نهاية ، ما عدا جانب آخر عريض عال فى الجدار على الأيمن . يقود هذا الممر الأخير أولا إلى أعلى ، فوق جلاميد ؛ وكلما زاد توغلنا فى الكهف ، أصبح أكثر حرارة . ويضيق الصدر بسبب الظلام والحرارة ، وينطبق عليه الرائحة الكريهة التى ما زالت متزايدة ، فتهيج دمى ، وأعتقد أن أغلبنا كان يتمنى أن يصل إلى نهاية مقفولة حتى نعود أدراجنا .

وواصلنا فى هذا الأثناء تقدمنا بحذر وعبرنا دهاليز جانبية تقود مباشرة إلى اليمين واليسار . ووجدنا فى بداية الممر الذى سلكناه آثارا لوجود آدمي؛ كوة صغيرة نحتت فى جدار الحجر الجيري بآلة مازالت علاماتها ظاهرة جدا ، وبجانبها بعض الفحم وعلى جدران الكوة سخم. وتوجد بقعة أخرى مشابهة أبعد ، حيث بعض الأغصان مرمية أيضا بين الفحم والرماد . ويفترض البدو أن هذا كان ملجأ لبعض الفارين من أعدائهم .

هذا الدهليز طويل يضيق فى النهاية حتى يصل إلى طريق مقفول . والملاحظ فى هذه الممرات الضيقة التى ليس بها منفذ، أنها أكثر حرارة من الدهليز الرئيسي العريض . ولو لم يكن اهتمامنا منصبا على فحص الكهف لكان من الصعب علينا احتمال الحرارة . لكن لا نفكر فيها الآن على أننا ما إن خرجنا إلى ضوء النهار حتى كنا نشبه الوقادين ، يتصبب العرق من كل مسامنا وأجسامنا كلها مكسوة بالغبار. وأحيانا تهبط الدهاليز هبوطا حادا ؛ ولا يمكن دخول أحدها إلا عن طريق حفرة صغيرة . ودخل السيد علي أولا . وما إن دخل حتى رأيناه ينزلق باستمرار فوق طبقة ناعمة من الحجارة الصقيلة . ثم تبعه فون فيسمان ، أما نحن فلم نتجرأ على الدخول . وتلاشى ضوؤهم بعيدا فى الأعماق وتبعتهم ضوضاء حجارة ضخمة ؛ ثم جاء السكون . وأمرت بإطفاء الأنوار حتى أوفر البطاريات؛ وبعث الظلام الدامس والسكون الرعب فى رفاقى ، الذين كانوا يتمنون فى كل لحظة أن تضاء الأنوار مرة أخرى . وتعلقت أفكارنا بقلق حول احتمال إصابة الشيطانين الجريئين بحادث ، إذ ربما أصبح المنحدر أكثر حدة فى الأسفل . كان معهما الحبل الوحيد الذى طوله ٧٠ قدما . ووقفنا ننتظر هناك بقلق متزايد مدى عشرين دقيقة ، ؛ ثم رأينا لراحتنا الكبرى وميضا خافتا بعيدا فى الأعماق ، وبعد فترة كنا نساعد الرجلين المرهقين ليتسلقا مرة أخرى حائط الدهليز .

تبرز على الجدران فى المكان الذى تضيق فيه الممرات ، كل أنواع الأشياء الحادة . تظهر مثل المحار وكانت فى الغالب سليمة جدا . التقطنا بعضها وأخذناه معنا . وتتألق الجدران أيضا كأنما تغطيها طبقة من الملح أو بودرة أخرى بيضاء ، لكن بالحكم عليها من طعمها، لم تكن من نوع الملح العادي.

تم أخيرا تفتيش كل الممرات التى وصلناها وبدأنا العودة إلى الدهليز الرئيسي . و كلما اقتربنا من المخرج يصبح الطقس مقبول البرودة ؛ ومن سوء الحظ نسينا أن نحضر معنا مقياس حرارة لنقيس الحرارة العالية داخل الكهف . وعندما خرجنا إلى المدخل المسقوف لبئر برهوت وجدنا حراسنا يتمددون فى الخارج على الجلاميد ، ويغطون فى النوم . وعندما أيقظناهم ، كانوا فى حالة ذهول من الدهشة لرؤيتنا مرة أخرى . لقد انتظرونا ربما نصف ساعة ، آملين عودتنا ، لكن عندما لم نرجع وقتها ، أصبحوا متأكدين بأن الثعابين والأرواح الجهنمية قد سحقتنا أو اختنقنا بأبخرة السلفا .

لكن ها نحن نقف أمامهم بعد ساعتين ، كنا بالتأكيد متسخين ومشبعين بالعرق ، لكننا أحياء تماما . لقد أثبتنا الحقيقة أن بئر برهوت كهف حجر جيري نموذجي ، وليس به أي شيء بركاني . والرائحة الغريبة غير الضارة بداخله لا تأتى من أبخرة سلفا ؛ بل لعلها بسبب الغبار من الصخور المتآكلة ، أو ربما من الخفافيش . والحرارة العالية ، بالذات عند نهايات الدهاليز ، وليست نتيجة لشيء بركاني، بل مرتبطة بالحرارة العالية التى يصل إليها الهواء الخارجي فى وادى برهوت . ويتوغل الهواء الحار إلى أقصى وأعلى أجزاء الكهف ولا يبرد هناك كثيرا . لم نر فى كل منطقة حضرموت أي أثر بركاني، ما عدا طبقات الصخور المحطمة فى الساحل .

عندما اعتادت أعيننا على الضوء مرة أخرى وشربنا ، هبطنا ثانية إلى الوادى . كانت الشمس تشع داخله مباشرة والحر خانق ، ولن نتخلص من الحر حتى نصل قبر هود ، لذلك سرنا بأقصى ما استطعنا من سرعة وبعد ساعتين وصلنا البئر عند بداية الوادى .أما حراسنا فلم يستطيعوا مجاراتنا، إلا أن شابين من بدو المناهيل ، لهما رشاقة ومرونة وقوة الوعل ، رافقانا فكانا رفقة مسلية. كنا فى غاية الإرهاق عندما وصلنا إلى البئر ، بينما كانا هما فى منتهى النشاط . وجلبا الماء بعد ذلك ، ولم يشربا إلا مرة واحدة . وشربنا الماء مرة بعد أخرى -دافئا ، لكن كان نظيفا- ، وسكبناه فوق ظهورنا وصدورنا ، فحصلنا على حمام احتجنا له طويلا . كان أحدهما يتحدث السواحيلي ؛ قضى عامين فى نيروبى حيث كان له دكان ووفر ٦٠٠ ريال . والآن هو المالك السعيد لعشرة جمال وزوجة صغيرة . ولم يستطع الآخر أن يتزوج ، حيث مهر الزواج هنا من ١٥٠ إلى ٢٠٠

ريال ، وليس لديه فى الوقت الحاضر هذا المبلغ . يريدنا أن نأخذه إلى الخارج ،ليجـــرب حظه هناك مثلما فعل رفيقه . يلبس المناهيل قلادة من شريط جلدي مضفـــور ومرجـــان أحمر وأبيض ، ورأيت حول وسطهم ، تحت حزام الذخيرة ، شرائط فنية قريبة التشـــابه من بعضها البعض . ورؤوسهم عارية ، يعصبونها بشريط حول شعرهم المدهون ، وهــو متموج وينسدل طويلا ، ويلبسون قماشا صغيرا حول وسطهم وفوقه حـــزام الرصـــاص مثبت بإبزيم . ومازال لدى كثير منهم نوع البنادق التى تعبأ من فوهتها . ويتضـــح مــن مظهرهم البدائي أن الأرض التى يجوبونها تقع على الحدود الجنوبيـــة للربـــع الخـــالي ، أقصى الحدود الشمالية لحضرموت .

الحرارة فى مسيل قبر هود غير محتملة أيضا . تصل درجة الحرارة فى الظل بيـــن ٤٠ إلى ٤٢ درجة مئوية . وكان الواجب الذى فرضه كل واحد على نفسه أن يرقد ســـاكنا ، ويحاول أن يبدو هادئا بقدر المستطاع وينتظر بصبر حتى تنتـــهى الحـــرارة الأعنـــف . وعندما هبطت الشمس فى السماء إلى حد معقول أعطينـــا الإشـــارة بتحـــرك الركـــب ، وواجهونا باحتجاج كبير ، لأنهم يجب أن يذهبوا للصلاة فى قبة المقبرة وفى مسجد الناقة. والسيد علي بجانب أنه رجل مغامرات جسور ، كان أيضا مسلما ورعا ، يؤم الناس فـــى الصلاة ويتلو آيات من القرآن تناسب مقتضى الحال. زيادة على ذلك ، كان كـــل واحـــد مكلف بدعوات يؤديها للأهل والأصدقاء ، لذلك تبدو تلك الصلوات عند قبر هود وكأنـــها بلا نهاية . كنا نرى صفوفهم من منزلنا بين الأعمدة على جانب التل الداكن الحجـــري ، وأصوات صلواتهم وابتهالاتهم تعلو وتنخفض فى أمواج من الصوت ، فتحدث أصداء فـــى الوادى الصامت الذى يشبه الموات .

رجعوا أخيرا من الصلاة وهبطوا السلالم البيضاء ، وساروا نحو المدينة وهم فى غايـــة الرضى من أنفسهم. وأخذنا نستعد للرحيل ، أما هم فلم يكونوا علـــى اســـتعداد . كـــانوا يريدون المزيد من الوقت ، ليستمتعوا بأثر رجعي بصلواتـــهم ،ولا يتحركـــون إلا بعـــد الغروب . لكن صبرنا كان قد نفد عند تلك اللحظة فتحركنا ، فون فيسمان وأنـــا ، وســـط احتجاج كبير ، وتبعنا الحماران بالحمير تحمل معداتنا ومـــاء الشـــرب . وعندمـــا رأى الآخرون أن قرارنا لا رجعة عنه ، أرسلوا حارسا مسلحا ليتبعنا .

(٨) أنقاض المكينون ، حصن ثوب وحصن العر

سرنا بخطى واسعة فوق الممر الناعم من الراسب الطفالي . وسرعان ما ملأ ظل جدار الوادى الذى كنا نسير عبره بطن الوادى . و اختفى النهار العنيف الذى يعمى البصر ؛ واتخذت سماء المساء ألوانا ناعمة مرحة انعكست فوق الريف الهادئ . بجانب الممر شجيرات آوت إليها بعض الطيور ، عصافير ونوع من الحمام ، قليل الحياء فمزق سكون المكان وجموده . ينمو الأراك والطرفاء هنا بكثرة، حيث يوجد دائما ماء فى مجرى السيل . وسرعان ما عبرنا الدلتا الواسعة ل "سبعة وديان" التى تصب فى الوادى الرئيسي.

وصلنا بعد ساعتين ونصف من السير المتواصل إلى فغمة فى ظلام حالك وطرقنا باب المنزل ، الذى قضينا فيه بضع ساعات أثناء النهار الحار فى رحلة رواحنا . وبالرغم من أن رب الدار قد أوى إلى مضجعه مع عائلته فوق السطح ، إلا أنه جاء فى الحال وفتح لنا الباب ، وخصص لنا أيضا جزءا من السطح ، وغطاء من شعر الماعز ومخدات ملطخة بالدهن . وعندما استقر كل واحد منا ليرتاح تبددت قافلتنا من الظلام ، واستقبل الرجال بدورهم بحفاوة بالغة وخصص لهم مكان فى سطح آخر .

غادرنا فغمة فى فجر اليوم التالي ، الثالث من يونيو ، قبل أن تشتد الحرارة ، ووصلنا السوم ، فزرنا مرة أخرى مضيفنا السابق . استقبلنا بحفاوة زائدة وأدخلونا المجلس الكبير. كنا نريد أن نكتب ونرتاح، فأرسلنا من يتحسس إمكانية وجود غرفة صغيرة لنا ؛ وفى الحال أخلوا الغرفة العامة ووضعوها تحت تصرفنا . وكنا نرغب أن نتحرك مبكرا عند الظهر لنشاهد مجموعة الأنقاض عند مكينون وثوب والعر قبل مغيب الشمس .

تقع مجموعة الأنقاض المعروفة باسم المكينون بالقرب من السوم فى اتجاه الحائط الشمالي للوادى . وتقف بقايا المبانى القديمة بارزة فوق السهل مثل كومة من الركام، و بئرها الآن مليئة إلى نصفها بالحجارة . فشلنا فى العثور على حجارة بها نقوش . يتصل مع هذه الأكوام فضاء شاسع يتخذ منه أهل المنطقة مقبرة ؛ ووضعت حجارة فى دوائر وقطع ناقصة يقال إنها توضح القبر . وقوم عاد حسب التقليد السائد قبيلة من العمالقة ، و تنسجم أبعاد هذه الدوائر والقطع مع هذا الفهم . ليس لدينا وقت للقيام بأعمال الحفريات ؛

هناك مجموعات أخرى من الأنقاض تحتاج إلى تنقيب . وتبعنا دليلنا ضد إرادتنا وأدرنا ظهرنا للمكينون وتبعناه إلى وادى سيخور . أمكننا أن نرى فى البعيد ، تلا عاليا يرتفع فوق أنقاض ، لابد أنها كانت فى يوم من الأيام قلعة . فموقعها يدل على هذا فهناك أشياء كثيرة مشتركة مع أنقاض القلعة فى العر ، فهي تقف فوق تل مشابه يبرز من الوادى الرئيسي، على مسيرة نصف ساعة فقط غربا .

تسمى أنقاض القلعة عند مدخل وادى سيخور حصن ثوب . يبلغ ارتفاع المنحدرات الحادة فى الصخرة الضخمة ما يقارب ٣٠.. قدما ، مغطاة بالحطام . وفى سفحها بئر ، و على قمتها بقايا حائط طويل إلى حد ما ، لكن بلا نقوش .

يمكن تفسير قلة النقوش المجودة هنا ، بالمقارنة مع وفرتها فى أرض اليمن الجبلية ، إذا نظرنا إلى حضرموت باعتبارها تقع على حدود مملكتي السبئيين والمعينيين . ومن رأي البرفسور موردمان (Mordtmann) من برلين ، الذى درس وفك الرموز التى أحضرناها معنا ، أن أهل حضرموت اشتهروا بقدراتهم القتالية منذ زمن بعيد . وحسب قوله ، فقد ورد اسم البلاد وملوكها فى أكثر النقوش السبئية قدما ، ومرة أخرى في النصوص اللاحقة. وقد قيل الكثير عن الحروب مع حضرموت . ولا توجد أدلة توحى بأن الحضارم قد قهروا فى أي وقت بواسطة جيرانهم، السبئيين والمعينيين . وفى زمن علماء الإسكندرية كانت لهم مملكة منفصلة ؛ وتم تسجيل هذا بإجماع موثوق به . وكان لهم إلههم القومي سين ، مثلما كان للمعينيين عشتار ، وللسبئيين إلمقه، ولشعب قتبان آم وأنباي. وحافظوا أيضا على لهجتهم حتى القرن السادس من عصرنا .

على أي حال ، يبدو أنه كانت هناك حروب كثيرة، وأن قلعتي ثوب والعر كانتا بلا شك، تحصينات عسكرية ؛ يشير هذا إلى أن البلاد كانت منطقة بين حدود مملكتين ، ومن الطبيعي ألاتكون أنسب مكان لوضع نقوش . وما كانت التخوم الدفاعية أبدا مراكز للثقافة. إضافة إلى ذلك فالحجارة هنا لا تساعد على الحفر : إنها هشة جدا . كل النصوص التى فك رموزها مورتمان نقوش عبادات لإلههم سين .

رجعنا من حصن ثوب سيرا إلى الوادى الرئيسي ؛ الذى مازالت تقف في وسطه فوق صخرة ضخمة وحيدة، بقايا جدران حصن العر بجدرانه الشاهقة . هنا قابلنا القافلة ،

ووحدنا جهودنا ، وحاولنا أن ننتزع قطعة من الصخـــر المنحـوت ملتصقــة بـــالجدار بالأسمنت فوق الجزء الأعلى من بقايا الجدران . ونجحنا بعد جهد كبير . فـــاتضح أننـــا انتزعنا تاج عمود مبيض من حجر رملي ، منحوت نحتا جيدا خاصة فى جوانبه الأربعة. كان تاج العمود ثقيلا جدا ولا يمكن حمله على جمالنا ، لذلك وضع فون فيسمان الرسـم الذى أبرزناه هنا . وتتضح جليا من أجزاء رأس العمود التى لم تتحطم ، مقـدرة الفنـان الذى نحته فى الأزمنة القديمة. يبدو أن النحات رسم مناظر صيد . إذ يظهر فـــى أحـد جوانبه رجال فوق خيولهم يقاتلون أسودا ، وفى جانب آخر نسخة طبق الأصل للوعـــل بالغة الجودة، وهو حيوان يلعب دورا كبيرا في الفلكلور الشعبى فى حضرمــوت . ومـــا زال صيد الوعل الرياضة المفضلة عند إلحضارم، بالرغم من أنه يجد معارضة شـــديدة من زعمائهم الدينيين على أساس أن الاحتفالات التى تصحبه ذات جذور وثنية . وقـــرون الوعل الثقيلة المتشعبة والمنحنية بجلال إلى الخلف ، ما زالت توضع اليوم نصبا تذكارية تزين واجهات كثير من المنازل فى حضرموت .

استخرجنا مرة أخرى الحجر الصغير المنحوت الذى وجدناه فى الأنقـاض ودفنـاه عنـد ذهابنا. هذا الحجر مسطح ومن نفس رأس عمود الحجر الرملي الأبيض، ويظهر أن بــه فى الأمام والخلف نحتا طبق الأصل ، يمثل عنقود عنب مع بعض الأوراق ، وهو حـــافز يظهر أيضا هنا وهناك فى الجوانب المزخرفة لرأس العمود . كنا نرغب فى أخـــذ هـذا الحجر معنا إلى تريم لنضمه إلى المجموعة الصغيرة التى فى حـــوزة مضيفنـــا . وبعـد إصرار شديد وافق قائد القافلة على هذا ، لكن عندما أرغمنا حلول الظلام على مغـــادرة العر ، لاحظنا أن صاحب الجمال ، الذى كان معنا بشخصه ، كان يحمل الحجـــر علـــى كتفه. فهو يعتقد أنه سوف يؤذى جمله ، رغم أن الجملين كانت حمولتهما خفيفـــة جـدا ، وكان هو يجرى سريعا ، ويقفز ، وما إلى ذلك ، ولم يكن الحجر عائقا له .

(٩) ليلة فريدة

كان الظلام حالكا عندما اقتربنا من باحفار ، التى تقع عند مدخل وادى الخون ، الآتـــى من الشمال . كان علينا أن نتابع مجرى السيل المليىء بالماء ، وذلك بعد أن ركبنا لبعض الوقت عبر بستان نخيل بجانب الضفة . وقد سبب حمارى ذعرا كبيرا ، عندمـــا شـــرب

كثيرا ، ثم استلقى مرتاحا فى وسط البركة الراكدة . وهب الكل استجابة لصرخة ذعرنا ، لينقذوا الآلات والمادة الفوتوغرافية من أكياس السرج ؛ على أن استحمام الحمار انتـــهى دون أن يحدث أضرارا .

باحفار قرية بائسة وسكانها فى منتهى الفقر ويسكنون فى أكواخ . فقد تحطمت منازلـــهم الطينية من جراء الحروب القبلية ؛ الذين تبقوا من السكان كانوا ضعفاء فى عددهم وقوتهم فلم يتمكنوا من إعادة بنائها. بقي منزل طيني واحد مصانا ، ونصبنا فوق سطحه معسكرنا لقضاء الليل فى رفقة أخوية . وفى الحال جاء بعــض الرجــال الفضوليين ليســتمتعوا بالمنظر غير المألوف . وحدث هنا شيء لم يمر علينا أبدا من قبل : جـاءت فيمـا بعـد مجموعة من النسوة ، ليشبعن فضولهن . وجلسن يتكدسن على بعضهن ، فى ركن السطح المواجه للمكان الذى اخترناه لنومنا ، ولا يفصل بيننا سوى مساحة السلالم. وبما أنــهن لا يفكرن فى الذهاب مرة أخرى وكن يستمتعن بشغف بغرابة الأشياء التى كن يشـــاهدنها ، فكنا مرغمين على مواصلة عملنا دون أن نجعل وجودهن يزعجنا . وعندما نصبنا الأسرة السفرية ، وتحولت من حزمة صغيرة ، إلى أشياء طويلة وكبيرة ، صحـــن باندهـاش . وعندما خلعنا ملابسنا ، تحولت الدهشة باستمرار إلى مرح طاغ . وكنا نأمل أن نضع حدا لهذه الزيارة بإضاءة المصباح الكهربائي فجأة . فأخذن يقهقهن ويتزاحمن خلف بعضـــهن البعض وزحفن بعيدا ، و قلقنا خوفا من أن يعترى إحداهن رعب فى لحظة فزع وتقفــز من فوق السطح . ولم يمض وقت طويل حتى كانت الفتيات والنساء الصغيرات يجلســن مختبئات خلف ظهور الكبار منهن حتى يواصلن تحديقهن وهدير الضحكات من الرجـال والصبية . وعندما أخلدت إلى النوم مازالت النسوة بلبسهن الأسود جالسات فى مكانهن .

أيقظتنا الشمس فى الرابع من يونيو . كل ما حولنا يغلفه الـــهجوع و اختفــت النســوة . وحدقت عبر الوادى الصغير بزرائبه البائسة . ورأيت على الرمال حول منزلنا ، أشـكالا سوداء بشعة راقدة . وبدأت إحداها تتحرك ، فإذا بامرأة تنتصب جالسة وهي سكرى مــن النعاس . ثم وقفت وهي تترنح ، ونفضت بعض التراب والرمال من الخرق السوداء التـى تلفها حولها ، وسارت مبتعدة فى صمت إلى كوخها لتواصل حياتــها الرتيبــة الفقــيرة . وسرعان ما تبعتها واحدة ثانية ثم اختفين الواحدة تلو الأخرى . ورأينا هنـا فـى لحظـة

لمحات خاطفة من الفقر المدقع ورتابة الحياة والجوع فى قرية من هذا الجزء من حضرموت ، حيث هلك السكان وامتصت الحرب قواهم ، والرجال الذين عاشوا هربوا من مآسيها إلى بلاد أجنبية ، أما النساء الحضرميات اللائى يقاسين طويلا ، فقد بقين وحدهن ، لأنهن لا يغادرن بلادهن . إن عالم المرأة وحياة الاسرة يبقى دائما كتابا مغلقا بالنسبة لنا .

(١٠) زيارة إلى عينات

المسافة من باحفار إلى قسم ليست كبيرة ، فوصلنا تلك المدينة الصغيرة الميتة فى وقت مبكر من اليوم ، لنجد العربة التى وعدنا بها الكاف، فى انتظارنا . وسرنا عبر المدينة التى نصفها أنقاض ؛ لكن أحد السادة الذى أثرى فى المهجر شيد لنفسه هنا قصرا أميريا. ولم ينس بالطبع فى نفس الوقت أن يقدم شكره لله ببناء مسجد ، قطعة بيضاء رائعة ملتمعة من فن المعمار الحضرمي . ويبدو أن التباين بين الثراء الكبير لكثير من السادة وفقر السواد الأعظم من الناس لا يخلق شعورا حادا هنا . وتقف قصور الأغنياء وسط المدن المتداعية ؛ يلعب أطفالهم بملابسهم الأنيقة ، مع أطفال العبيد السود نصف العراة. ويعود الأغنياء بمحض إرادتهم من بلاد الثقافة والازدهار إلى موطنهم حيث الفقر المروع، ليستمتعوا داخل حدوده بالثروة التى جمعوها . وقد شاء الله أن يكون فى العالم رجال أثرياء ورجال فقراء يمنحهم الأغنياء صدقات . إنه من المناسب والملائم أن يكون فى كل مجتمع مسلم قوم فقراء، وأن يكون عددهم كبيرا بالذات فى أماكن الحجاج، حتى يجد التقاة فرصة كافية لممارسة الإنفاق الذى أمرهم به الله. ولاحظنا القليل من الحسد والصراع الطبقي فى حضرموت . ويرجع هذا جزئيا بالتأكيد إلى أسلوب الحياة الديمقراطي. إن امتيازات طبقة السادة لها أسس دينية وليست مالية . الجنود وخدم المنزل والمواطنون العاديون فى القرية يجتمعون فى مجلس الأغنياء ويأكلون معا ، ويشربون من نفس الإناء ويشاركون فى نفس الحديث .

ذهبنا من قسم بالسيارة على طول الضفة الطينية العالية للمسيلة (بطن الوادى) ، التى عرتها النقرة . وعندما وصلنا إلى نقطة قبالة عينات حاولنا أن نعبر بطن وادى المسيلة الرملية لنصل إلى المدينة . كانت بساتين النخيل تزداد ضمورا والتربة هنا مغطاة كليا

بطبقة من الرمال . انغرست سيارتنا باستمرار فى رمال المسيلة هذه ووجدنا صعوبة فـى الوصول إلى عينات ، التى يتحدث فيها كل شيء عن عظمة زالت . المدينة مشتتة فـوق مساحة شاسعة ؛ والفضاء الكبير المفتوح يعطى الانطباع بأن السكان كانوا كثيرين جدا فى الماضى مما هم عليه الآن . كان الحجاج فى وقت ما يأتون هنا مشدودين بالقباب السـبع التي تحتضن قبور رجال صالحين . و آل العيدروس ، إحدى العائلات العلويـة التـى كونت ثرواتها في جاوا ، جاؤا من عينات ، وهم فوق ذلك العائلة الحاكمة فى هذه المدينة الدينية ، ويعزى إليهم وإلى آلِ حامد الفضل فى بناء المنازل القليلة المصانة ، والمسـجد الأبيض الجميل ، ومدرسة الأولاد الأنيقة . قابلنا فى سبع قبات السيد علي العيـدروس ، الذى يشعر أنه منفي من شعبه فهو يعيش فى سرابايا ، لكن سيحتل فرد آخر من العائلـة مكانه هنا بعد سنوات قليلة . كان سعيدا بلقاء شخص يعرف جاوا ودعانا لتناول الشـاي معه . أخبرنا أن عينات تفتخر بوجود ثلاثة عشر مسجدا ، بينما سـكانها فـى الـوقت الراهن ...٥ نسمة . ويجلب ماء الشرب من مسافة بعيدة ، حيث أن الماء المحلي غـير صالح للشرب . والسيد عبد الله الحامد ، الذى قضى عشر سنوات فى دار السلام ، كـان أيضا سعيدا بالفرصة التى سنحت له بالتحدث مرة أخرى مع الأوربيين فجاء إلى مجلـس السيد علي . وله بعض المعرفة بتاريخ بلاده القديم فأخبرنا عن السد الكبير الـذى كـان قائما فى فترة ما قبل الإسلام بين قبر هود والبحر . وكان تحطيم ذلك السد بداية تدهـور حضرموت. وللسيد عبد الله نظريته الخاصة حول الوسائل التى تراكمت بـها الحجـارة الضخمة فوق بعضها البعض فى المبانى التى شيدت فى الفترة التى سبقت الإسلام ؛ أكـد أنه رأى صورا لأفيال فى الأنقاض ويفترض أنه بواسطتها حملت تلك الأحجار الثقيلة إلى مواقعها . وأشك إذا كان هذا الافتراض صحيحا ، على الرغم من أن الأفيال لعبت حقـا دورا فى التراث التاريخي للجزيرة العربية . لقد بنيت القلاع الضخمة فوق تلال صخريـة عالية ، ومنحدراتها تكاد لا تكون عملية للتسلق حتى بالنسبة للإنسان .

هوامش

(١) هو السيد أبو بكر بن سالم السقاف رجل عينات

(٢) نجد صورة النخل المتداعى فى القرآن فى آيتين : تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر (القمر:٢٠) . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (الحاقة :٧)

(٣) محمد بن يحي بن عقيل من العلويين . زعيم ديني وسياسي . كان صديقا للإمام يحي. دعا إلى الخلافة الإسلامية ، وهذا هو السبب فى نفيه . وربما كانت له اتجاهات سياسية لا تتفق مع سياسة السلاطين فى حضرموت

(٤) هو السيد حسن بن عبد الله الكاف الذى تبرع بالمبلغ عام ١٩٢.

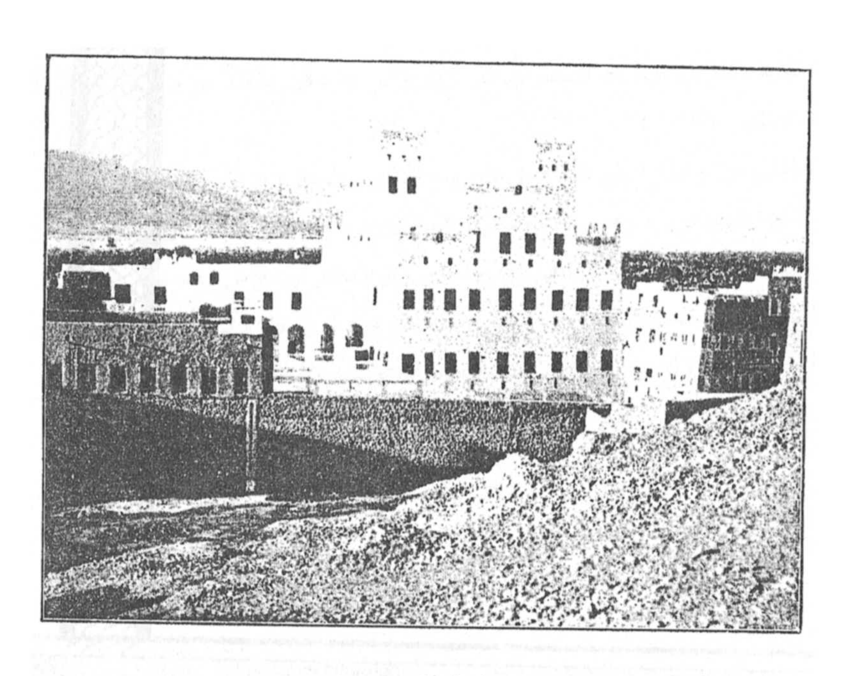
(٥) تحدث السيد سالم بن عبد الله الشاطري عن زيارة قبر هود فى مقابلة مع صحيفة الأيام (عدد ٣١٩ ، ٢٢ ديسمبر ١٩٩٦) .

هذه مقتطفات من حديثه : يقع قبر هود على بعد ثمانين كيلومترا من تريم . دفن فى وادى الأحقاف ٣٥ نبيا منهم هود ، وهو موقع لسوق قديم من أسواق اليمن . تبدأ الزيارة فى الأول من شعبان ، لكن المراسيم الفعلية تبدأ فى اليوم الثامن وفىالعاشر.وتمارس عدد من الطقوس ، تنتهى بموكب يتقدمه المنصب يتجه نحو الجبل حيث قبر هود ثم يهبطوا إلى أسفل القبة إلى مكان يسمى الناقة وهو صخرة كبيرة . وهناك تعقد الحضرات وتنشد الأناشيد وتلقى كلمات الوعظ من رموز العلم . ولم يطرأ تغيير كبير على مراسيم الزيارة عبر تاريخها .



الفصل الثالث عشر

أيامنا الأخيرة فى تريم



قصر السلطان في تريم

استقبلنا عند عودتنا إلى تريم بعاصفة من الأسئلة وكان علينا أن نقـــدم وصفـــا مفصـــلا لتجربتنا فى بئر برهوت . اندهشوا جميعهم عندما سمعوا أنها ليست فوهة بركان . وفـــى إجابتنا على السؤال عن ما هي حقيقتها أجبنا أنها احد الكهوف العديدة التى اعتاد الله خلقها فى جبال تكوينات الصخور الجيرية . وقدم السيد علي العطاس لمجموعة من المســتمعين المشدوهين وصفا دراميا لما رأى وسمع وتجربته فى الكهف الذى لم يتجرأ رجل من قبله على دخوله .

تجمع علماء ووجهاء المدينة فى صباح اليوم التالي الجمعة ، الخامس من يونيو ، فـــى منزل الكاف . كان اللقاء هذه المرة مفعما بالحيوية ؛ طرحت العديد مـــن الأسئلة عـــن الأنقاض وعن بئر برهوت ، وتم التعبير عن الموضوع بآراء شيقة. فتحدث أخ محمد بـــن عقيل ، العالم الحضرمي ، وهو رحالة حضرمي، عن بقايا ما يســمى ســد الحمـــيريين العظيم ، الذى فحصه ووصفه أخوه . و يقدر أنه قد انقضت ٦٠٠ سنة منذ خراب الســد، و لابد أنه لم يحدث بفعل الفيضانات إنما بفعل الإنسان . ولابد أن الخزان كان مبنيا كله مـــن الطين حيث لا توجد بقايا لشظايا صخور . وحسب ما ذكر بعض الرواة، فيمكن العثـــور على العديد من الحجارة الضخمة جيدة النحت فى أسفل مجرى السد . وقال محمـــد بـــن عقيل فى ورقته إن السد يمكن إعادة تشييده بسهولة ،لأن موقعه مناسب جـــدا . الـــوادى الجانبي "أ" متصل مع الوادى الجانبي "ب" ، حيث تقوم عتبة منخفضة من حجر ولا تشكل عائقا حقيقيا . لذلك وجد الماء الفائض منفذا عبر تلك الوديان الجانبية . فلم يقـــع ضغـــط ثقيل على الخزان . لقد قام بن عقيل بدعاية واسعة طوال حياته لإعادة بنـــاء الخـــزان . وهناك ثلاث قبائل لها مصلحة مباشرة فى الأمر : آل جابر الذين يســـكنون فـــى بدايـــة المجرى عند وادى عدم ، والمناهيل الذين يقع مكان الخزان القديم فى منطقتهم ، و يســكن بنو آل تميم بين القبيلتين المذكورتين . وفوق ما ذكر بن عقيل فإن المناهيل قد وعـــدوا بإعطاء نصف تربة الراسب الطفالي وكل الأرض القاحلة فى منطقتهم لأي شخص يعيد السد للعمل مرة أخرى .

السؤال البديهي الذى طرح هو لماذا لم ينفذ هذا العمل ، والمفترض أنه هام جدا بالنســـبة لحضرموت ؟ إنه السؤال الكبير الملح ، والذى يطرح أكثر فأكثر للتفكير والمناقشة فـــى

الدوائر المتقدمة من الذين فى الخارج و يشعرون بأسى فيما يخــص تخلــف موطنـــهم . وأثيرت هذه الأسئلة المؤلمة مرة أخرى ولفتوا انتباهنا لها قبــل وداعنـــا بواســـطة هـــذه المجموعة من الرجال الذين يشعرون أنهم مسئولون عن مســـتقبل حضرمـــوت . كـــانوا يريدون سماع إجابتنا بالرغم من أنهم يعرفونها جيدا . الضعف الأساسي هنا هو انعـــدام الوحدة . لقد أدركوا من التجربة أنهم لا يمكن أن يحققوا هذه الوحدة بأنفسهم . لذلك يرون من الضروري قدوم سلطة قوية تكون أقوى من كل المجموعات الصغيرة فى البـــلاد ذات المصالح المتضاربة ، سلطة تستطيع فرض الوحدة وتضع بأمر قاطع حدا للحروب القبلية الانتحارية . لكن هذا مجرد إزاحة الواجب الشاق ، أي الهروب . التغيير للأحسن لا بـــد أن يأتى من داخل البلاد نفسها : لابد أن يتحملوا عبء مسئوليتهم . ويبدو أن الظـــــروف أصبحت مناسبة الآن . وفى رحلة عودتنا شاهدنا المزيد من مآسى الحرب وإرهاقها .

بعد التشاور مع مضيفنا وضعت الخطط التالية لرحلتنا . نسافر مـــرة أخـــرى بالســـيارة صاعدين وادى حضرموت إلى قعوضة، عن طريق سيؤن وشبام . وعلينا أن نحاول مـــن هناك السفر بالجمال فى مراحل سريعة عبر المنطقة الرملية المنبسطة رأسا إلى نصـــاب ، وهي أقصى نقطة داخل الأراضى تحت الحماية البريطانية . وإذا تبين أن الطريـــق مـــن قعوضة إلى نصاب غير آمن بسبب عصابات قطاع الطرق ، فيجب أن نســـير بالجمـــال صاعدين وادى عمد إلى مدينة عمد ونحاول أن نعبر من هناك إلى نصاب . وما إن نصل هناك ، وبمساعدة البريطانيين ، فمن المؤكد أننا سوف نمضى قدما ، حتى ولو بالطـــائرة إذا دعت الحاجة ،إذ يوجد مطار عسكري بريطاني فى نصاب . وقدرنا أن كل الرحلـــة إلى عدن سوف تستغرق من أسبوعين إلى ثلاثة .

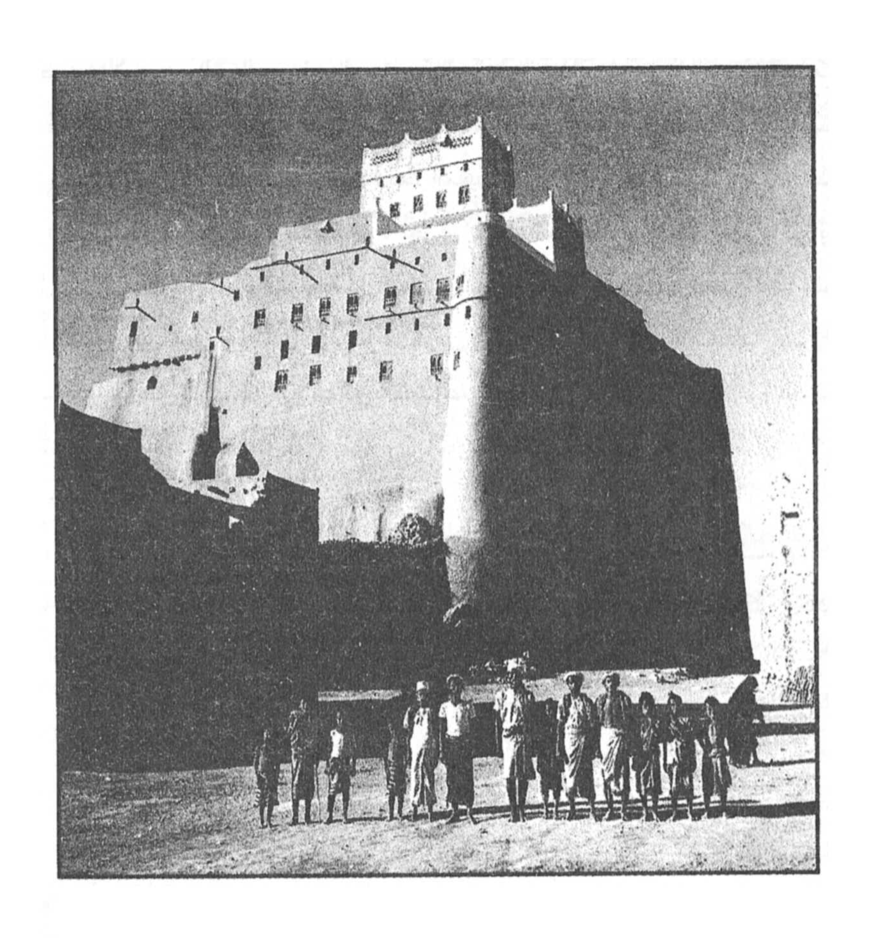
كان السادس من يونيو يوم الاستعداد والوداع . حزمنا أمتعتنا لترسل بالجمال إلى الشحر. أما نحن فلم نأخذ معنا سوى لبسة واحد من الملابس (وهذا ليس كثيرا فى أرض الحرارة الجافة هذه) ، وبطانية نستعملها فى الركوب وننام عليها ، ووضعناها فى سجادة صغـــيرة نستعملها مرتبة عندما ننام فى أرض الجول الصخرية . مضاف إلى ذلك ، قرب المـــاء ،، براد ، بعض أكواب الشاي ، وعنقود كبير من أجود أنواع التمر التى تزرع فـــى بســـتان السيد الكاف ، سكر ، ومربعات من شوربة ماجى ، وبعض البسكويت الخفيف . ثم ذهبنـــا

لنعبّر عن عرفاننا للسيد أبوبكر، وقدمنا له بعض الهدايا ولأبنائه وزوجاته(١) وخدمه . وذهبنا فى جولة أخيرة بسيارته عبر بساتين النخيل حتى بوابة المدينة، ثم عبرنا السهل الصخري الأجرد ، إلى الجروف الصخرية الجرداء أيضا . ثم سرنا مرة أخرى مع أولئك الرجال الذين يبدو أنهم تغلبوا على تحيزهم ضدنا ، نحن الكفرة ، فمنحونا صداقتهم ، بل وحتى ثقتهم . مازال الطقس حارا جدا بعد المغيب فى سهل تريم الصخري ؛ فالحرارة التى امتصها أثناء اليوم أخذ يشعها مرة أخرى . من الملاحظ أن الطقس أبرد فى بساتين النخيل وبين مزارع الذرة المروية من الطقس داخل أسوار المدينة . بعض هذه السبرودة سببها التبخر من الحرارة . والتقينا مرة أخرى وللمرة الأخيرة مع الشباب من عائلة الكاف عند حوض السباحة فى حدائق السيد عمر بن شيخ الكاف . هناك أدوا الصلاة ، وبدأت بعدها مسابقات تحت الماء من أول الحوض إلى آخره. ثم شربنا الشاي ، وأكلنا تمرا طازجا من الحديقة .

لعله من الملفت كيف حافظ أولئك الشباب على الروح الحيوية البسيطة وهم يستمتعون بعطلة طويلة فى أجواء الترف . كانت زيارتنا والحديث معنا لها تقديرها بكل تأكيد لكن يبدو أنهم قانعين بحياتهم الهادئة .

هوامش

(١)لم يكن للسيد أبو بكر الكاف سوى زوجة واحدة ،تزوجها بعد وفاة زوجته الأولى . ولكن الكاتب اعتقد أن كل الأثرياء فى البلاد العربية لهم أكثر من زوجة .

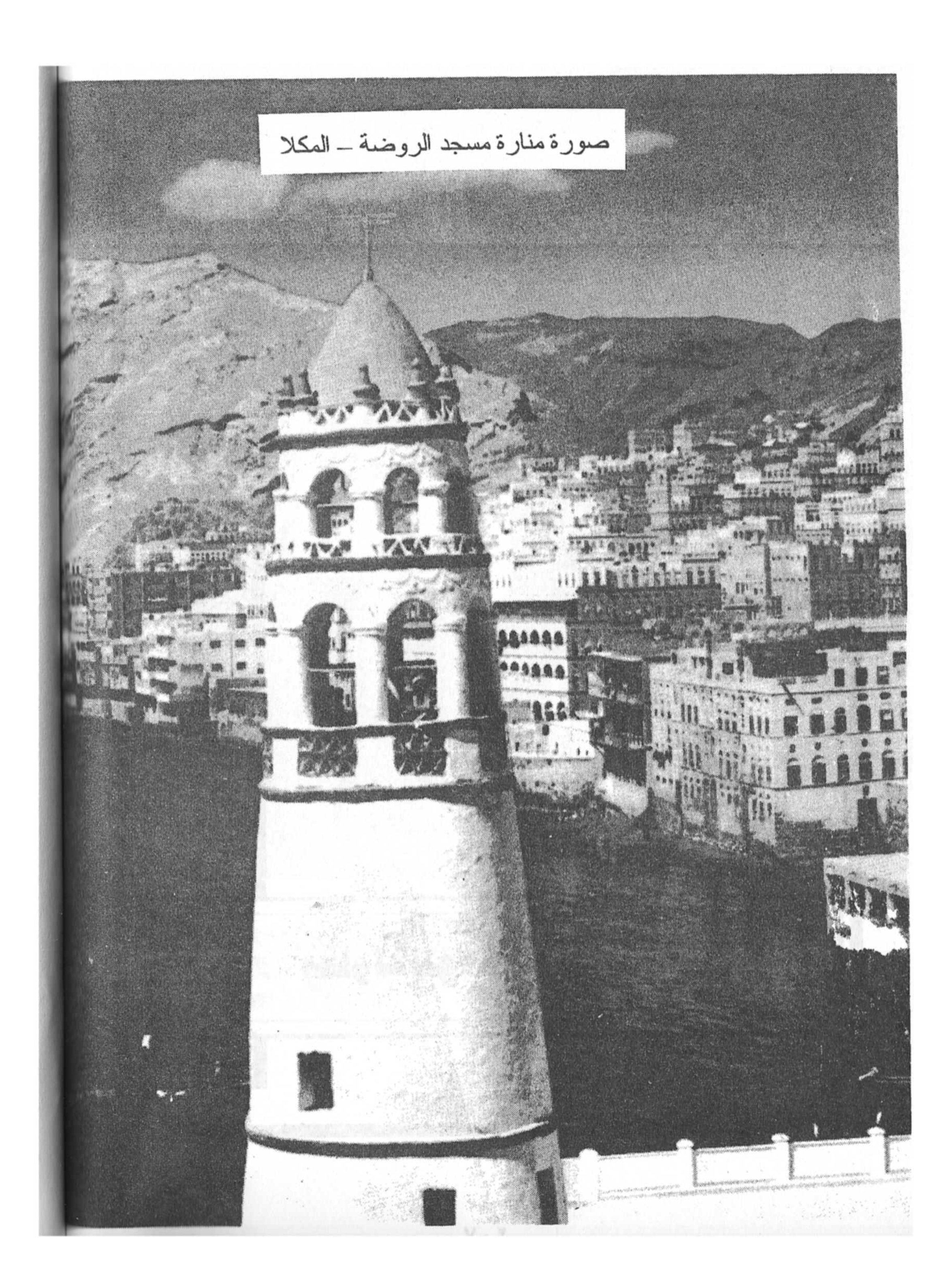


حصن حوره



الفصل الرابع عشر

محاولة للوصول إلى عدن برا



صورة منارة مسجد الروضة – المكلا

(١) العودة عبر حضرموت الداخل إلى مدخل وادى عمد

كانت تنتظرنا سيارتان فى صباح اليوم التالى لتأخذنا إلى سيؤن . و مــن هنــاك يتولــى السلطان توصيلنا إلى السلطان فى القطن ، وهكذا حتى نصل إلى قعوضة . ســـرنا الآن عبر السهل ، ملتفين حول الصخرتين الناتئتين . وأحيانا تنغرس الســيارة بســرعة فــى الرمل، لكن وصلنا سيؤن على الأقل عند الساعة العاشرة . استقبلنا السلطان وهو محــاط بأتباعه، كما يستقبل أصدقاء قدامى وكان من المستحيل مواصلة السير فى الحال : علينــا أن نبقى لتناول الطعام . و سوف يعد السلطان فى هذه الأثناء خطابــات تعريــف إلــى الزعماء المؤثرين فى المنطقة التى يجب أن نمر عبرها . وأعطوا فون فيسمان خريطــة تخطيطية لحضرموت والحدود المحيطة رسمت فى جاوا ، بينما قــدم لنــا ســوّيا هديــة تذكارية عبارة عن سيف مقوّس بغمده المطهم بالفضة . ثم سألونا باهتمام كبــير ، حــول انطباعاتنا عن تريم والمناقشات التى دارت هناك بخصوص إحتياجات حضرموت . كــان لدي انطباع أن البلاد بدأت تستيقظ ، بتأثير مجموعة الرجال فى تريم ، وبــدأت تــدرك اهتماماتها المشتركة وتصبو للوحدة ، ولسلطة مركزية قوية . وأخبرونا فى كل من تريــم وسيؤن أن ضفة الوادى الجنوبية بين سيؤن وشبام أصبحت مغلقــة بســبب الصراعــات العدوانية . وأكد السلطان ، أنه لا توجد أي خطورة الآن ، يمكننا أن نسلك ذلك الطريق ، وهو أيضا رائع جدا . وتبعنا بالطبع نصيحته . مضى الطريق تقريبا بلا عوائــق عــبر بساتين النخيل الرائعة والقرى بحصونها الغريبة الرمادية البنيّة المبنيّــة مــن الطيــن ، تحيطها منازل ناصعة البياض بفن معماري رفيــع . إنــها أغنــى وأروع منطقــة فــى حضرموت الداخل . ومركزها الرئيسي الغرفة ، مدينة مشهورة ومهمــة فــى العصــور القديمة ، لكنها انحطت الآن إلى الدرجة الثانية بسبب الحروب المستمرة . ودخلنا منطقــة القتال بعيدا من سيؤن . لكن لا خطر يتهددنا ، إذ أن السلطان محايد فى الصــراع بيــن مجموعات العوائل الذين يعتبرون أنفسهم مستقلين والذين يتقاتلون فيما بينهم للسيطرة على هذه الأرض الحدودية بين القعيطي والكثيري. ويخيّم صمت مميت على القــرى الجميلــة الواقعة بالقرب من بعضها البعض وسط بساتين النخيل. يبدو أننا الوحيدون على الطريق فى أرض خلابة ، التى إما تلاشى سكانها أو هم نيام . ولا يتوقع سائقو سياراتنا أن يطلق

علينا الرصاص ، لكنهم ساروا على كل حال بعيدا من القرى التى يختبئ فيـــها بالتــأكيد مراقبون يتابعون أي حركة. ولم يمض وقت طويل حتى اعترضتنا خنادق محفورة فـــى عرض الطريق ، أرغمتنا على اتخاذ التفافات طويلة. وأشـــار جنـــود السلـطان الذيـن يرافقوننا إلى قرى لثلاث مجموعات فى حرب مع بعضها البعض . وسرعان ما اختلطـت حتى لم نستطع أن نميز بينها . والخنادق عميقة ومتعددة ، ويمكن عبرها فقط أن يدخـل الناس أو يخرجوا من قراهم ومنازلهم ليصلوا إلى بساتينهم . وبما أن المجموعات الثـلاث تعتمد كلها على البساتين الرائعة فقد اتفقوا فى ما بينهم على أن يحافظوا علـــى اســتمرار العمل الضروري .

اقتربنا من مدينة الغرفة ؛ وهي محاطة تماما بسور وبوابات مغلقة ، ومطوقـــة بخنــادق عريضة عميقة . وتمتد بساتين النخيل حتى سور المدينة . والصمت مرعـــب . وحتـــى نتفادى خندقا كان علينا أن نفارق طريقنا بالقرب من إحدى البوابات الركنية . ويظـــهر أن الحراس كانوا نياما ، لأنه ما إن أصبح صوت سياراتنا يسمع مباشرة ، حتـــى وصلتنـــا أصوات الإنذار من خلف البوابة . وكنا قد ابتعدنا فقط قليلا عندما انفتحت البوابة ســـريعا واندفع منها مجموعة من الجنود وبنادقهم مشرعة . وصعق جماعتنا من الفزع وصـــاحوا بأننا نتبع للدولة . عندها انزلت البنادق وسمعنا صوت الترحاب ، لكن ســـائقينا اندفعـــوا بأقصى ما أمكنهم من سرعة ليهربوا من هذا المكان العدواني .

دخلنا الآن المنطقة التى تخص المجموعة الثالثة ، رئاستها فى العقدة ، حيث يعيش الـثري الشيخ سالم بن جعفر بن طالب . وكان علينا أن نسجل له زيارة . فقد قدم لنا دعوة حـارة لزيارته فى رحلتنا نحو الداخل ، لكن سلطان شبام ، الذى تولى ترتيبات توصيلنا فى ذلك الوقت ، أصدر أمرا بتجنب منطقة القتال . الشيخ سالم مواليا لهولندا ؛ وله ثروات طائلة متكدسة فى سرابايا ، وكان أحد الحضارم المشهورين فى تلك المدينة .

المنطقة حول العقدة فردوس من جمال . تنتشر وسط مزارع النخيل الصغـــير القصـــور البيضاء والرمادية ، بصفوف نوافذها الكبيرة ، وأطراف أبراجها الحادة البديعة الممتـــدة على حافة السطوح . وخلف هذا التلوين البهيج الأخضــــر والرمـــادي والأبيـــض تقـــف الصخرة المصفرّة البنيّة . توجد فى الحدائق أيضا الكثير من شجيرات الليمون والرمـــان

والباباي . والمباني التى يسكن فيها الشيخ سالم محاطة بسور عال، بـــه بوابـــة خشـــبية ضخمة مغطاة بألواح حديدية ، تقود إلى ساحة . لقد أدت النقاط الخارجية واجبها وأعطت الإشارة بوصولنا ، فانفتحت البوابة واسعة ووقف الشيخ سالم بنفسه ليستقبلنا وهو محـــاط بجنوده وأبنائه . إن عواطف الشيخ الأشيب الموالية لهولندا معروفة جدا ، ولـــم يخالجنـــا الشك فى أي لحظة أن استقبالنا يأتى من الأعماق . ودارت المناقشة باللغـــة الملاويـــة ، وذلك تحية لوجود المسؤول الرسمي لحكومة هولندا فى الهند الشرقية . وخلق هذا جـــوا من الإلفة وكان أيضا ميزة لأن الجنود والأطفال لا يمكنهم متابعة الحديث . وامتلأ سريعا المجلس الكبير لهذا البناء المهيب بجمهور من الناس المهتمين ، الذين لا يمكـــن إبعـــادهم حسب تقاليد البلاد . كان هذا مصدر استياء كبيار بالنسبة لمضيفنا ، إذ يبدو أن فى ذهنـــه الكثير ، ورفضنا بتصميم دعوته للبقاء بضعة أيام فقد كان علينا أن نصل إلى شبام قبـــل حلول الظلام . وبما أن الوقت أصبح ضيقا ، فقد دخل فى الموضوع رأسا . فدار حديـــث صريح حول البؤس هنا تبعه سؤالي لماذا لا يفضل أن يعيش فى أمان فى منزله الجميـــل فى سرابايا بدلا من أن يعيش شبه أسير فى قصره فى العقدة . إنه يفضل حقا أن يباشـــر الإشراف على أعماله فى جاوا ، لكن يجب أن يكون الآن هنـــا باعتبـــاره رب الأســـرة والمدافع عن مصالحها . لقد استمرت الحرب طوال السنوات الست الماضيـــة ، وســـالت الدماء أكثر وأكثر ، وصيحات الثأر التى تتكرر باستمرار تبعـــد أي احتمـــالات للســـلام المرغوب بشدة . ولا يبدو أن الحرب يمكن أن تنتهى بدون تدخل قوة من الخـــارج . وأكـــد بجدية كبيرة ضرورة تدخل حكومتنا لتتوسط بين الأطراف المتصارعـــة . لقـــد فشـــلت إنجلترا : فبعد انفجار الصراع مباشرة اقترح الوالى فى عدن فترة ستة أشهر هدنة وقـــام باستدعاء الزعماء من الطرفين . وذهبوا وانتظروا فى عدن أربعـــة أشـــهر علـــى أمـــل الوصول لحل . وانتظروا بلا جدوى . الوالى لا يفهم المسألة ، ومساعده المختص ذهـــب قبل فترة وجيزة فى عطلة ، وأصبحوا فى الحال تحت رحمة مـــترجم هنـــدي مرتشـــي وفاسد. وعاد زعماء القبائل المتحاربة إلى حضرموت دون الوصول إلى أي نتيجـــة . إذا قامت حكومة هولندا فى الهند الشرقية بهذا الدور ، يمكنها أن تأمر بوقف العداءات بـــدون تدخل مباشر ، والسبب هو أن البلاد مليئة برعايا هولندا الذين لهم مصالح مالية كبيرة فى

جاوا . فإذا قامت حكومة الهند الشرقية بمجرد التهديد بالابعاد وبمصادرة ممتلكات أولئك الذين لا يفرضون فورا على عوائلهم فى حضرموت وقف العداءات ، عندها يمكن أن يتحقق السلام . ويبدو هذا منطقيا جدا . وقام المترجمون بإعطاء نبذة قصيرة عن اقتراح مضيفنا لأعضاء الحامية المتكدسين ، الذين استمعوا باهتمام شديد وبتعابير تدل على الموافقة العامة . بل ذهب الشيخ سالم أبعد . فاقترح أن أبقى ليوم واحد وأتحدث مع زعماء المجموعات الثلاث ، فسيكون تحقيق السلام مسألة سهلة بالنسبة لى، لأن كل واحد يشتاق له من أعماق قلبه .

كثير من أفكارهم ليست جديدة عليّ : سمعتها من قبل فى ديار آل البقري ، وفى سيؤن ، وفى تريم. لكنها لم تطرح أبدا بمثل هذا الإلحاح و بهذا الشكل المحدد . وكنت مرغما أن أوضح أنه من المستحيل أن أقوم بدور الوسيط . فطالما أن الهولنديين لا يمكنهم دخول أبواب حضرموت إلا بإذن بريطانيا ، فإن الاتصال المباشر بين حكومتنا والقوى المصطرعة فى تلك البلاد يبقى صعبا . مضاف إلى ذلك ، أنه طالما لا توجد سلطة مركزية فى البلاد، يصبح مثل هذا الاتصال خارج الموضوع . يمكنني فقط أن أنصح بالنضال من أجل الوحدة وتكوين سلطة مركزية . وإذا لم يستطيعوا تحقيق هذا بأنفسهم، فإن التعاون مع السلطات البريطانية فى عدن ، التى لجأوا إليها فى أوقات سابقة، يبدو أنه السبيل الوحيد .

كان الصراع حربا بين علاقات ، وأصبحت الحكومة القعيطية متورطة أيضا فيها الآن . واستطاع شخص هو صالح بن عبيد بن عبدات أن يضم الغرفة إلى نفوذه بالخديعة. كان هذا المكان فى الماضى مدينة حرة ، بلا دولة وبلا ضرائب . وكان الإحساس بأن الاحتلال لا يطاق ، ليس فقط من الفروع الأخرى من عائلة صالح ، الذين كان يملؤهم الحسد ، لكن أيضا من الحكومة القعيطية . فقد كانت هناك من قبل ترتيبات بمعاهدة مع بريطانيا ، قسمت السلطة فى حضرموت الداخل بين مجموعتين : القعيطي والكثيري . ولا يمكن للقعيطي التعامل مع سلطة ثالثة . وشارك الاثنا عشر فرعا الأخرى من آل عمر -- عائلة صالح بن عبيد -- فى الصراع ، ومنذ ذلك الوقت لم يجدوا له حلا .(١)

استأذنا عند المغيب فى الرحيل من هذه المجموعة من ثلاثة منازل ريفية التى تنتصب بألوانها البيضاء والرمادية بشكل مؤثر ، فى واجهة النخيل الداكن الخضرة . وتجمّع الجنود والأطفال ليستمتعوا باللحظات الأخيرة لهذا التنوع القصير فى حياتهم الرتيبة وهم محاصرون . ثم سرنا عبر بساتين نخل صغير ، وبعدها فوق قطع من الرمال بلا زرع ، فقادنا الطريق إلى آخر مركز حدودي للقعيطي فى حضرموت ، شبام . وحسب ما هو مرتب ، فقد أعلنا وصولنا مباشرة لأصدقائنا "آل التوي" و"آل لجدم" فى بستان منزلهم . وبقينا مرة أخرى فى هذا القصر من ألف ليلة وليلة ، سبحنا فى الحوض الصافى ، واستمتعنا بالرفاهية التى قدمها لنا هنا أصدقاؤنا الكرماء .

نذهب فى اليوم التالي إلى شبام لنلتقط صورا للنقوش والتماثيل الحميرية ، الموجودة فى دكان تاجر آثار محلي. أصبح الحر منذ الآن بين صفوف المنازل العالية لا يطاق ، وفوق ذلك يجتمع السوق . كنا سعداء بأن ندير ظهورنا عن نيويورك حضرموت الرائعة غير الصحية ونذهب بالسيارة إلى قصر السلطان فى القطن .

استقبلنا السلطان علي بن صالح بن محمد بن عمر بن عوض بن عبد الله القعيطي استقبالا حارا . ووضع تحت تصرف فون فيسمان حارسا ليدله على بعض النقوش الصخرية والأنقاض فى الضفة الجنوبية للوادى . الحرارة مرتفعة جدا والصخور شديدة الانحدار وعالية ؛ كان الدليل قليل الاهتمام بهواية المسيحيين هذه التى لا يجد لها تفسيرا ، فعاد فون فيسمان محبطا نوعا ما من نتائج سياحته القصيرة . ثم ذهبنا سويا بسيارة السلطان إلى عقران، وهي قرية فى منتصف الطريق إلى شبام ، فى مدخل واد جانبي قصير فى الجدار الجنوبي للوادى الرئيسي . كان هيرش وبينت وزوجته هنا . وأعطى هيرش وصفا مفصلا يتضح منه أنه كان بها الكثير الذى يمكن مشاهدته فى ذلك الوقت أكثر من ما هو الآن . وأخبرنا الناس أن السلطان الأخير كان يمتلك حجرا به نقوش ، أخذه من المسجد الذى كان مبنيا فيه وأهداه إلى أحد الإفرنج . ومازالت بعض الجلاميد من الحطام موجودة فى عقران، وبعدها منازل طينية بسيطة مبنية على أساسات يرجع تاريخها إلى الأزمان التى سبقت الإسلام . وضعت الجدران والسلالم المتساوية التى تقود إلى الطوابق

المسكونة من المنازل مع بعضها من الحجارة، والصقت بشكل رائع بنـــوع مــن مــادة المورتر غير المعروف فى الوقت الحاضر .

بعد أن تناولنا الطعام مع سلطان القطن ذهبنا بالسيارتين إلى هينن . اختفى النبــات عنــد الفرط ، ثم سرنا لفترة قصيرة فوق طبقة الراسب الطفالي ، لكن أصبحت كتل الرمال بعد ذلك هي السائدة . وتهب العواصف الرملية فى هذه المنطقة دائما بعد الظهر ؛ ســـببها أن الرمل يصبح ساخنا جدا نتيجة لارتفاع أعمدة الهواء الساخن . لم يمض وقت طويل حتــى امتصنا حجاب من الرمال المحرقة وكنا نصارع طريقنا الوحيد إلى الأمام . و يظهر مــن وقت لآخر جزء من حائط الصخر من بين الضباب ، كان ذلك كافيــا للســائقين لتحديــد إتجاههما . بعد أن عانينا قليلا وسرنا بلا هدى وصلنا بالفعل إلى هينن . وتعطلت إحــدى السيارتين ، وبعد محاولات فاشلة لإصلاحها ، تركناها خلفنا . ولسوء الحظ كان صديقنــا بن مرتع بعيدا ومعه سيارته . من هنا يبدأ وادى حضرموت وعرضه ستة أميال ، رغــم ذلك خاطرنا بالعبور من هينن فى الضفة الشرقية إلى قعوضة فى الجانب الجنوبي بسيارة واحدة محملة فوق طاقتها . كان ذلك فى النقطة التى يتحد فيـــها وادى رخيــه ووادى لكسر ووادى عمد ويكونون وادى حضرموت الكبير . ثم واصلنا الســـفر فـــوق الطبقــة الطينية ثم مرة أخرى فوق كتل الرمل ، سائرين بأقصى ما يمكن حتى نتفادى الوحل فـــى الرمال . وكانت قمة الصخر العالية خلف قعوضة معلما جيدا

تخلصنا قبيل المغيب عند بوابات القلعة المغلقة مباشرة من ضباب الرمل، أمـــام الدهشــة الخرساء لحراسها. كانت الأبواب الخشبية الصلبة فى البوابة مغلقة ؛ ولا يظهر أي كـــائن حي وسط المنازل الطينية الأخرى ؛ ولا توجد شجرة أو شجيرة بها ظل وسط كـــل هـــذا المحيط من الرمال والراسب الطفالي والصخر . وقعوضة محاطة بالأعداء ومن المتوقــع أن يسقط الرصاص بعد المغيب من مكامن الرماة الحاذقين ، فى القـــلاع علـــى حـــائط الصخر. لكن انفتحت الأبواب بعد سماع بوق سيارتنا ، وحملقنا فى وجوه الجنود البلـــهاء المتعجبة والصبية الذين خفوا لملاقاتنا .

الشيخ مبارك بن محمد العجوز يخشاه البدو ويسيطر على القوافل المسافرة من قعوضـــة عن طريق الحدود الجنوبية للربع الخالي إلى اليمن وإلـــى منطقـــة عـــدن . وإذا تحمـــل

المسؤلية وأمدّنا بالجمال والحراس المسلحين فسوف نخاطر بمسيرة اضطرارية إلى نصاب . ومن سوء الحظ كان الشيخ البدوي الجبار مريضا . واستقبلنا جنوده بطريقة أخوية جدا وأخذونا إلى المجلس الواسع ، الذى سرعان ما امتلأ حتى الخناق بأشخاص مهتمين بوصولنا ؛ وتقدموا كلهم لتحيتنا بقبضة قوية من اليد ثم بدأوا يشبعون فضولهم بإلقاء الأسئلة علينا . يظهر أن الاتصال مع جاوا وثيق هنا : يتحدث كثير منهم الملاوية وكذلك كل الصبية الذين كانوا يتقدمون إلى الأمام بشغف . وقد ساهمت الأموال من جاوا على استمرار الحرب حتى الآن ، بالرغم من أن آخر شجرة نخل فى البساتين الجافة قد ذوت منذ وقت طويل .

سرعان ما أدى الحديث بالملاوية إلى كسر حاجز التحفظ الأولي لدى مضيفينا ، ولم يمض وقت طويل حتى كنا نتحدث بمرح مع أولئك الشباب الصريحين الأذكياء عن جاوا، أرض الوعد . الآن أصبح الجنود على استعداد للحديث مع الشيخ الكبير ، ليطلعوه على رسائلنا ويقدموا له طلبنا . جاءوا فيما بعد وأخذونى لرجل مريض؛ مبارك بن محمد. كان الزعيم الأشيب يرقد فى غرفة صغيرة . وقال إن المنطقة التى نرغب أن نعبرها أصبحت غير آمنة بمجموعات كبيرة من البدو ، وأن حرسا من عشر راكبى جمال لن تحمينا منهم. الاحتمال الوحيد بالنسبة لنا أن نوحد قوتنا مع قافلة . وهذه تتحرك فقط كل أسبوعين أو ثلاثة ، فإذا كان لنا الصبر لننتظر فسوف نسافر عندها مع ..٢ إلى ..٣ جملا ومجموعة قوية من الحراس . لكن ليس لدينا وقت ولا يمكننا أن ننتظر ويجب أن نحاول الطريق الدائري عن طريق وادى عمد . كما أننا لا نحبذ فكرة البقاء فى هذه القلعة المزدحمة وزعيمها المريض و شعرنا أيضا أنهم لا يرحبون بنا كثيرا هنا ، فطلبنا الإذن بالذهاب لقضاء الليل فى ديار آل البقري التى كانت لنا فيها تجربة حلوة فى رحلتنا إلى الداخل . وكان رفاق سفرنا ، السيدين علوي وعلي العطاس ، يعرفان أن ديار آل البقوي أكثر ثراء من قعوضة وسوف يعدون لنا بالتأكيد وليمة ، وكانا يؤيدان هذا الاحتمال مدفوعين بصيحات الجوع . وبعثنا رسولا أمامنا ليعلن قدومنا ، لأننا قدرنا المسافة من السطح بين خمس عشرة إلى عشرين دقيقة .

(٢) عبر الخنادق من قلعة محاصرة إلى أخرى

تحركنا بعد المغيب مباشرة ، وسار أمامنا دليل ، وخلفه جمل عليه أمتعتنا ثم سرنا نحن بعد ذلك . رافقتنا كل الحامية حتى البوابة . واحتمينا بغطاء القلعة الواقى حتى الخندق العريض العميق ، الذى سيقودنا بطريق ملتف إلى ديار آل البقري . يظهر أن نقاط استطلاع العدو قد لمحتنا ، فانهال الرصاص نحونا من أعلى الهضبة الصخرية فحثثنا حراسنا على السير . بالخندق منعرجات عديدة وكذلك فروع جانبية ومواقع مقوّاة بجذوع النخيل . وهي من الكبر بحيث يمكن أن تعبر عليها قافلة جمال بكل أمان . وتقدمنا بصعوبة مدى ساعة ونصف عبر رمال مهلهلة فى خندق متعرج حتى وصلنا منطقة كثبان رملية فضل قائدنا الطريق فى الظلام الحالك ؛ و انتظرنا كثيرا بينما كان يتقدمنا بالسير. من الخطير جدا أن يواجه الشخص نقطة حراسته ليلا ويعتبرها للعدو . فعندما سمعنا صيحات التعارف تأتى من جنود البقري ، شعرنا جميعنا بالراحة ؛ كانوا قلقين ، فعندما سمعوا أصوات الرصاص بعد أن وصلهم خبر قدومنا ، اعتقدوا أننا قابلنا العدو على حين غرة ، لذلك تحركوا ليقابلونا . ليس لنا الآن ما نخشاه من الكلاب المرعبة التى أطلقت لحراسة ديار آل البقري ليلا .

قادونا إلى احد المعاقل الصحراوية القوية وهم سعداء بوصولنا ، وصعدنا إلى شرفة السطح التى أعدوها لاستقبالنا . وبقي أحد الأخوين فى المطبخ ليشرف على استعدادات المأدبة ، بينما بقي الآخر مع الجنود فى رفقتنا . وعلقوا البنادق وأحزمة الرصاص على أوتاد قوية على الحائط . وفى الركن علقوا قربة ضخمة مليئة بماء الشرب على أعمدة متعارضة . لعل هذه كانت هي الحالة فى العصور الوسطى فى قلاع أوربا . وفى الأسفل فى الساحة الداخلية توجد حمامات ومسجد . وتصب ماء الحمام فى خزان صغير وهو عادة إناء خزفي يوضع فى الركن ، على ارتفاع ستة أقدام من الأرض . ثم تنساب الماء ضعيفة إلى الحمام عند جذب وتد خشبي من قاعدة الحوض . بهذه الطريقة يحصل الإنسان على حمام منعش بماء قليل .

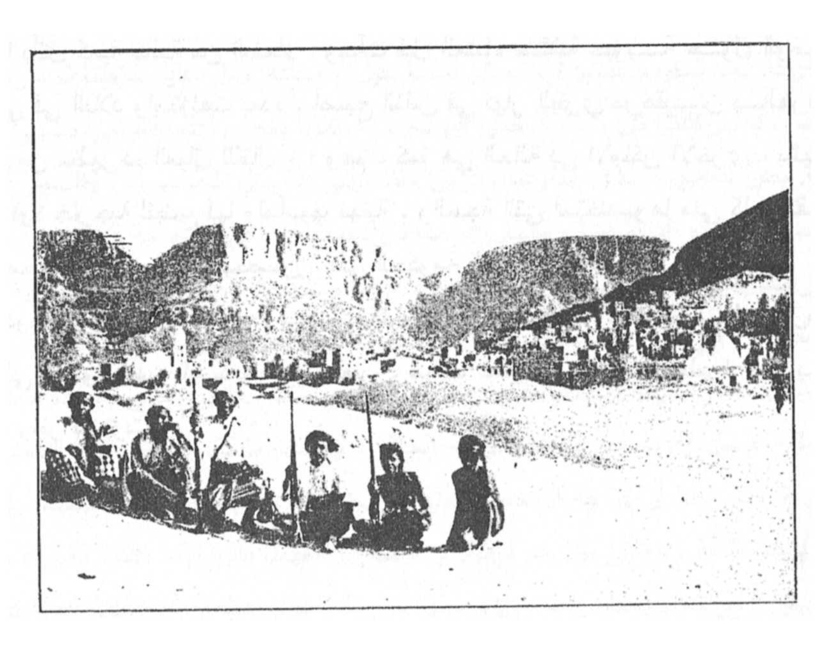
أحضرت الوليمة فى وقت متأخر من الليل . وبذل فيها مجهود كبير : الطعام مليء بالبهارات الحارة ، بالطريقة الجاوية ، إلى درجة أننا عانينا لنقوم بواجبات اللياقة نحو

مضيفنا بأكل كمية كافية من الطعام . وبدأت قبل العشاء مناقشة حيوية حول الوضع السياسي فى البلاد واستؤنفت بعده . أصبح الناس فى ديار البقري مرهقين بالحرب ، بالرغم من مظهرهم الميال للقتال ، ؛ وهم ، كما هي الحالة فى الأماكن الأخرى ، يتلهفون لتدخل قوة خارجية لتضع لها ولمآسيها نهاية . والحجة التى استخلصوها منى كانت تقول بشكل محدد إن الناس عادة يحصلون على الحكومة التى يستحقونها .

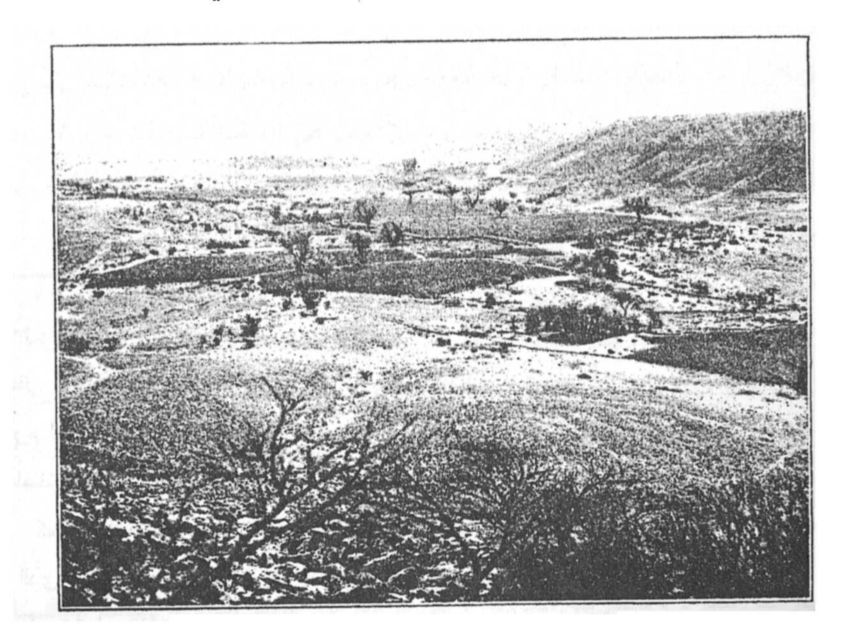
بدأ الهدوء يخيم على السطح بعد منتصف الليل بوقت طويل ،، واغتنم السيد علي الفرصة وقدم إلى مجموعة من المستمعين المصغين ، شرحا عمليا تاريخيا عن مغامراته فى بئر غمدان وبئر برهوت .

هوامش

(١) احتل عمر عبيد بن عبدات مدينة الغرفة عام ١٩٢٤ ، بدعم من أخيه صالح وهو من الحضارم الأثرياء فى إندونيسيا ومن كبار زعماء الإصلاح والإرشاد ، . ودخل عمر فى صراع مع السلطنتين القعيطية والكثيرية وكانت تدعمهما بريطانيا بالذات بعد عقد معاهدة الاستشارة معهما . كما كان مناوئا للعلويين . وتوفي عمر وصالح عام ١٩٣٩ ، وخلفهما فى الغرفة عبيد إبن صالح الذى قضى سنواته الأولى فى إندونيسيا . وفى عام ١٩٤٥ هزم عسكريا وأسر ونفي إلى إندونيسيا ، وتوفى بها عام ١٩٦٣ .



صورة للحراسة المرافقة للمؤلف في وادي عمد وتظهر في الخلف صورة حريضة

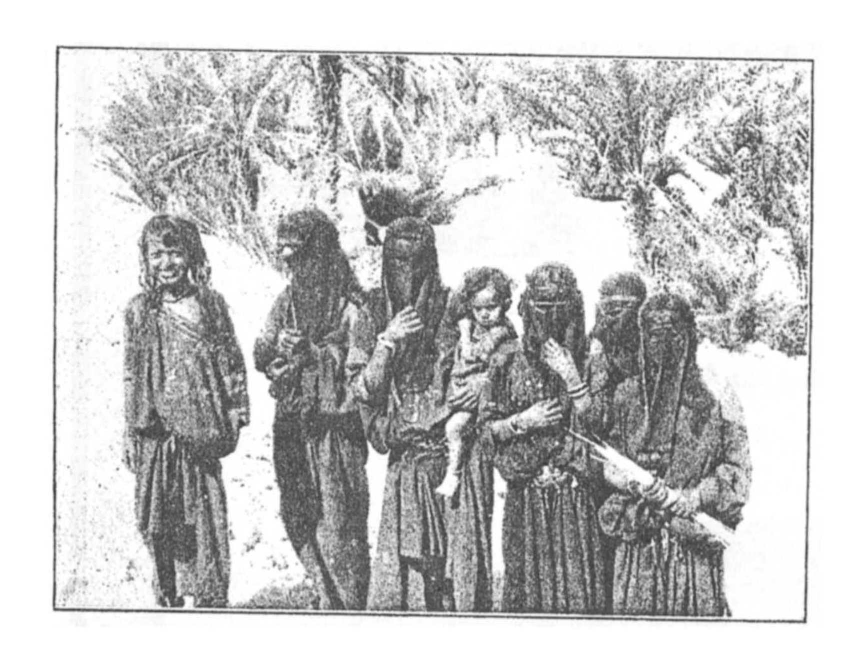


مساحات جافة في أعلى وادي عمد



الفصل الخامس عشر

وادى عمد



بدويات من وادي عمد

(١) وداعا لحضرموت

تبدأ الرحلة من ديار البقري بالجمال . لم نتوقع أن نغادر فى صباح التاسع من يونيو ، لأن ضيوفنا قضوا الجزء الأكبر من الليل فى الحديث ، لكننا أخطأنا تقدير شجاعة مضيفنا: فقد أرسل خدمه أثناء الليل لإحضار الجمال من قرية مجاورة . وعند شروق الشمس فى الصباح كانت الجمال ترقد فى الساحة مع الحرس . كنا نأمل، ونحن نجلس فوق السرج وأرجلنا اليمنى عالية فوق المخلوفة الخشبية، أن الرحلة بالجمال التى تبدأ الآن لن تنتهى قبل أن ننتقل إلى العربات فى شقرة على الساحل الجنوبي أو فى لحج بالقرب من عدن . هكذا كانت تملؤنا الشجاعة المبهجة ونحن نودع معاقل الصحراء المضيافة الشامخة ، وهي مضيافة بالرغم من أنها محاصرة بالأعداء كما جفت آخر شجرة نخيل فى بساتينهم قبل سنوات مضت . ورافقنا إخوان البقري مع جنودهم حتى البوابة ، لكنهم كانوا يتخذون طوال الوقت ساترا خلف الجدران الواقية فى معقلهم . تقع ديار البقري فى وادى الكسر قريبا من النقطة التى يصب فيها وادى عمد ، فى منتصف امتداد هضبي عريض من الرمال والراسب الطفالي. و أخذت جمالنا تطأ الأرض على مهل ، ثم استدارت فى صمت نحو وادى عمد . ولم يتجرأ الأطفال فى قرى الأعداء القريبة على الخروج ليشاهدونا ويعرّضون أنفسهم للرصاص من ديار البقري . لقد التزموا السكون وأخذوا يرقبوننا من خلف جدار طيني .

ركبنا صامتين فى الضوء العنيف والحرارة الجافة ونحن نتأرجح فوق ظهور جمالنا العالية، فى السهل البلقع المتموج . ومن الأفضل أن يركب المرء جملا فى حضرموت بدلا من أن يغفو فى سيارة مزعجة كريهة الرائحة .

وصلنا حريضة فى منتصف النهار ، ولسوء الحظ كان علينا أن نغيّر الجمال . وهذا يستغرق عادة أكثر من يوم ، لكن أصدقاء العطاس يعرفون كيف يقضون لنا أمورنا بسرعة فائقة ، ففى نفس اليوم التاسع من يونيو ما بعد ظهر كنا فى طريقنا مرة أخرى فى وادى عمد .

تخلف هنا السيد علوي العطاس الذى كان رفيق رحلتنا من المكلا . يتعرف الإنسان عن قرب فى الرحلات الطويلة المرهقة بنقاط الضعف فى شخصية الآخرين، لذلك يعلو أكثر

تقدير الصفات الحميدة. كان السيد علوي ، رفيقا صبورا مرحا بالنسبة لنا نحن الإثنين الأوربيين القلقين ، بأسئلتنا التى لا تنتهى و رغبتنا فى البحث والتقصى. ونتيجة لتعريفه بنا انفتحت لنا منازل وقلوب حريضة فكانت حريضة بالنسبة لنا المفتاح إلى حضرموت .
إن ذكرياتنا المصحوبة بالعرفان عن تلك البلاد يمكن تلخيصها فى إسمين : العطاس والكاف .

(٢) فقيرة وجافة -- ولكنها غنية بالآثار

تنزهنا عبر حريضة، تصحبنا حاشية لا بأس بها ، لكن لم نودع الناس ونمتطى جمالنا إلا بعد أن أصبحنا خارج المدينة. "فريده" هو الرحالة الأوربي الوحيد الذى ادعى أنه سافر عبر وادى عمد ، لكنه ادعاء يجب علينا فحصه . والشخص الذى يجهد نفسه ليقارن وصف "فريده" الجغرافي لوادى عمد مع خريطة فون فيسمان التى فى ملحق هذا الكتاب، ربما خامرته نفس مشاعر الشك حول ذلك الجزء من وصف "فريده" لرحلاته .

عبرنا بعد مغادرة حريضة مباشرة على أكبر منطقة أثرية نشاهدها فى حضرموت . تمتد الجلاميد إلى مسافة تقرب من ميلين ونصف . وتتوفر كمية كبيرة من الصخور الصغيرة من مجرى السيل معدة فى الحال لأغراض البناء ، هذا بلا شك هو سبب انعدام أي نقوش وفى وجود مثل هذه البقايا القليلة من الجدران التى مازالت واقفة . وكنا نقابل باستمرار ونحن نمضى صاعدين الوادى مجموعات من الأنقاض تتوج أغلبها التلال التى تقع أمام جدار الجبل .

ولم نتلق تقارير مرضية عن وادى عمد . لكن رغم ذلك ترعى عائلة العطاس البلاد ؛ فهو واديهم وقبائل الجعيدي البدوية الذين يسكنونه متحالفين معهم ، ولهم سيطرة عليهم ، لكن من الصعب إكتشاف مدى تلك السيطرة. وشعرنا أن الوادى مدجج بالسلاح ويستعد للحرب. فالأرض جرداء ، و مملة فى البداية ؛ مجرى الوادى عريض وممتلئ بجلاميد صغيرة ذات لون مزرّق أبيض، لابد أن الأوضاع كانت أفضل فى الأيام الخوالى ، لأن الأنقاض العديدة توحى بكثافة سكانية .

وصلنا "نخر" بعد وقت طويل من مغيب الشمس، ويمتلك آل العطاس منزلا فيها . يتكون المكان من بعض الأكواخ ومنزل طيني نصف متداعى ، أعدت لنا فيه غرفة . والطقس

حار جدا للمبيت داخل الغرفة ، لكن السلالم التى تقود إلى السطح قد انـــهارت . وفـــى وسط الكوخ مخزن للعلف ، نصفه تحت الأرض ونصفه فوقها . وارتفاع ســقفه حوالــي ثلاثة أقدام من الأرض وله متراس إرتفاعه حوالي قدم ونصف . والحوض مبلط بـــالطين بشكل أملس ، حيث تدرس فيه الحبوب بعد حصادها . إنه مكان شاق للنوم لكنه آمن .

تحركنا فى اليوم التالى ، العاشر من يونيو ، واتجهنا مرة أخرى نحو الجنوب الغربـــي . كان الوادى فى البداية مملا وأجردا واتسع مجرى السيل بشكل ملحوظ . وبعـــد مســيرة ساعتين ينعطف وادى عمد نحو الشمال ثم سرعان ما يأتى الإنسان عبر بساتين النخيــل. توجد أعداد متزايدة من الأنقاض ، لعلها مبانى دفاعية وضعت فوق قمم التلال . وعـــانت بساتين النخيل كثيرا من الجفاف فى السنوات القريبة ، فلم تأت أمطار ولا سيول بأي كمية كافية خلال عامين . الماء فى التربة تحت الأرض مباشرة بعيدة من السطح وعمق الآبار بين ٣٠.. إلى ٤٥. قدما حتى أنها لا تستعمل لأغراض الري لكن لتوفير ماء الشرب فقط . يرفع مجموعات من الرجال الماء ، وهم يمضون اللحظات فى غناء رتيب.

كلما ابتعدنا جنوبا ازدادت النباتات وأصبحت تشكل حزاما متصلا بيـــن مجـــرى الســـيل العريض والضفة الغربية للوادى. المزارع جافة كالعظم ومحروثـــة بشـــكل أنيـــق ، لأن المطر متوقع هذا الشهر . ومطر غزير واحد أو إغراق بأمطار هطلت فى مكـــان آخـــر يكفى ، حسب قولهم ، لهذه التربة من الراسب الطفالي ، فهي تحتفظ بالماء لفترة طويلـــة. لقد قضت السهول الشاسعة على نظام الري ؛ تضررت الخزانات المصنوعة من أكـــوام من الحجارة ومبلطة بطبقة داخلية من الطين ، من السيول كثيرا . وجاءت مجموعات من الفضوليين يهرعون من القرى نحونا ويسألون حارسنا كل أنواع الأسئلة . التفت نحونـــا أحد شيوخ القرى بشعره الأبيض مستفسرا عن الطريقة التى تضع حدا لتحطيـــم ســدود الصخر بواسطة السيل . وأجبنا أنه ربما كان كافيـــا إذا اســتعملوا الجـــير أو الأســمنت للجلاميد : وستكون التكلفة الأولية عالية ، لكنها إقتصادية فى المدى البعيد .

كل النساء فى المنطقة محجبات ، حتى النساء الفقيرات العاملات فى الحقـــول . وعندمـــا يعملن فى الشمس يرتدين قبعات من السعف لها أطراف عريضة . لم يفزعن منـــا مثـــل النساء فى الأماكن الأخرى وكن على استعداد للحديث بل حتى لأخذ صور لهن . وقـــامت

الفتيات الصغيرات ، بطلب من الرجال، بالتسلق مثل القطط إلى قمة أشجار النخيل ، لالتقاط الثمر الناضج من عناقيد التمر . كانت جلابيبهن السوداء العريضة تتدلى منهن بشكل مهمل، الشيء الوحيد الجميل فى لبسهن هو الحزام العريض المزيّن بزرائر فضية كبيرة وصغيرة ،ويلتف حول وسطهن . وفشلت محاولتنا لابتياع واحد منها ، لأن النسوة كن من شدة تواضعهن لا يفكرن فى بيع جزء من ملابسهن . وكان العديد من الأطفال يركضون فى المكان ومعهم أقواس مصنوعة من أغصان النخيل ، وسهام حادة الأطراف من نفس المادة ، يحاولون إصطياد الطيور القليلة التى حطت على الثمار الناضجة (١) . وأثناء عبورنا كان بعض أقرباء حراسنا يقدمون لنا من وقت لآخر ملء أيديهم باكورة التمر الناضج تماما .

(٣) استقبال كريم من شيخ حضرمي – جاوي

وصلنا السيلة قرب الساعة الحادية عشرة ، وبها قليل من المنازل الطينية الطويلة لكن لم تعد هناك بساتين نخيل . أصبح كل شيء رمادي بني مرة أخرى تربة الوادى ، المنازل ، حائط الجبل . ويعتبر الشيخ حامد بن علي الجعيدي وأخوه زعماء أغنى وأبرز العائلات فى القرية . كنا تعرفنا من قبل فى حريضة ، بهذين الشابين بروحهم العالية ، ويدل مظهرهما الخارجي أنهما جاويين أكثر منهما عربا . فقد ولدا فى جاوا من أم جاوية وتربيا فى المرتفعات الجميلة فى مقاطعة برينقر . وحضرا إلى حريضة خصيصا للترحاب بنا فالتقينا بهما هناك . إن اختلاط الدم العربي مع الجاوي ، أنتج فى هذه الحالة رجالا لهم البنيان الجسماني العربي الجميل المترفع ، وسلوك الجاويين الرقيق المهذب المتواضع . نحن هنا مع رعايا هولنديين ، نشعر نحوهم بتعاطف خاص . وتم استدعاء الرجال المسلحين من مكان قريب إلى منزل زعمائهم بإطلاق بعض رصاصات من البندقية ؛ فجاءوا إلى المجلس سراعا الواحد تلو الآخر، وكلهم مسلّح ، وأخذوا يستفسرون عن الأمر. ثم هدأ روعهم حالما أخبروهم أن الأمر ليس سوى تقديم تشريف لاثنين من الضيوف . و من بين الجنود بعض الصبية عمرهم اثنتي عشرة سنة ، ويعتبروا جنودا ناضجين عندما يحملوا السلاح . وعندما جلسوا متكدسين فى دائرة ، كادت "جنبياتهم" المعقوفة أن تنغرس فى وجوههم الصبيانية . أعطانا الاستعداد للحرب إنطباعا جعلنا

نشعر أن القتال أمر متكرر هنا ، وهو ما يحدث بالفعل. وأخبرنا مضيفنا إنه لا يســـتطيع أن يخرج من منزله لمدة خمس دقائق بدون بندقية وحرس مسلح . قتل قبل وقت قصـــير فقط أخوه من أبيه بالرصاص وهو يقف بجانبه عندما كانوا يتفقـــدون بســاتين نخيلـــهم ؛ وتمكن هو من قتل ثلاثة من المهاجمين ، لكن القاتل الفعلي هرب بعد أن أصابـــه جـــرح طفيف رجله . صحيح إنهم حققوا السلام ، لكن لا بد أن يكون الفرد فى حالة انتباه دائـــم ضد الخيانة . وفى إجابته عن سؤالى إذا كان يحب أن يبقى هنا ، أجاب بالنفي. فهو هنـــا منفصل عن زوجته وأطفاله في جاوا ، إنه هنا فقط ليحمى شرف ومكانة عائلته ، وحالمـــا يستغنوا عنه سوف يعود إلى وطنه الأم.

قادنا صاحب المنزل بنفسه إلى مكان به رسومات حميرّية على صخرة ، حيـــث توجـــد أيضا بجانب الممر خمسة أحواض طويلة وإن كانت لحد ما ضيقة ،. كانت بالطبع جافـــة فى الوقت الحاضر ، لكن يبدو أنها صالحة للاستعمال. و مبلطة من الداخل بنـــوع مـــن المورتر .

(٤) مدينة عمد ، مناقشات مرهقة وخداع قاس

يستمر الطريق فى جزئه الأكبر فوق جلاميد الصخر فى مجرى السيل ، مما جعل جمالنـــا تئن كثيرا . فقد أرهقت الحيوانات من السير الطويل فى الوادى الحار ، لكننا على استعداد لنخاطر بأي شيء لنصل إلى عمد قبل أن ينتهى اليوم ، حتى نبدأ المفاوضـــات لرحلتنـــا القادمة ، وربما يحالفنا بعد ذلك الحظ ونواصل رحلتنا مرة أخرى علـــى أمـــل أن لا نتأخر أكثر من يوم واحد . ولدهشتنا السارة ، لحق بنا فى الطريق رجـــل وادى عمـــد العظيم الشيخ عوض بن سعود بن شملان الجعيدي ، وهو رجل أشيب قوي ، مازال مـــن الرشاقة بحيث يستطيع أن يمتطى البعير وهو مازال واقفا . كان لقاؤه حـــارا وأصـــر أن أمتطى بعيره . وجلس خلفى سالم بن سلوم الجعيدي ، اليد اليمنى للشـــيخ، وهـــو رجـــل ثرثار. وسرنا خببا .

وأصبحت بساتين النخيل بالقرب من عمد أكثر كثافة . وعندما اقتربنا من قرية حبب كـــان الظلام قد حلّ . وانفصلت لحد ما عن قافلتى نتيجة لإصرار رفاقى الراكبين معى على أن نستمر بالسير بجمال السباق بسرعة الخبب . واصلت السير وأنا فـــى حالـــة عجـــز ، إذ

يحتاج الركوب فى الليل إلى براعة حتى أستطيع أن أحافظ على مكانى فوق السرج ، لإن الجمل يرى حواجز فوق الأرض، تخطئها عينى الفاحصة ، وتكون النتيجة إنحرافات مفاجئة . كان الركوب مدهشا ومرهقا للحد البعيد ، ووصل إلى نهايته عند اقترابنا من مدينة عمد الصغيرة ، وصلنا المنزل الذى سوف نسكن فيه . ووصلت بعدنا القافلة وهي تتصبب عرقا ، لم يمض وقت طويل حتى كنا نجلس فوق السطح الشاسع في منزل الضيافة ، الذى أخذت تتكدس فيه مجموعات من الفضوليين .

لم نجد فى أي مكان حتى الآن هذا العدد الكبير الذى يتخدث الملاوية ، ولا كان الحديث فى أي مكان صريحا ومنفتحا مثلما كان هنا . يبدو أن عمد مدينة فى حالة انهيار وفقيرة جدا وعانت كثيرا من الحرب التى طال أمدها . هذه الأوضاع دفعت الشباب للبحث عن فرصهم خارج البلاد ، واجتذبت جاوا العدد الأكبر منهم . والنتيجة أن أعدادا كبيرة من الزوجات والأطفال بقوا هنا فى حالة فقر . عدد الصبية الذين أرسلوا من جاوا لينشأوا هنا كبير نسبيا . يمكن تمييزهم فى الحال من بين أقرانهم الصغار الرثين بلبسهم الأنيق ونظافتهم الفائقة . كانوا من ضمن المجموعة التى زارتنا ذلك المساء وأخذوا يتحدثون بجرأة كبيرة باللغة الملاوية ، ليستعرضوا معلوماتهم . يعتبر أولئك الفتية أن فترة إقامتهم فى عمد منفى حقيقي ويتحرقون شوقا إلى جاوا .

كانت المناقشات حول رحلتنا المقبلة مخيبة للآمال . فذهابنا إلى نصاب أصبح خارج الموضوع ، لكن يمكنهم بكل تأكيد أن يوصلونا إلى المدينتين فى الساحل وهما بلحاف وبئر علي . تخلى عنا الجميع عند هذه النقطة، حتى صديقنا السيد علي العطاس ، لكننا تشبثنا ب:" نصاب" . وعندما صعدنا إلى شرفة السطح ، قرأنا عليهم خطابات التعريف من السيد أبوبكر الكاف وسلطان سيؤن وسلطان شبام ، وأحدثت تأثيرا واضحا . ثم أضفت أننا مصممين على الذهاب إلى نصاب ونود أن نتحرك فى الصباح . هكذا ودعنا تلك المجموعة ، التى سوف تواصل تفكيرها فى الأمر حتى منتصف الليل .

الطقس أبرد فى عمد منه فى حضرموت الداخل ، بالذات فى تريم التى تعتبر أكثر المناطق حرا . أما عمد فتقع فى منطقة عالية ، وهي أيضا قريبة من المرتفعات لذلك تهب عليها الرياح الباردة عندما يأتى المساء .

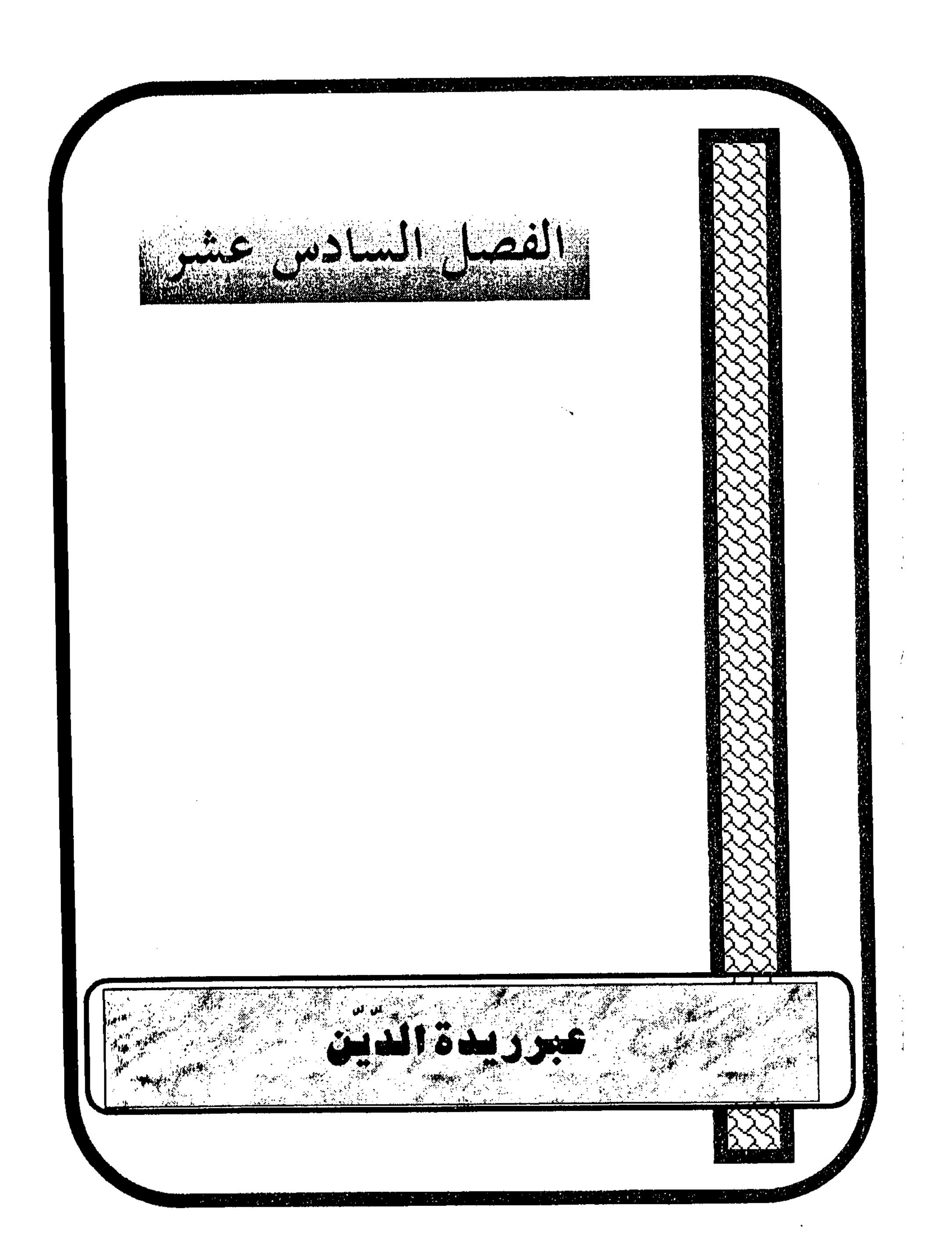
أيقظتنا الشمس مبكرا ، وبدأت المناقشات بعد ذلك فورا . وبدا كأن الرحلة إلى نصاب أصبحت إيجابية لكنهم حاولوا تأجيل الأمر . كانت حدود منطقة نفوذ الجعيدي قريبة من عمد وتبدأ بعدها مباشرة منطقة الحرب . هناك ثلاث مجموعات تحارب بعضها البعض وشيّدوا حصون مراقبة محصنة على امتداد الحدود . وأخبرونا أن أي سيد من العلويين غير مسلح يمكنه أن يقودنا عبر المنطقة الخطرة ، كنا سعداء لتصديق هذا وما علينا إلا أن نثق فقط فى مثل هذه الشخصية ذات المكانة الرفيعة ، كنا على استعداد أيضا لنكافئه بسخاء على خدماته . واستدعوا سيدا كان قادرا وراغبا على القيام بالمهمة . هذا الرجل المعدم ومن سلالة الرسول متغطرس ومعتد بنفسه وكان واضحا أن قبوله العمل مع اثنين من النصارى أمر شاق بالنسبة له ، فقط أغراه الذهب الذى يملكونه . ثم ، بعد المزيد من التفكير ، توصل إلى النتيجة أنه لا يجرؤ على المجازفة . وبدأت مناقشات جديدة مع سيد آخر، و تراجع بدوره . فى هذا الأثناء كانت الترتيبات تمضى قدما فى أمر الجمال التى وعد بها الشيخ عوض لهذا اليوم . كان كل واحد يسعى لمنفذ ليتهرب ويخدعنا باللوعود . وأصبحت لغتنا أعنف أكثر فأكثر وتظاهرنا فعلا بالسخط ، مع أننا فى الواقع كنا نخشى أن نتعثر هنا . فكان لابد أن ندفع بالامور دفعا ، لأننا إذا سمحنا بالتعطيل فسوف نفقد أي أمل فى الوصول إلى نصاب .

كان أبناء الشيخ عوض وتابعه سالم بن سلوم ، يبحثون عن الثراء فى جاوا ، وهما يرغبان فى زيارتهم. وطلبا مساعدتى فى هذا ودونت أسماء الأبناء وعناوينهم . فكانا بالتأكيد سعداء لمساعدتنا ، لكنهما لا يتجاسران ، هكذا أصبحنا مركزا لمناقشة محتدمة تصاعدت فجأة إلى شتائم استمرت طوال اليوم . ثم قمنا بزيارة السيدين ؛ لكن بدون نتائج تذكر ، وتجنبنا تقبيل أيديهما كما فعلنا دائما فى مناسبات مشابهة . لكنهما فهما هذا بطريقة خاطئة ، فلم يضعونا فى مكان الشرف ولم تقدم لنا القهوة عندما مرت على الضيوف . أخيرا جاءت النقطة الهامة وهي أن الجمال جاهزة تنتظرنا ، وبينما كان الحاضرون فى شجار محتدم تسللنا يحيط بنا كل صبية المدينة . فأشار إلينا الشيخ عوض و سالم خلسة لنتبعهما إلى بساتين النخيل وعندما وصلنا إلى هناك تسلقا واحدة من نخلهم وقطعا عنقودا جيدا من التمر هدية لنا . ثم طلبوا منا بإلحاح أن نهتم بمصالح أسرهم فى جاوا ،

وأعطيناهما كروتنا الشخصية وودعناهما في ذلك المكان وداعا أخويا ، حيث لا أحد يشاهد هذه الإلفة مع النصارى. وغادرنا بمفردنا ، فلم يعد في استطاعتنا تحمل المناقشات الصاخبة التي كانت مستمرة حول القافلة . واقتربنا معا من منطقة الحدود المهجورة ؛ حيث يتعرج الممر فوق جدار الصخر صاعدا صعودا حادا نحو الجول الذي يسكنه بدو الدّين . وشاهدنا من البعد جمالنا تبرك فوق الممر ، كان أصحابها المتشاجرين يتوقعون بلا شك أن نعود إليهم غاضبين، لكننا كنا شاكرين أن تخلصنا من عمد ونستشعر هدوء المساء كله حولنا ، حتى أننا لا نحلم بالرجوع ونتمنى أن عنادنا يدفع بالقافلة للّحاق بنا .

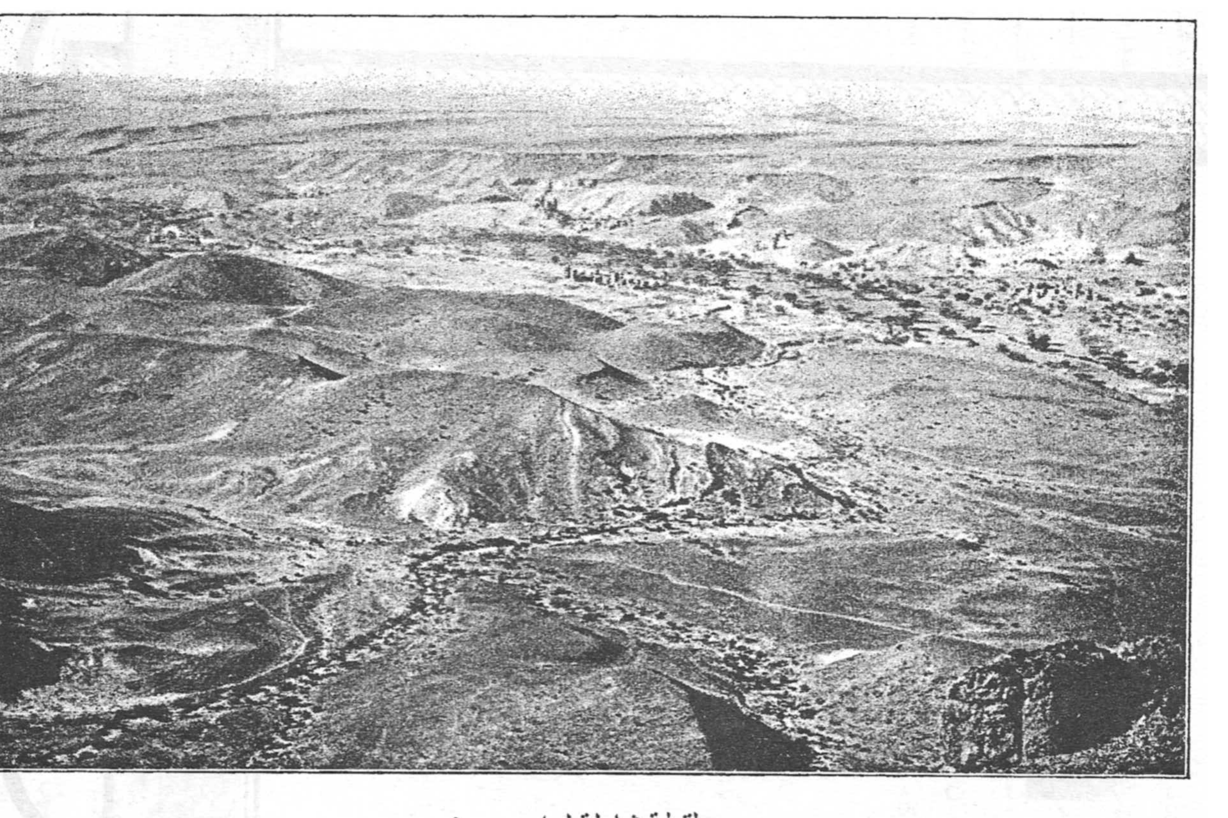
هوامش

(١) يسهل على الأطفال صناعة أداة الاصطياد البدائية هذه ، ويطلق عليها "المنطب" .



الفصل السادس عشر

عبريدة الدين



لقطة شاملة لوادي يبعث

(١) نهاية فكهة ليوم عاصف

يقع الممر الذى سرنا فيه خلف ستار ناتئ من الجبل فلا يمكن رؤيتنا من أبــراج مراقبـــة العدو فى الجانب الآخر من الوادى الرئيسي والوادى الجانبي . لكن عندما وصلنا جـــانب الجدار الصخري الذى يكاد يكون عموديا اختلفت الأشياء ، فما إن كدنا نظهر من خلـــف النتوء حتى انهال الرصاص على الجانب الآخر . فاختبأنا خلف صخرة وأنصتنـــا إلـــى صوت المزيد من الطلقات . وحتى نتأكد إن كنا نحن بالفعل الهدف لذلـــك الرصـــاص ، رفعنا قبعة فوق حافة الصخرةِ ؛ وسرعان ما وجه العدو نيرانه نحوها . أدى كل ذلك إلى أثر إيجابي على القافلة ، فجاءت مسرعة نحونا ، يتقدمهم الدليل وهو يصيح بنا أن نستلقى أرضا . وعندما وصلوا إلينا وهم يلهثون ، أخبرونا أن رمـــــاة حـــاذقين ببنـــادق جيـــدة يتمركزون فى الجانب الآخر من الوادى ، وأنهم قتلوا قبل فترة وجيزة ثلاثة رجال مـــن ذلك البعد. لحقت بنا فى هذه الأثناء قافلتنا الغريبة نوعا ما . فقد كان معنـــا أربعـــة مـــن السادة حراسا لنا ؛ أولهم شاب للجمال وآخر أكبر منه هو الدليل . ورفـــض أن يذهـــب بمفرده وأقنع السيد علي العطاس بعد إغراء طويل على مصاحبته . كان السيد علي يريـــد البقاء فى عمد حيث بها زوجته وطفله ، ثم اصطحب معه ابنه وكـــان عليـــه أن يعطـــى اهتماما كبيرا بالطفل الذى ما زال فى الثالثة من العمر ، فأصبح الآن عقبة بالنسبة لـــه . كان هذا السيد الصغير يجلس متشبثا بكلتا يديه بالمخلوفة الخشبية . وبالنســـبة لمقـــاييس الأوربيين فإن هذا الوضع أكثر من خطير فى منعرجات جدار الصخر ، لكن يبـــدو أنـــه شيء عادي بالنسبة للعرب فهم يركّزون كل اهتمامهم على نيران البنادق ، التـــى تـــأتى متقطعة من الجانب الآخر . لقد وضع صوت الحرب نهاية مفاجئة لكل التشاحن والشجار، ولكل متاعب اليوم، التى يبدو أنها نسيّت عند نهايتها . وأسترسل كل واحد فى حكايـــات الحرب ، وسرحنا فى خيالاتنا، وفى مزاج هادئ سعيد صعدنا ممر الجبل الـــذى يقودنـــا بعيدا من رفاقنا فى أسفل الوادى الساخن . يمضى الوادى مرة أخرى على امتداد الجـــانب الآمن من النتوء ، تعلوه فى هذا المكان قطعة طويلة من الصخر ، اعتاد أن يعسكر تحـــت ظلها المسافرون . كان الوقت متأخرا جدا ولن يسمح لنا بوصول الجـــول قبـــل حلـــول الظلام، لذلك قررنا أن نبقى هنا ونسير فى صباح الغد بأقصى ما يمكن إلى النقبة التاليـــة

على أمل أن نجد بها ماء . فقد بقي لنا ما يكفى فقط لكوب شاي وقد جفت حلوقنا من الظمأ ، لكننا لم نستطع حمل أي أحد على العودة إلى عمد لإحضار الماء . وعندما نظرنا من المنحدرات الصخرية الحادة إلى الوادى أسفلنا غمرنا الفرح . وما زالت عمد تظهر بصعوبة عند المنحنى ، الآن نحن بعيدين جدا من المناقشات المرهقة مع الناس هناك ومن اهتمامهم الفضولي نحونا . و يفصل ساتر جدار بيننا وبين منطقة العدو . نحن أحرار لوحدنا فى هذه الليلة، عاليا فوق الجبال ، نتأمل مباشرة من موقعنا فى الصخرة ، مملكة النجوم الخالدة .

حكى السيد العيدروس دليلنا فى الطريق (ويسمونه سيار وهو الدليل من البدو الذى يؤمن سلامة السير فى منطقة قبيلته) ، فقال قبل وقت قصير مضى ، استطاع الرماة المهرة قتل ثلاثة من الرجال فى نفس هذا الممر المتعرج. ومن العادة عند نهاية اليوم أن يتم تبادل بعض الطلقات بين المراقبين المتحصنين ، كأنما ليظهروا أنهم يحافظون على الحراسة . ويبدو أننا قللنا مرة أخرى من تقدير الخطورة .

كان السيد محمد ابن علي الصغير يشعر كأنه فى المنزل تماما وهو فى موقعه الضيق بين الصخور على حافة الجرف . وأكل كمية وافرة من بسكويتنا بالنسبة له شيء مدهش ثم تكور آمننا لينام فى سريره الصخري الصلب . وفى منتصف الليل وصلتنا صيحات من السهل أسفلنا : كانت والدة محمد بن علي قلقة على طفلها القاصر وأخذت تئن باستمرار : "يا ولدى ، يا ولدى " ، ولم تتوقف حتى قام بعض أفراد الأسرة بالصعود إلى الجبل ومعهم حمار ليعودوا بالشاب الصغير إلى منزله . يظهر أن والدته لا تثق كثيرا فى زوجها المغامر . ووصلت إلينا حملة الإنقاذ بسلام ، لكنهم لن يتجاسروا على الرجوع ليلا لما يكتنف ذلك من خطورة . وعند الفجر حمل السيد علي العطاس ابنه الصغير على الحمار وسار به مزهوا عائدا إلى وادى عمد ، وصعدنا نحن هضبة بدو الدّيّن ، وهدفنا الأولي أن نجد ماء لنا ولحيواناتنا .

(٢) المسير مرة أخرى فوق الجول

تقلص حراسنا الآن إلى اثنين من السادة . أحدهما للجمال وهو يعرف الطريق بالرغم من أنه سافر فيه مرة واحدة فى حياته ؛ والآخر السيد العيدروس ، رجل سريع البديهة

وثرثار، وكان مسئولا عن سلامتنا وأن يكون وسيطا فى علاقتنا مع بدو الديّـــن . وهـم بدائيون جدا لذلك يمكن أن يكونوا خطرين بالنسبة للأجانب الذين يســافرون بمفردهـم . قابلنا شيخهم العجوز . عثمان ، فى المصنعة فى دوعن مع الحاكم باصرة ، واغتنم فـون فيسمان الفرصة وجمع منه معلومات عن منطقته وقبيلته وتحسس إذا كان يرحب بزيارتنـا لرئاسته فى الريدة . ثم قدم لنا الشيخ العجوز دعوة للزيارة بل وعدِ بأن يسمح لنا برؤيـة بلاده التى ما زالت متوحشة . لذلك يعتمد الكثير على وجود زعيم الديّـنّ شـخصيا فـى الريدة .

عندما وصلنا الجول امتطينا جمالنا وسرنا بأقصى سرعة إلى أول مكان للتوقف يوجد بـه ماء للشرب . يختلف هذا الجول قليلا فى طبيعته عن الجول الذى عبرناه فى طريقنا إلـى وادى دوعن . هو أيضا سهل مسطح من حجارة جيرية ، تنتشر فيه بكثرة شظايا حادة من الحجارة ؛ وينشقّ عبره ممر ضيق مشابه لسير الجمال . والفضاء لا محـدود فـى كـل الاتجاهات ؛ ولا وجود هنا للسلاسل الطويلة المميزة من المساطب الجبلية . وعبرنا هنـا وهناك على أشجار قزمة معوجة . ويخيم صمت عميق على هذه المنطقة التى لا حـراك فيها . بعد مسيرة بضع ساعات، رأينا فى منعطف فى الأرض تحصينـا مـن حجـارة خشنة، به أبراج قوية مربعة فى كل ركن . هنا يعيش بعض الناس ، فلا بد أن يتوفر فيـه ماء ، إذ أصبح الحصول عليها ملحا، لأن ظمأنا أصبح عذابا . لكن لا أثر لأي كائن حي، لا شيء سوى جدار يحيط بمساحة مربعة ، وقلاع تبرز منه . وجرفت الأمطار بـالقرب بعض التراب إلى منخفض فى الأرض ، حيث توجد بعض المزارع الجافة وقليـل مـن شجر النبق لا أوراق فيها ولونها رمادي ولا أثر لأي خضرة ؛ كل شيء رمادي بشـكل رتيب ويفتقد الحياة مثل السهل الصخري الذى يحيط بنا . وعندما اقتربنا من المسـتوطنة رأينا بعض النقاب الكبيرة يرفع الناس منها الماء . فقد انقطعت الأمطار لفـترة طويلـة ، ونتيجة لذلك نفدت الماء فى بعض النقاب، بينما الأخرى التى كان الماء مخزونـا فيـها لفترة طويلة أصبح طعمه مالحا ؛ وبالرغم من هذا، أطفأنا ظمأنا به وملأنا قـرب المـاء والحافظات . ووزعنا البسكويت من مخزوننا على الفقراء ، وعلى السـكان الودوديـن ، الذين يمرون بظروف بالغة الشدة بسبب الجفاف الطويل . كانت هناك أيضا قافلـة مـن

المكلا تستريح . وتحمل سمكا مجففا ، أغلبه سمك القرش ، والأرز إلى وادى عمد ، لكن يبدو أن تكاليف الترحيل تفوق قيمة هذه البضائع فى المكلا .

تواصل طريقنا عبر الجول حتى وصلنا "شرج الأبيضين با منصور" ، وارتحنا فترة الظهيرة . ورأينا هنا نفس صورة الجفاف والفقر . يتكون المكان من بعض المنازل الصغيرة والحظائر المبنية من الحجارة والطين وسطوحها مسطحة من الطين . مازالت هناك بعض الأوراق الخضراء باقية وقليل من أشجار النبق التى تنمو بين الأفدنة المزروعة، و تجمع منها حتى آخر ورقة للأغنام . وتظل الأغنام برقابها الممدودة تتابع حركات الراعيات وهن يصعدن بعصاة طويلة إلى قمة الشجرة ، لينفضن الأوراق . وتعيش فى القرية الصغيرة عائلة واحدة فقط ؛ عرضوا علينا منزلا خاليا لنسكن فيه . لا يمكن هنا شراء البيض ، ولا الدقيق ، ولا الأرز ، ولا اللبن . الشيء الوحيد الذى يمكن الحصول عليه هو كميات كبيرة من النبق الجاف ، الذى يساعد على تخطى الموت جوعا. يسحق النبق وتصنع منه عصيدة أو خبزا . أما إذا أكل نيئا فالقشرة الخارجية هي الصالحة للأكل ؛ أما الحبوب القوية مثل الصخر فترمى. ويضاف أحيانا إلى وجبة النبق قليل من لبن الغنم أو الإبل، وعند موسم حصاد التمر فى وادى دوعن يجد جزء منه طريقه إلى بدو الديّن ، الذين يحمون بدورهم سكان الوادى من الأعداء . يحتاج الأمر على كل حال ، إلى مران ضروري طويل حتى يستطيع أن يعيش الإنسان على هذا الحد الأدنى من الطعام مثلما يفعل هؤلاء البدو فى أوقات الجفاف . والرعاة والراعيات الذين التقينا بهم فيما بعد فى منخفضات شبيهة من الأرض وفى الوديان حيث تنمو بعض الأعشاب والأشجار كان غذاؤهم الوحيد سلالا صغيرة مستديرة مليئة بنبق جاف .

نجحنا بفضل فصاحة (سيارتنا) السيد العيدروس ، وبفضل الاحترام الذى يلقاه السادة بين هؤلاء الناس البسطاء فى تصوير بعض سكان القرية من النساء ، كانوا بنتين وأمهما وصديقة .

تسير النسوة بلا حجاب وهن أكثر حرية وانفتاحا فى سلوكهن من نساء وادى عمد . يظهر أن إحساسهن بالأمان كبيرا ، فقد التقينا بهن بعيدا من منازلهن ، لوحدهن مع قطعانهن أو فى طريقهن للقيام بعمل ما فى قرية أخرى على بعد ساعات . ورضخت

مريم ، بتشجيع من والدتها ، وأعطتنا حزامها من سلك النحاس ملفوف بسلك فضي جميل وكذلك قلادتها المصنوعة من حبات فضية بيضاوية ، وذلك مقابل سعر عال . وبعد أن حصلت مريم على صفقة رابحة ، ذهبت فى الحال بجزء من الربح إلى الصائغ فى قرية على بعد ساعات ، واشترت حزاما وقلادة جديدين .

واصلنا مسيرتنا عبر السطوح الصخرية الرتيبة تحت شمس العصر المحرقة . ورأينا على مسافة بعض القرى الصغيرة المبعثرة التى تنتمى إلى منطقة الدين . تمتلك هذه القرى بشكل عام قطعة مزروعة من الأرض وقليلا من الأشجار ، وأرضا محروثة جيدا تنتظر المطر ، الذى سيجعل الزراعة ممكنة . انحرقت الأشجار ، وماتت وتحول لونها إلى بني رمادي كأنما عصف بها شتاء شمالي.

عبرنا على شمالنا بأنقاض " الخميس" . وأخبرنا السيد أن هذه كانت مسكنا لحضرمي جمع ثروة فى جاوا، وعندما عاد إلى موطنه حاول أن يكون مملكة . وجند عساكر بالمال الذى جمعه فى جاوا ، وقام بغارات على أراضى وادى دوعن الخصبة ودمر بساتين نخيلها . وبدلا من أن يرشوه القعيطي بقطعة أرض ، جند جيشا ضده بل أحضر حتى المدافع إلى قريته . والرجل الذى جاء ليبنى مملكة لم يكن مستعدا لهذا التطور ؛ وأخذوه أسيرا، ودمرت قريته تماما وانتزعوا فدية ضخمة من عائلته الغنية فى جاوا(١) . وتقدمت عائلته بالتماس إلى الحكومة الهولندية نيابة عن الأسير المغامر ، وبنوا التماسهم على أساس جنسيته الهولندية . عند ذلك أصبح للحكومة الهولندية رغبة واهتمام كبير لمعرفة الحقائق الصحيحة عن الأوضاع فى الوطن الأصلى لعدد كبير من رعاياها .

جئنا بعد مسافة إلى قرية "خليف با سويد" . توقفنا هنا لنستجدى ماء للإنسان والحيوان ونحاول أن نشترى بعض العلف للجمال . يظهر أنه لم يبق ماء كاف فى النقاب ، كان هذا بلا شك السبب فى استقبالنا الجاف. ولا توجد أيضا كميات وافرة من العلف ؛ فأمكننا أن نشترى فقط ثلاثين حزمة من عيدان القصب ، كلفتنا ريالا واحدا . يبدو أن الريال هو فئة العملة الوحيدة المتداولة ؛ إذ لا يستطيع الإنسان شراء أي شيء بنصف ريال . وطلبوا مساعدتنا لعلاج جمل مريض ، قالوا إن ثعبانا لدغه . وقام الطبيب المحلي بتلطيخ الحيوان بمرهم أسود وقطع نصف أذنيه . وأخبرونا عن رجل مريض بأن ثعبانا هسهسه

، لكنه يعاني كما هو واضح من انتفاخ في أحد أجزاء جسمه ، . وعبّرنا لهم عن أسفنا لأننا نسافر بدون صندوقنا الطبي وليست لنا معرفة لنساعد ضد لدغ ثعابين البلاد الخطرة.

(٣) ريدة الديّين

واصلنا سيرنا سريعا ، على أمل الوصول ذلك المساء إلى الريدة ، النقطة المركزية لإقامة بدو الديّن . هنا يسكن الزعيم الذى التقينا به في حصن باصرة . اقتربنا بعد المغيب بوقت طويل من "نجدين " قرية الشيخ عثمان . وسرنا نتعثر في الظلام ، نتبع الجمال ، حتى جئنا على أرض مزروعة بها بعض أشجار النبق الجافة تنتشر هنا وهناك . ولم يظهر في القرية أي ضوء يبشر بالترحاب ؛ والمنازل التى مثل القلاع لا تشبه شيئا سوى المربعات السوداء. وما أن سمعتنا كلاب الحراسة حتى أتت تهاجمنا مباشرة وهي تنبح بشراسة ، وأدت هذه الضوضاء إلى بعث الحياة في المنزل : ارتفعت أولا بعض الأصوات المتسائلة ثم بعض الأضواء . واستعملنا الحجارة لإبقاء الكلاب بعيدة ، ثم استعنا بالتوجيهات الصادرة من خلف الأبواب ، ووجدنا طريقنا إلى منزل الشيخ عثمان ، كان منزلا بائسا منخفضا وليس حوله أي شيء جذاب . فأيقظنا السكان بصيحاتنا ، و أدخلونا وهم يتحاشوننا بريبة إلى غرفة كبيرة أرضيتها من تراب فجلسنا فوق سجادنا السفري . وتلاشت سريعا آمالنا لنوم عاجل بعد هذا اليوم المرهق عندما رأينا شخوصا سوداء تلوح بأعداد متزايدة خارجة من الظلام الغامض . لقد جاءوا ليصافحونا ويجلسوا ويشاركوا في حلقة الاستجواب الجريء . كان شيخ عثمان مرة أخرى في وادى دوعن مع الحاكم باصرة ؛ ولم يخبر أبناءه باجتماعه معنا فكان علينا أن نقدم بيانا مفصلا عنه. عندها فقط رحبوا بنا وقدموا لنا القهوة . وواجهتنا حرفيا عاصفة من الزوار ، كانوا جسورين في أسئلتهم . ولم يساعد السيد بّتاتا في دعم هيبتنا ؛ وعندما بدأ الترحاب بنا أعطى اهتماما بتقبيل يده وأخبرهم بأننا مجرد بشر عاديين ، " بدو من أوربا " ، وهي عقبة حاولنا أن نتخطاها في المناقشات التى تلت . وحاولت هذا بتوجيه الموضوع إلى الأراضى المقدسة وتحدثت عن الأوضاع هناك وعن ابن سعود و"الإخوان " (جماعة الوهابيين) . وعندما كان الكل يصغون بانتباه ، سألت السيد بشكل عابر : "لقد أديت بالطبع فريضة الحج . حدثنا عنها ؟ " . وعندها أرغم أن يعترف بأنه لم يذهب إلى مكة ،

وإذا حاول أن يحتال بعد ذلك ويقول إنه طاف العالم، وشاهد ضمن بــلاد أخــرى عــدن وزنجبار ، فإن إجابتى الطبيعية ستكون : "كنت أعتقد أن رحلتك الأولى كــان يجــب أن تكون إلى مكة وليس البحث عن الثروة " . ولم يبق أي شيء بعد هذا للسيد الــورع إلا أن يقول : " إذا أراد الله سوف أذهب إلى مكة " .

يعطى بدو الدّين انطباعا بأنهم قوم بدائيون متسولون فقراء ، وصلتهم محدودة مع العــالم الخارجي . ويتدلى شعرهم الطويل المتموج فوق وجوههم وعلى أكتافهم . عندما تخلصنــا من السيد فى صباح اليوم التالى ، أصبحوا أكثر مودة نحونا وعلى استعداد لمساعدتنا أكثر من ما توقعنا . تكدست الجماعة فى ذلك المساء ، فى غرفتنا ولم يبرحونا، فأرغمنا فــى النهاية أن نستأذنهم لنستلقى وننام . فأجابوا : "ليس لنــا اعــتراض -- تفضلــوا بكــل سرور"، فلم يبق أمامنا سوى أن نستلقى حيث نحن ونحاول أن ننام بالرغم من ضوضــاء المناقشة التى تدور حولنا .

(٤) مسيرة بالإكراه إلى وادى يبعث

فى صباح الثالث عشر من يونيو صحونا قبل شروق الشمس بوقت طويل . وكان علينــا أن نحصل على جمال نشطة وحارس جديد وتوقعنا أن يستغرق هذا بعــض الاســتعداد ، لكن الأمور سارت فى الواقع بسهولة . فقد أحضروا الجمال أثناء الليل ، وعينــوا بدويــا يتمتم فى الكلام اسمه سعيد ليصحبنا حتى يبعث .

لم نجد أحدا له الشجاعة ليصحبنا إلى نصاب رغم الجهد الذى بذلناه . فكان علينــا مــرة أخرى أن نلتف حول منطقة غير آمنة ونسير جنوبا إلى وادى يبعث . هنــاك يمكــن أن يفكر الناس إذا كانوا يرغبون فى الدخول فى مخاطرة والإسراع بنا عبر منطقة الفوضــى بين حضرموت ومنطقة عدن الخلفية. الجمال هزيلة بسبب الجفاف فأخذت تسير ببطء فكنا نستغنى هنا قدر ما نستطيع ؛ فسرنا معظم الطريق . وصلنا وادى غربة قرب الظــهيرة ، حيث هبط طريقا منحدر حجر جيري صقلته خفّ الجمال حتى أصبح يلمع . وتنمو فــى تربة الوادى الرملية قليل من الأشجار والشجيرات . تولى صالح بمساعدة سعيد أمر أحــد الجمال أثناء الهبوط ؛ و الجمال مدربة على الجبال، فأخذت تهبط جدار الصخــر بحــذر

شديد . كانت الحرارة فى الوادى عنيفة حتى كدنا أن نفقد الشجاعة وكنا نفكر بقلق من وقت لآخر إذا كنا فعلا نستطيع تحملها لساعات أخرى .

لم يكن الوادى من حسن الحظ طويلا ، فبعد نصف ساعة كنا نقف عند سفح جدار الصخر الذى علينا تسلقه حتى نصل إلى المرتفع . لكن سيكون مثل هذا الإرهاق أثناء ساعات الحرارة الطاغية فوق طاقة الرجال والحيوانات لذلك قررنا أن نرتاح تحت شجرة فى الوادى . وعلقنا مفارشنا السفرية عالية بين الأغصان لنجد ظلا أكثر من تحت الشجرة ، كانت الراحة حلوة رغم الحرارة ، وارتشفنا كميات لا حصر لها من الشاي . ثم بعد الظهر ، وبشجاعة متجددة ، بدأنا نتسلق الجرف فى نهاية وادى غربه. وشاهدنا فى الوادى بعض الرعاة والراعيات يطعمون أغنامهم بأوراق الأشجار . كان فى الجول الذى سرنا فيه إلى ما بعد الغروب ، نبات أكثر تنوعا ، مجموعة أشجار رمادية سوداء ، صنت جاف وتظهر من وقت لآخر أشجار صامدة ملتوية ، لكن لا أثر لحياة الحيوان، لا صوت، ولا حركة ترى أو تسمع . وثابرنا فى المسير ساعة بعد أخرى ، ونحن نسير الآن فوق الهضبة القوية الصخرية ، التى ترنّ فيها حجارة الراسب الطفالي مثل المعدن ، و نتأوجح إلى الأمام والخلف فوق ظهور جمالنا ، ونغالب النوم . عبرنا على بعض أشجار النبق الجافة ، وعندما حلّ الظلام أنخنا الجمال عند مجموعة أشجار صنت بها عقد كثيرة . وأزحنا جانبا الحجارة الرخوة وفرشنا بساطنا السفري فوق أرض صخرية ما زالت ساخنة من الشمس . كانت استعدادات المبيت هذه أسهل بكثير منها فى رحلتنا الأولى ؛ فعددنا الآن أربعة فقط ومعنا الحد الأدنى من العفش . و الاستراحة ليلا ، بعيدا من البشر ومع دليل واحد صامت ، نعمة كبيرة . وجبة المساء بحق اقتصادية جدا ، تتكون فقط من بعض التمر وقليل من البسكويت ،وكمية ماء الشرب مجرد ما يكفى الفرد . لكن لا أصوات خشنة جافة تعكر الصمت الهادئ فى ليل الصحراء ، ولم نرغم على مواصلة المفاوضات حول رحلتنا القادمة . أصبحت فكرة الإسراع فى اتجاه عدن هاجسا بالنسبة لنا وتشبثنا بهذه الخطة وكنا ننزعج وتتصاعد المعارضة داخلنا كلما أشار أي واحد إلى صعوبة الذهاب رأسا إلى نصاب ، لكن علينا أولا أن نقوم بالتفاف ثم نقوم بمحاولة عند نقطة التوقف التالية . وبما أننا سرنا بعيدا إلى الجنوب من نصاب ، فقد استقر رأينا أن

نحاول الوصول إلى شقرة إلى الساحل فى طريق الحوطـــة -- عـــزان -- حبـــان -- يشبوم. ويوجد بين الشقرة وعدن طريق تستعمله العربات أحيانا . وسوف نتخـــذ القـــرار النهائى بعد الظهر غدا فى يبعث .

فى الرابع عشر من يونيو كنا على استعداد للرحيل مبكرا فقام كل واحد بتقديم المساعدة : لم يعرقل الصراخ والمشاحنات استعدادات الرحيل فى هذه الحالة . يمر الجزء التالى مـــن طريقنا فوق هضبة صخرية بها أحيانا منخفضات فى شكل أحواض ؛ شاهدنا عند حافـــة إحدى هذه الأحواض العريضة ثلاث غزلان . يبدو أن الجول لا يوفر أبسط احتياجـــات الطعام لهذه الحيوانات : هذه الثلاثة هي الأمثلة الوحيدة من نوعها التى شاهدناه فى هـــذه الهضاب . وبعد بضع ساعات من المسير وصلنا العقبة، وهي المنحدر الصخري الحـــاد الذى هبطنا به إلى الوادي حيث تقع مجموعة القرى التى تسمى يبعـــث . كـــان بالتـــأكيد هبوطا طويلا وحارا ، لكن الممر كان معبدا لحد ما ويظهر أنه يستعمل كثـــيرا . يعـــبر الجزء الأول بين جدران عالية من الصخر ، ثم نصل بعد ذلك ، إلى منحدرات الـــوادى الأصلية الواسعة العرض ، وشاهدنا منظرا رائعا من البعد للتلال أمامنا ، ثم فوق الـــوادى والقرى العديدة ومنازله المبنية من الحجارة ، وفوق أشجار النخيل والنبق ، إلى الضفـــة الأخرى من الوادى والجول الذى يمتد خلفه على مد البصر . وشاهدنا عددا من الأشـــجار الصغيرة الغريبة بالقرب من الممر . إن الصراع من أجل البقاء فى الجفـــاف والحـــرارة جعل الأغصان تنمو قوية وقصيرة وقريبة جدا من بعضها البعض مما جعل الشجرة تشبه الغاريقون (toadstool) المصنوع من الصخر ، مغطى بأوراق صغيرة خضراء .

(٥) وادى يبعث

هبطنا الوادى الصامت يملؤنا القلق حول إمكانية الحصول على دليل وجمال للرحلة إلـــى الحوطة . ترغم الحرارة الناس على البقاء داخل المنزل أثناء النهار ، وليس هنـــاك مـــا يفعلونه الآن فى البساتين . يظهر أن يبعث تعانى كثيرا من الجفاف الطويل المستمر . فلم تجد أشجار النخيل سوى ماء قليل جدا لذا ليس بها ثمار ؛ وبستان أشجار النبق الحيويـــة فى المزارع المحروثة جيدا عارية ولا لون لها . لابد أن تربة الراسب الطفالي البنية فـــى الوادى خصبة جدا . يبدو مظهر الرخاء على القرى المبنية فوق التلال فى ســـفح ضفـــة

الوادى ذات الانحدار المعتدل . المنازل مبنية من قطع من الحجارة الخشنة الداكنة ، حتى تكاد أن تكون سوداء اللون وملتصقة بالطين ؛ يوجد عادة منزل واحد عال مربع يــؤدى دور برج الدفاع . وأخذنا سعيد إلى "القرن" ، إلى منزل الشيخ أبوبكر الذى نحمــل لــه رسالة تعريف من أبناء الشيخ عثمان فى ريدة الدين . وكان منزله شاحبا ، إلا أنه استقبلنا برقة ، ووضع أمامنا تمرا و بعض الخبز وقطعة صغيرة من السمك المملح ، على أنــه أخبرنا فى نفس الوقت أنه يجب أن ننتظر يومين أو ثلاثــة للحصــول علــى الجمــال ، وبالأخص على السيارة (الدليل المضمون) الذى سيصحبنا إلى الحوطة . فالمنطقة التــى سنمر عبرها خطيرة جدا : نهبوا هناك قبل فترة وجيزة بعض الناس وقتلوهم . لا يمكننــا أن نغادر مرة أخرى حتى تأتى قافلة وتستعد للرحيل عند ذلك نســتطيع أن نلتحــق بــها ونواصل سيرنا ، فلا يوجد شخص يمكن أن يخاطر ويقودنا عبر تلك المنطقة دون حمايــة من قافلة . لكننا أيضا لن نعتمد على مثل هذه الفرصة الضعيفة . وتفاكرنا لبضع ســاعات وبحثنا عن نصيحة أخرى ، فلم يتقدم أحد باقتراح مقنع ، جاء صالح فى هــذا الأثنــاء وهمس لى بأنه يجب ألا نبقى هنا ، لأن الناس فى هذا المكان ليسوا ميــالين نحونــا . إن الإقامة لأيام فى هذا السكن البائس غير مرغوبة ، فقد بدأ القمل يبتلينا منذ النهار ،. ويبدو أن سعيدا الوفي ، اقتنع أننا هنا فى خطر ، فعرض أن يأخذنا بجماله حتى "صداره " فــى وادى حجر ، إذا وجدنا دليلا واحدا يدلنا على الطريق. وعند هذه المرحلة تخلينــا عــن محاولة الوصول إلى عدن برا -- المحاولة التى سرنا فيها ســيرا شــاقا ودخلنــا فــى مفاوضات متعددة وصعبة . والآن فإن الإرهاق ، والأكــل القليــل البــائس، والقمــل ، والكراهية الواضحة التى أبداها الأهالى نحو أول مسيحيين يزورون يبعث، كلها أســهمت فى اتخاذ القرار . وحتى لو نجحت الرحلة إلى عدن ، فمن الواضح أنــها ســتأخذ وقتــا طويلا.

يمكننا أن نصل صداره فى وادى حجر فى يوميين ، وحسب ما يقوله الناس هنا , ســوف تستغرق ثلاثة إلى أربعة أيام من هناك إلى المكلا . ووجدنا فى الحقيقة أننا نحتاج لضعف ذلك الزمن لنعبر تلك المسافة . وحالما اتخذ القرار بدأنا الاستعدادات للرحيل ؛ وأعطونــا عبدا زنجيا ليكون دليلنا وحارسنا. لكن ليس هذا ما يجب أن يكون عليــه الأمــر : كــان

المفترض أن يصحبنا رجل له مكانة . أصبح عنصر الزنوج فى هذا الوادى واضحا مرة أخرى ؛ لقد رأينا قليلا من العنصر الزنجي فى وادى عمد ومنطقة الدين ، لكن هنا العكس، رأينا الكثيرين .(٢)

مازال الوقت مبكرا عندما تحركنا بعد الظهيرة . خرج مضيفنا من منزله بينما كنا نأخذ صورا فوتوغرافية للمتفرجين ونراقب تحميل الجمال ، لكنه ما عاد يحاول حمايتنا من الأخلاق الصفيقة والتعليقات الساخرة التى يطلقها الصبية ، الذين أخذوا يتفرجون دون أن يمدوا يدا للمساعدة . كان علينا أن نوقفهم من التمادى بإعطائهم بعض الردود المتوعدة . كان صالح وسعيد منزعجين بطبيعة الحال حول التغيير الذى اتخذته الأمور ، فعملا بجهد لإعداد الجمال . وعندما اختلينا لبعضنا قال سعيد إنه سمع حديثا ينطوى على توعد شرير وسألوه إن كان معنا ذهب كثير . وعندما أجاب بالنفي، قالوا إن النصارى بكل تأكيد لا يمكن أن يخاطروا كل هذه المسافة البعيدة فى أرض غريبة دون أن يكون معهم مال كثير وأنهم يسافرون فقط بهذه الهيأة الفقيرة حتى يتفادوا خطورة النهب . وإذا انضم إليهم صالحا فسوف يجد نصيبه من الغنيمة ولن يعرف أي إنسان عن المسألة ، إذا ما اتفقوا جميعهم وقالوا بكل بساطة إنهم وقعوا أثناء الرحلة فى أيدى قتلة وقطاع طريق . كان صالح أيضا كثير الريبة فى أهل المنطقة ،و يشك هو وسعيد أن العبد الذى أعطوه لنا من اجل أن يكون شريكا فى المؤامرة وأن يهاجمنا ليلا أثناء ما نحن نيام . وتأثرنا بقلقهم الشديد ، بالرغم من أننا ما زلنا غير قادرين أن نصدق أن التعليقات التى سمعوها ليست أكثر من فكرة قالوا بها من أجل التمتع البسيط بإخافتنا .

تابعنا ممرا عريضا مطروق بكثرة يمر بجانب الحقول المزروعة المظللة جزئيا بأشجار النبق ومجموعة صغيرة من النخيل . خرج السكان الفضوليون من أي قرية عبرناها وهم يهرعون نحونا بنفس الأسئلة المكررة : " لماذا تأتون بالنصارى إلى هنا ؟ وماذا جاءوا ليفعلوا ، وإلى أين تأخذونهم ؟ " . وكانت المحاولات لتبادل بعض الكلمات الودية تقابل عادة بسوء نية ومقت . وشذ عن هذا شخص واحد وهو سيد فقير ؛ لقد أدى فريضة الحج ورأي بعض أنحاء العالم وصحبنا لمسافة وتبادل معنا الحديث لفترة . لم يكن

منزعجا بأي حال من تعليقات الكراهية التى أطلقها سكان الوادى واعتذر عن صفاقتهم نحونا بأنها ناتجة عن جهلهم .

(٦) الوهم الذى تلاشى - اتجهنا مرة أخرى صوب المكلا

قبل أن نغادر الوادى المأهول وندخل الوادى الجانبي ، ملأنا قرب الماء من بئر عميقة فى آخر قرية . ولم نتخلص من الصبية الفاسدين إلا بعد أن سرنا بأقصى سرعة ، وأصبحنا بعيدين فى الجانب المهجور من الوادى . أعطانا الوصول إلى هناك إحساسا بالخلاص وأننا لن نطارد بعد الآن بالازدراء والكراهية وسوء النية التى عبر عنها الرجال . ونفس صالح وسعيد عن مشاعرهما المكبوتة بإرسال الشتائم من القلب نحو أولئك "الكلاب الغادرة" . أما نحن لم نكن غاضبين كنا فقط نتعجب من هذه الكراهية الفطرية غير المتوقعة نحو الأجانب من غير المسلمين التى لا نجد لها تفسيرا . وكلما تقدمنا كلما زادت قناعتنا بأننا مهددون بخطر حقيقي ، لذلك ، يجب أن نمضى إلى أقصى ما يمكن من العالم غير المأهول قبل حلول الظلام .

تنمو فى هذا الجانب من الوادى أشجار الأثل ومختلف الأعشاب . كانت الراعيات يعدن بقطعانهن نحو ديارهن . ولن يمضى وقت طويل حتى يقودنا طريقنا مرة أخرى صاعدا الجدار الصخري نحو الجول ؛ وعندما وصلنا هناك توقفنا نسترد أنفاسنا لكن واصلنا السير بعد ذلك بعزيمة متجددة واعترانا شعور غريب عندما أدركنا أننا تركنا الخطة التى تشبثنا بها بشدة وأننا نعود إلى نقطة البداية. كانت خيبة أمل كبرى ، لكن كان كلانا مقتنعا بأنه من المستحيل أن نصل إلى عدن برا فى الوقت الذى تبقى لنا . كما أننا نسير أيضا فى طريق جزؤه الأكبر مجهول ، وسوف نصل فقط إلى منطقة مكتشفة وممسوحة عندما ندخل وادى حجر .

لا يثق صالح وسعيد البتة فى دليلنا الأسود . كانا يعتقدان أن لديه تعليمات لنعسكر فى الليل عند نقطة محددة سلفا حتى يهاجمنا ونحن فى غفلة وينهبنا . لذلك كان علينا أولا أن نسير إلى أقصى ما تسمح به طاقتنا وطاقة جمالنا ، وثانيا ، أن نجعل دليلنا يرى أننا مستعدون للهجوم . وتوقفنا بعد مسيرة ساعتين بعد المغيب، وفرشنا البطاطين على جانب الممر ، واستخرجنا مسدساتنا من أعماق الحقائب السفرية ، واختبرناها جيدا وحشوناها

بالرصاص ، ووضعناها تحت الملابس التى نتخذها مخدة . لكن لم يحدث أي شيء ، نمنا نوما رائعا فى هذه الليلة كما فعلنا دائما .

فى الخامس عشر من يونيو سرنا سيرا عنيفا فوق أرض صعبة بها عقبات كثيرة . وبدأ أثر الإرهاق والجوع يظهر تدريجيا ، -- سببت لنا طعم الحلاوة من وجبة التمر والبسكويت والشاي الغثيان ، كما لم ننعم بنوم كاف . وبعد الليالى الباردة فى الهضبة كانت الحرارة التى تزداد سريعا مع تقدم النهار كريهة بدرجة مضاعفة . و يدل تزايد رطوبة الهواء على أننا نقترب من الساحل ومن حجر ، حيث يتوفر الماء دائما . وعند شروق الشمس كانت ملابسنا وأشياء أخرى قد أصبحت رطبة .

توقفنا عند الساعة الثانية عشرة فى الوادى القائظ الحر تحت ظل جلمود يشع بالحرارة . كنا نحتاج إلى عزيمة كبيرة لنواصل سيرنا مرة أخرى عند الثانية والنصف . سرنا فى صمت ، متحاشين الحديث مع بعضنا البعض، فقد افتقدنا الطاقة للمودة والمرح . وعبرنا على منطقة مثيرة جدا من وجهة نظر الجيولوجيا وعلم النبات . هنا ينتهى الجول، وتحل محله مساحة غير متساوية مهشمة من الصخور والوادى . واتجاه الطبقات الذى ظل حتى الآن متسقا وأفقيا ، أصبح تعوقه طبقات من تشكيلات صخرية سوداء كالفحم تشق طريقا عبر طبقات الحجر الجيري وأحيانا ترتفع فوقها مثل المخروط الأعزل . يوجد ماء أكثر ، لكن به نسبة عالية من الملوحة . وسرنا عبر أحراش من الحشيش طوله بضعة أقدام . وفوق الأرض هنا وهناك مستنقعات تغطيها قشرة من الملح ؛ وتنمو فى أرض المستنقعات الملحية هذه ، شجرة نخيل طويلة رفيعة من نوع لم نشاهده أبدا من قبل . ثم جئنا فيما بعد إلى مساحات جرداء مغطاة بجلاميد . ولم نجد لدهشتنا مستوطنات بشرية هنا : رأينا فقط أشخاصا فى البعيد ، بجانب ضفة كثيفة النبات لنهر ضحل لكنه سريع . اتضح أن هذه هي الجهات العليا من وادى حجر . كان الماء ساخنا جدا ومالحا . عندما عبرنا النهر أخذت الشمس تميل نحو المغيب فأسرعنا لنصل إلى صداره قبل هبوط الظلام ، و لم يمض وقت طويل حتى شاهدنا المنازل الحجرية المتناثرة لهذه القرية الكبيرة التى على الضفة الجبلية للوادى. هنا تبدأ الزراعة مرة أخرى : حقول من السمسم والذرة تتعاقب سريعا مع بساتين النخيل . والينابيع العنيفة تقذف الماء عاليا والذى يكاد يصل درجة

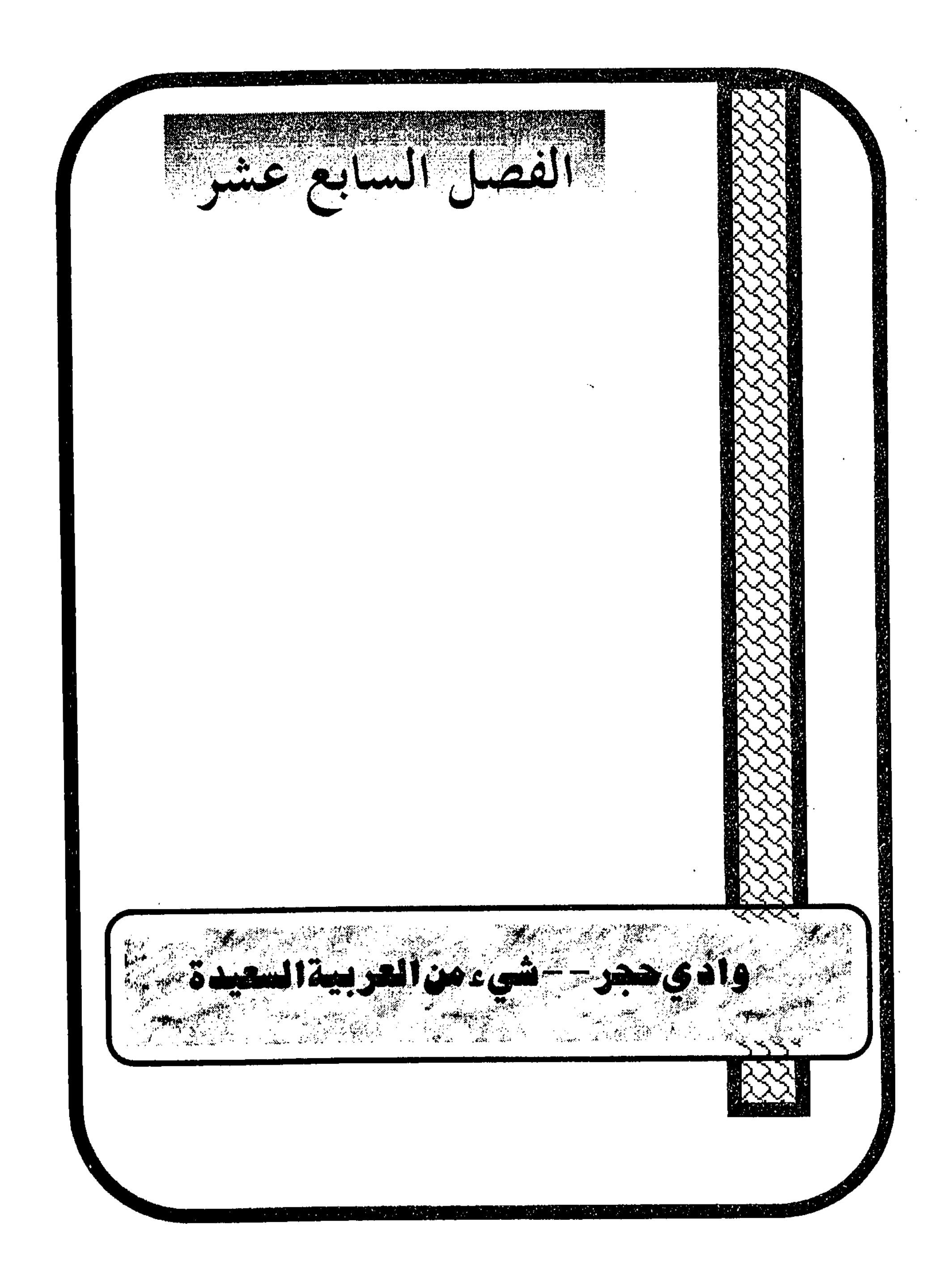
الغليان ؛ تجرى هذه المياه إلى الحقول وبساتين النخيل . وتمتد القنوات طويلا حتى يبرد الماء عندما يصل إلى النبات ، لكنه ما زال رغم ذلك دافئا جدا . ولاحظنا ترسبا أبيضا في القنوات .

كان الظلام قد حلّ عندما اقتربنا من أول منزل فى صيدارا ، واقتربنا مرة أخرى بحذر وريبة نحو الرجال. هل سنتعرض هنا لنفس الإجحاف ضد النصارى ؟ وهل سنتعرض ، كما في السابق ، إلى أسئلة فاحصة وفضولية ونستمع إلى أصوات خشنة حتى منتصف الليل ؟

هوامش

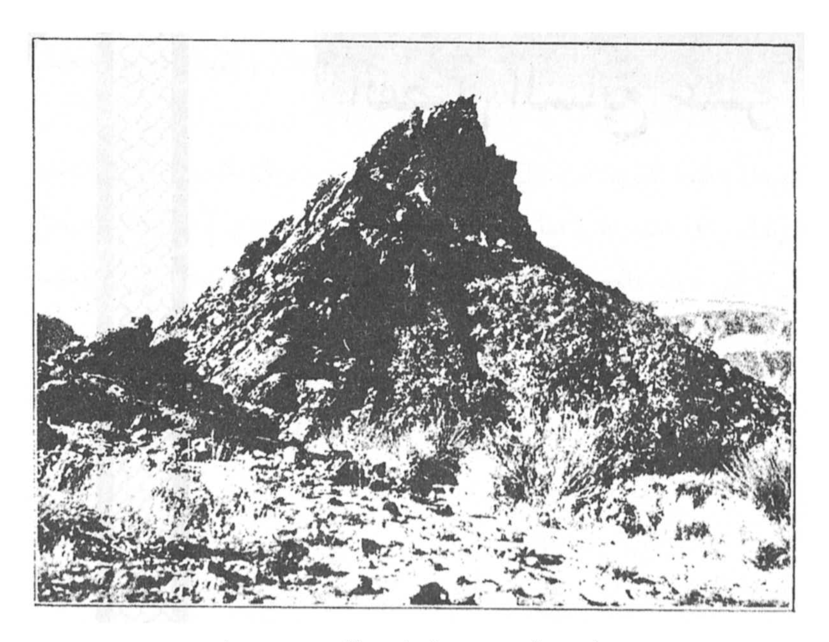
(١) هذا الشخص هو عمر بن محمد باعقيل من العلويين من بلدة قيدون فى وادى دوعن. ويمتلك أهله ثروات فى جزر الهند الشرقية .

واستغل نشوب خلاف بين السلطان عمر بن عوض القعيطي وابن أخيه ، واستغل تأييد بعض القبائل له ، فقام بشنّ حرب عصابات ضد السلطنة القعيطية . فأرسلت عليه جيشا مدججا بالسلاح وقضت عليه .

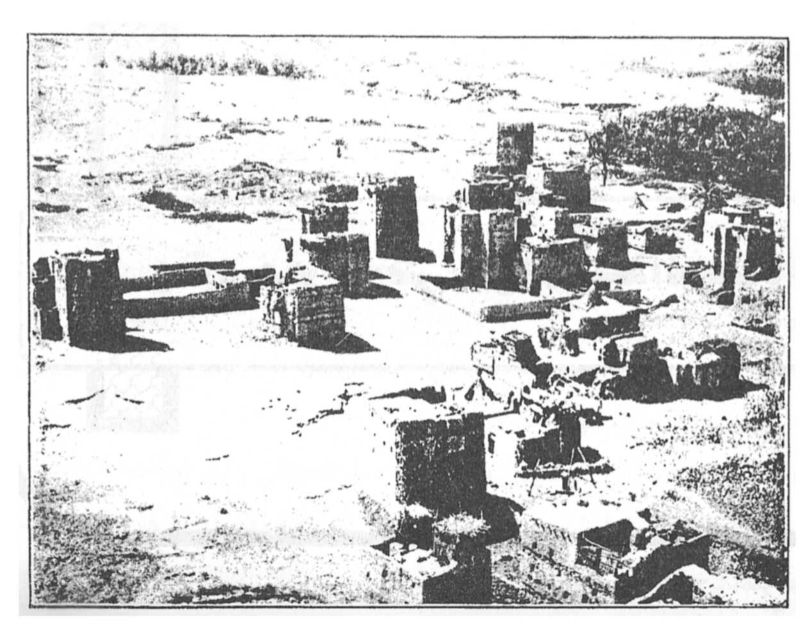


الفصل السابع عشر

وادي حجر - - شيء من العربية السعيدة



صورة لقمم الصخور الحادة بالقرب من وادي حجر



سيدارا ، تقع في بداية الجزء المزروع من وادي حجر

(١) صداره ، مساكنها الرئيسية

أعطتنا صداره انطباعا بأنها قذرة ، لكن على جانب من الرفاهيـــة . وتنتشـر منازلــها الحجرية بعيدة عن بعضها ؛ أغلبها من طابقين وبناؤها مربع قوي لتدافع عن نفسها فــي حالة الاعتداءات . صداره مستقلة ؛ فأقصى مركز لحكومة القعيطي يبعد مسيرة ســاعتين إلى الجنوب الشرقي . دارت حروب كثيرة للسيطرة على وادى حجر الخصـــب هــذا ، وشاهدنا فى الأيام التالية العديد من آثار هذا النزاع .

وقفنا هنا أخيرا أمام منزل زعيم القرية ، متشككين فى الطريقة التى سوف نستقبل بــها . لكنهم أعدوا لنا فورا شرفة فوق السطح ، ثم جاء بعد ذلك صاحب المنزل لــيرحب بنــا ويدعونا للدخول . ونحن نذكره بالعرفان ، ومدينون له إذ جعل الناس يتركوننا فى سلام ، بالرغم من أنهم هنا أيضا لا يتعاطفون مع الأجانب . أدى مضيفنا فريضة الحــج وعــاد بانطباعين حميدين عن الأوربيين : فعندما عبر فى طريقه على عدن تعرف على مستشفى الإرسالية فى الشيخ عثمان وتحدث باحترام كبير عن طبيب المستشفى الذى قابله هنــاك ؛ ثم مرة أخرى ، فى الأراضى المقدسة نفسها حيث قابل هولنديا أصبح مسلما ؛ وبعد انتهاء الحج قابل الهولندي مرة أخرى فى جدة وعامله كأنه أخوه . وأخبرته أن الــهولندي فــي جدة صديق عزيز لدي ، فأصبحنا فورا على علاقة ودية .

لكن سرعان ما امتلأت شرفة السطح بالناس وبدأت المصافحة والأســئلة مــرة أخــرى كالمعتاد . أما الصبية فكانوا منصرفين عنا فى الشارع الـــذى تحتنــا ، عندمــا ســمعنا ضوضاء شديدة ورأينا الناس يهرعون من كل اتجاه ويمطرون المنزل الذى يقابلنا بوابــل من الحجارة . واعتقدنا أن معركة شاملة على وشك الوقوع . ثم جاء بعـــض الرجــال يحملون فروع نخيل ملتهبة واشتعل المنزل الذى كان هدفا للحجارة بشكل مثير . واكتشفنا لراحتنا الكبرى أن سبب الاضطراب : أن ثعبانا كبيرا حاول الفرار عبر مدخل المــنزل . وأصابته بعض الحجارة ، ثم بدأ التواء الثعبان وانطوائه يخفت قليلا ثم سقط فى الشـــارع كأنما قد انكسر . وتقدم أكثر الواقفين جسارة وقطع نهاية ذنبـــه ؛ وزال بذلــك الخطــر وسرعان ما عاد الهدوء.

بعدما أرهقنا تماما من الإجابة عن الأسئلة التى طرحت علينا ومن تحية الذين تقدموا بها ، طلبنا الإذن بالسماح لنا بالانسحاب لنرتاح . فوافق الجميع ، وأعلن مضيفنا بأننا سننام فى نفس الشرفة ، ولم يتحرك أي واحد ولو بوصة واحدة ليتركونا لوحدنا . فلم يكن أمامنا سوى أن نستلقى بين زوارنا، الذين تكدسوا مثل الساردين . ثم أيقظونا بعد فترة لتناول الطعام ، وكان كل واحد يجلس فى نفس المكان . وأكلنا ثم أغرقنا فى النوم مرة أخرى ، لكننا أفقنا قبل شروق الشمس بأصوات زوارنا العالية، الذين عادوا فى ذلك الحين .

كرسنا ذلك اليوم لتجهيز قافلتنا للرحلة إلى المكلا . أما سعيد التمام ، فكان مساعدا أمينا لنا طوال الرحلة من ريدة الدّيّن ، وسوف يعطى جمالة المرهقة وجبة جيدة وراحة ثم يعود بها إلى هضبته الصخرية القاسية. أما العبد الأسود الصامت من القرن فى يبعث فقد كان دليلا جيدا ، وعاد إلى بلاده وهو سعيد وشكرنا له وفاءه ، الذى كنا فى شك من أمره فى البداية .

كشف لنا استطلاعنا للمنطقة المجاورة عن وجود العديد من الينابيع الساخنة التى تروى بساتين النخيل والحقول المزروعة بالقرب من صداره . ولا تضر الحرارة العالية النبات ويظهر هذا من النمو الكثيف الذى يكاد يكون استوائيا حتى عند منابع تلك الغدران . إن الصورة التى صنعها هذا المنظر فى وسط صحارى الصخر كانت جديدة بالنسبة لنا . وكان جديد بالنسبة لنا أيضا العادة الموجودة هنا، وهي استخلاص عصير من النخيل : يتخمر هذا العصير سريعا وينتج شرابا ليس بأي حال بريئا ويستهلك بكميات كبيرة (١). وحكوا لنا أقاصيص كثيرة عن عديد من الرجال الذين أصبحوا عبيدا منتظمين لخمر النخيل . ويبدو أن سوء استعمال النخيل هذا الذى يدينه الرأي الإسلامي بشدة ، غير موجود فى المناطق الأخرى التى سافرنا فيها ، ربما يعود إلى الفقر أكثر من الوعي الديني. إن الناس ينغمسون فى رفاهية هذه الخطيئة فى الأرض المروية جيدا فى وادى حجر ، حيث مزارع النخيل تتبع بعضها باستمرار لساعات بل حتى أيام .

استحممنا فى إحدى الينابيع الدافئة ، وهى متعة افتقدناها منذ ديار البقري ؛ لكن الدائرة المزدحمة من المتفرجين الشباب الناقدين وعباراتهم الساخرة ، زادت لحد ما من حرارة الماء العالية ، ومنعتنا من الاستمتاع الكامل بالمناسبة .

تشير هذه الينابيع الحارة إلى حركة بركانية . تقع صداره علـى حافـة سلسـلة الجبـال الساحلية، وهي مليئة بآثار بركانية واضحة . واختفى التشابه الرتيب فى تكوينات الجـول والوادى فى الداخل . ولم تعد الطبقات الجيولوجية أفقية ، ولا تتكون من حجارة جيريـة وحجارة صخرية وراسب طفالي . هناك طبقات متكسرة ومثنية بشكل مثير ، و جـروف عالية وقمم من صخرية قديمة ، وبينهما يمكن التعرف على براكين انطفأت ، وهي التـى تميز الفضاء بين صداره و المكلا .

أعطانا الانتظار الضروري للجمّال وللحارس الفرصة لكتابة يومياتنـا ، وكنـا أزحناهـا مؤخرا جانبا لوجود مهام أخرى أكثر إلحاحا ؛ لكن بالرغم من أن مضيفنا فعل مـا فـى وسعه ليهيئ لنا بضع ساعات لعمل هادئ فى غرفة فى الطابق الأعلى ، إلا أنه لم ينجـح فى ذلك . فلا يستطيع مقاومة رغبات ضيوفه وسرعان ما امتلأت الغرفة المكتظـة فـى الطابق الأعلى بجمع من الفضوليين ، يحدقون فينا ويعرقلون علينـا بأسـئلتهم وحديثـهم بأصوات عالية .

(٢) النثر والشعر فى وادى حجر

تمكنا ، بعد إصرار شديد ، أن نتحرك فى الرابعة بعد الظهر . هناك طريقان إلى المكلا : يسير الأول رأسا عبر الجبال ، و يلتف الثانى التفافة طويلة بمتابعة الوادى الرئيسي حتـى البحر ثم يسير فى الساحل إلى المكلا . الطريق الجبلي هو الأقصـر ولكنـه الأشـق ؛ وأخبرونا أنه صعب جدا على جمالنا ، فليست لها القوة على احتمالـه . وفـوق ذلـك ، سيكون الخطر كبيرا على مجموعتنا الصغيرة فى الجبال، فى غياب حراسـة مسـلحة . وتذكرنا أن "ليتيل ، كانت معه حراسة مسلحة كبيرة ، عندما هوجم فى هذه البلاد – فقـد قتل أحد السادة الذى كان يقوم بمهام الدليل فى إحدى الاشتباكات –وقبلنا هذا التأكيد مـن الناس فى صداره باعتباره معقولا لذلك قررنا أن نسير بطريق الوادى ، رغم أن له سمعة سيئة بالنسبة للملاريا .وكان "ليتيل" مقتنعا لحد كبير بهذا المرض : فكان لابد من تغيـير حراسه جميعهم تقريبا بعد كل مسيرة قصيرة فـى وادى حجـر . حاولنـا أن نتجـنب الخطورة بالنوم بعيدا من تجمعات الناس ، وبعيدا بقدر الإمكان فوق أرض عالية جافة .

كانت القافلة بقيادة عربي قوي رفيع اسمه ذيب . وقد قضى شبابه رهينة في قصر السلطان في المكلا. وهذا يوضح أن صداره مازالت قبل عشرين سنة جزءا من منطقة القعيطي ،وأن السلطان رأى من الضروري لتقوية قبضته على المنطقة أن يأتي بأبناء العائلات القيادية إلى قصره . وذيب مدين لهذه الظروف لتلقى تعليمه -- وهو تعليم جيد بالنسبة لهذه البلاد -- ، وذيب أكثر تهذيبا من الشبان الآخرين في صداره . وعلى الرغم من شعره الطويل، فإن وجهه أكثر وسامة ورقة في تعابيره مما عليه الوجوه عادة هنا . كان معنا أيضا علي ، رجل كبير في السن ولاذع نوعا ما ، وكان فخورا لأنه يستطيع القراءة و تمكن من تهجئة أسماء الأماكن التى عبرنا عليها . وعندما سرنا قليلا طلب منا إذا أمكن أن نشترى له نظارة من السوق في البندر (الميناء أي المكلا) حتى يتمكن من قراءة القرآن بشكل أفضل . والرجل الثالث الذى صاحبنا ، عبد الله ، بدوي عادي جدا ؛ ويتحدث قليلا ، لكنه كان يروعنا من وقت لآخر في أثناء المسير بأغانيه البدوية الرتيبة القبيحة الحزينة : " يا دانا .. آ ..آ " الخ . وأخيرا كان معنا محمد الصغير ، صبي في الثانية عشرة لا يتعب، و يقوم بتجربته الأولى في رحلة كهذه ، ولم ير بعد لا البحر ولا المدينة . بجانب هؤلاء ، كان معنا حائكا من المكلا انضم إلى القافلة بجمل محمل وصبيين. وكان معنا جمل ضخم كنا نسميه الفيل ، وناقة للّبن ، وجمل صغير رشيق يقوم برحلته الأولى .

يلبس قادة القوافل هنا نوعا غريبا من الصنادل. أشرطة عريضة من الجلد تغطي ليس الجزء الأعلى من القدم فحسب بل تمتد إلى ما بعد الأخمص ، وتحدث صوت خشخشة عند المشي . والقصد منها إبعاد الثعابين والعقارب ، خصوصا في الرحلات الليلة . يظهر أن هذه المخلوقات منتشرة هنا أكثر من-المنطقة الداخلية الجافة بسبب النبات الغزير والرطوبة العالية ، حيث يلبسون الصنادل هناك في الظهر لحماية الأرجل من حرارة الأرض .

رافقنا تقريبا كل الرجال في القرية عبر بساتين النخيل إلى النهر ؛ وخضنا الماء الدافئ ثم جئنا على المزيد من بساتين النخيل . ثم بعد ذلك مزارع الذرة ، التى انتهت لتحل محلها

الأعشاب والحشائش وأشجار الصنت. واختصرنا الطريق عند انحناءة النهر ؛ ويستمر هداب النخيل بلا انقطاع بجانب الماء.

أعلن ذيب استعداده (للتكلفة) أي بذل قصارى جهده ، وعليه فمن المحتمل أن نصل المكلا فى ظرف ستة أيام . وما أن دخلنا المنطقة التى وضع لها "ليتيل" خريطة ، حتى استطاع فون فيسمان أن يعطى مسحه المفصل للطريق وأصبحنا أحرارا فى السفر ليلا ، أي بعد المغيب وقبل الشروق .

وصلنا بعد ساعتين إلى حدود القعيطي . وجدنا هنا ، بجانب قلعة تسمى "حصن بن دغال" بها سكان من الوادى، أول معقل يحتله جنود يافعيون من "الدولة " (أي الحكومة) ؛ ويتخذ اسم "بدع قعار ". وعبرنا على هذه القلعة الوحيدة : الجنود الذين أنهكتهم الملاريا يحملقون نحونا بفضول ، وهم يتدافعون ويزيحون بعضهم جانبا ليتمكنوا من مشاهدتنا من النوافذ الصغيرة بالقرب من السطح . و اقتربنا أكثر إلى النهر عند هذه النقطة ، ولم يمض وقت طويل حتى سار طريقنا عبر بساتين النخيل الخصبة ، التى توجد على أطرافها وعبرها قنوات للري مليئة بالماء. كان الظلام قد حلّ عندما اقتربنا من "حوت " ، أول قرية فى خريطة "ليتيل" . وقررنا ألاّ نقضى الليالى فى قرى أو منازل ، إذا كان تحاشيها ممكنا بأي حال من الأحوال ، حتى نتفادى إزعاج الزوار الفضوليين ؛ وأنخنا الجمال حيث تبدأ منحدرات التل على مسافة من حوت .

لم نتمكن من سد النقص فى مخزوننا من الأكل فى صداره ، فقد عاد الرجل الذي أرسلناه لهذا الغرض خاوي الوفاض . كان النوم فوق المنحدر الصخري غير مريح والقرب من النهر والمزارع المروية جعلت الهواء رطبا جدا ، فكان ثقيل الوطأة ليلا. والناموس الذى يعذب البشرية فى البلاد الحارة الرطبة ، ظهر هنا مرة أخرى . وأفقنا فى منتصف الليل بضبع كان يتشمم حولنا لكنه انطلق جاريا مثل الأرنب عندما أفاق بعض رفاقنا ووقفوا على أقدامهم .

لم نتمكن من البداية مبكرا فى صباح اليوم التالي ، السابع عشر من يونيو . كان لا بد أن ترتوي الجمال تماما ؛ ثم أخبرونا أن أحدها شرد ، بينما كان رجالنا فى الواقع يحاولون

أن يعطوا الجمال أكبر وقت لتأكل من الأراك الذى هنا . والبدو بلا استثناء يفعلون كل ما فى وسعهم ليحافظوا على جمالهم فى أحسن حالة ممكنة .
يمضى الآن الطريق طول الوقت بجانب النهر ، عبر بساتين متصلة من النخيل . ويسير مرة على الضفة اليسرى ومرة أخرى على اليمنى . وعبرنا على فواصل دورية بخزانات منخفضة مبنية من جلاميد ؛ تخزن هنا الماء الذى ينساب عبر قنوات ليروى بساتين النخيل . وحواشى أشجار النخيل عادة عريضة ، وفى الأعلى فى واجهة المنحدرات الصخرية ، حيث لا يوجد ظل ، يتصبب القرويون عرقا تحت حرارة الشمس. هم دائما فى وضع استراتيجي جيد ، لأن وادى حجر الخصب هذا كان منطقة نزاع طويل حتى وقت قصير مضى . ويجب أن يعزى لهذا انخفاض درجة الرفاهية وانعدام الزراعة المكثفة لكل الأرض الصالحة للزراعة . وفى هذا الصدد فإن وادى دوعن فى مستوى أعلى بكثير .
أصبح الوادى بعد بضع ساعات أضيق ، واقتربت المنحدرات الصخرية من النهر ، وأصبحت مساحات الأرض المزروعة أكثر ضيقا ، وتلاشت فى النهاية تماما . ثم عبر طريقنا فوق سهل تبعثرت فيه حجارة حادة محمرّة وبنيّة ، هنا تقع قرية "حصن مصينع"، وكل منازلها على الإطلاق بلا حائط أمامي أو خلفي ، إنها مثل الأنفاق القصيرة من الصخر حيث جانبها الأبعد نحو حائط الصخر وواجهتها تقابل النهر . عندما سألنا عن أسباب هذه الطريقة من البناء قالوا إنه الفقر والحرارة الشديدة ؛ بهذه الطريقة يستفيدون من النسمة التى تهب عبر الأنفاق. ينتمى سكانها إلى نوع من قبيلة الغجر تعيش معزولة من الناس الآخرين . ويسكنون أبعد من ذلك فى قرى كبيرة من أكواخ القصب ؛ وهم نصف رعاة ويحتقرهم السكان المستقرون .
يضيق الوادى حتى يصبح مجرى صخري يجرى عبره النهر تحت الأرض . ويمتلئ مجراه الضيق بالجلاميد ؛ وربما يندفع السيل هنا أيضا بعد الأمطار فوق الأرض . ويصعد الممر بشكل حاد إلى المنحدر الصخري ، صعود الجمال هنا بحملها الثقيل عمل بطولي من جانبها ، فهي تصعد الجلاميد الملساء ثم تهبط مرة أخرى إلى الوادى حيث

يصبح عريضا . يظهر النهر مرة أخرى فوق السطح فى منتصف المجري الصخري ، وله لون مخضرّ أزرق جميل .

لا يستطيع أحد بعد الهبوط أن يقاوم إغراء الأشجار الظليلة والرمال البيضاء الملتمعة بجانب النهر الذى اتسع هنا وأصبح بركة عميقة . لكنها حالة مظهر خداع . فسرعان ما جعلت الحرارة المحرقة معسكر ما بعد الظهيرة هذا لا يحتمل ، لأنه فى الجزيرة العربية فإن أشجار النخيل وحدها هي التى توفر ظلا كافيا . أما بقية الأشجار فهي خداعة بالنسبة لما يبدو عليها من ظل ، لأن أوراقها تأخذ شكلا مستقيما أثناء حرارة اليوم لتحمى نفسها من أشعة الشمس .

ينعطف النهر ٩٠ درجة عند النقطة التى يجرى فيها فى واجهة الصخر، ويجوّف حوضا عميقا جدا حتى لم نستطع أن نصل قاعه بالغطس فيه . والرمال والصخور على جانبه ساخنة جدا إلى درجة لا يمكن الوقوف أو الجلوس عليها بدون أن يكون الواحد مرتديا ملابسه . كان الماء أيضا ساخنا . ورياح الصحراء الجافة هي الوحيدة التى تأتى بالبرودة، وذلك فقط عندما يظل جسم الإنسان مبتلا . الساعات التالية التى قضيناها فى المعسكر كانت استشهادا . فالنمل وقراد الجمال لم تترك لنا راحة، وأشعة الشمس الحادة، مع الحرارة العالية ، جعلتنا نخشى من ضربة الشمس .

واصلنا سيرنا فى وقت مبكر بعد الظهيرة . وأخذ الممر يتنقل من ضفة النهر إلى الأخرى ومازال الوادي ضيق هنا وقطعة الأرض الصالحة للزراعة لا تذكر . كانت تقابلنا عرضا بعد مسافات طويلة مزرعة ذرة والكوخ المخصص لحراسها. ما عدا ذلك فالوادي غير مأهول فى هذا الجزء .

وصلنا "الغبرة" قبل المغيب ، حيث يفارق طريقنا الوادي ويخترق الجبال لبعض المسافة وأكد لنا البدو أننا سوف نكون هناك بلا ماء لمدة يومين لذلك من الضروري أن نعسكر مؤقتا هنا ، فما زال وجود الماء ممكنا . ما كانوا يريدونه بالطبع هو إعطاء جمالهم فرصة أخرى لتملأ بطنها من الأراك . وذهبنا لننام كأحسن ما يكون الأصدقاء، بعد أن وعدونا أن نتحرك فى الثالثة والنصف صباح الغد . لكن الجمال التى طاشت ترعى بعيدا، لم يتم العثور عليها فى الظلام إلا قبل الفجر ، كانت حوالي الخامسة عندما حملنا أثقالنا

على التحرك . وخيبة أمل مثل هذه لا تصلح المناخ الذهني، خصوصا قبل أن يتعلم المرء معرفة رفاقه . عدم الثقة فى الوفاء بوعدهم بأنهم سيعملون كل ما فى وسعهم ، والرغبة الجامحة للسير سريعا نسبة لقلة الأكل ورداءته ولدت فينا مزاجا من التوتر والإرهاق .

أصبح منظر الجبال التى عبرنا خلالها بديعا . كانت الطبقات الجيولوجية واضحة جدا فى جدران مجارى النهر الجافة التى يمر بها طريقنا . وأمامنا سلسلة شامخة من جبال القرانيت مثل جدار ضخم بقمم حادة أعاليها خشنة . الجو حار جدا وسط هذه الجدران الصخرية الجرداء إذ كان علينا أن نتسلق بمشقة فوق أرض حادة ملساء. وعلى أحد جوانب الممر ينبوع به ماء كريه رفضت حتى الحيوانات أن تشرب منه . وتسلقنا نحو الممر الجبلي العالي الذى يسميه جماعتنا "حوطه" . ويقف فى الطريق جدار قوي مسلّح مبني من شظايا حجر غير متساو . فقد دار قتال عنيف هنا قبل عشر سنوات عندما أرسل القعيطي حملة لغزو وادى حجر . ومقابر القتلى معلّمة بأكوام بسيطة من الحجارة على جانبي الممر الجبلي . بعد أن هبطنا مسافة طويلة وصلنا الوادي مرة أخرى فى أكثر الأوقات حرارة فى اليوم . كانت ضفافه شديدة الانحدار لذلك لم نستطع أن نصل إلى مائه المغرى وشجيرات الأراك الخضراء ، لكن البدو ذهبوا ليبحثوا عن مكان يمكن أن نهبط منه . واستقر رأينا أن نرتاح هنا فترة بعد الظهيرة ، ليس فى "القليتة" ، ولكن أبعد فى "نيفه" . الرغبة الجامحة للإسراع بأي ثمن لنصل إلى النهاية جعلت فون فيسمان وأنا نقرر بحماقة لدفع الأوامر بالعنف ، وإذا دعت الحاجة ، نسير لوحدنا إلى نيفه بدون القافلة . الطريق متعرج عبر منطقة من تلال الرمل والحرارة عالية جدا مما جعلنا لا نرتاح لقرارنا . ومن حسن الحظ كانت لذيب النخوة ليتراجع وأمر القافلة أن تتبعنا . لم تمض ثقتنا هباء فى خريطة "ليتيل" ، لأن نيفه كانت قريبة جدا. وبالقرب من الممر صخرة ضخمة ، تشبه فى شكلها (الغاريقون) ، وستجد كل القافلة حماية تحت ظلها. لم يكن النهر بعيدا جدا وبدأت تنمو على جانبيه النباتات الخضراء التى ستتغذى منها الجمال.

بدأت تضمحل مؤونتنا من التمر والبسكويت . وكان رفاقنا البدو اقتصاديون جدا فى الأك: يتناولون وجبتين فى اليوم ، واحدة عند استراحة ما بعد الظهيرة ، والثانية فى المعسكر

المؤقت ليلا ، عندما يخبزون قليلا من الخبز نصف ناضج مصنوع من دقيق من نوع ما. وطعمه ليس مقبولا ، والأسوأ أنه يظل فى الصدر مثل الحجر لا ينـــهضم . كـــان فـــون فيسمان يشرب دائما لبن الناقة فى المساء ، ولكنى رفضت شربه ، فله رائحة نفاذة مثـــل عرق الحيوان . أصبنا بسوء التغذية والإرهاق . إن التوتر الداخلي وممارسة ضبط النفس خلال المفاوضات الطويلة والمناقشات فى عمد ومنطقة الدّيّن ، وفى يبعث وصدراه بـدأت تأخذ ثأرها على نظامي فى الهضم . ولكننا كنا مرغمين على المضي قدما وسرنا فى ذلك اليوم حتى السادسة والنصف مساء وقضينا الليل فوق هضبة صغيرة من الصخـــر بيـن جبال القرانيت . جمع البدو خلال اليوم أغصانا وأعشابا جافة وجففوا فى المساء نباتـــات للنار، التى سوف يخبزون فوق رمادها خبزهم ونصنع عليها الشاي . إنها أفضل ســاعات اليوم ؛ فهي تجمعنا سويّا فى مزاج من الصداقة الحقّة والعرفان بانتهاء يوم مـــن الحـر والرحلة المرهقة . وهي أيضا اللحظة التى يلطخ فيها رفاقنا البـــدو أجســـامهم بحـــذق - الذراعيين ، الصدر ، الرقبة - بالسمن . ويحفظون أيضا شعرهم مدهونا جيدا . وقد شـدّ انتباهنا أن أجسامنا التى يتصبب منها العرق باستمرار ونادرا ما تغسل ، أصبحت صلبــة ومفزعة من الملح الذى يبقى عليها من تبخر العرق . ويتخلص البدو من هـــذا الشـــعور الكريه بدلك أنفسهم بالدهن ؛ زيادة على ذلك ، فإن هذه الممارسة تجعل أجســـامهم أكـــثر مقاومة لحرارة الشمس والبرودة المفاجئة فى المساء . قالوا إن البشرة تصبح رطبة بشكل مريح من الدهن.

فى ذلك المساء جاء ذئب إلى معسكرنا المؤقت . وسمع البدو نداءه فى الجبال المحيطـــة واستيقظوا على عجل وجمعوا الجمال مع بعضها داخل المعسكر .

أفقنا مبكرا فى اليوم التالي ، التاسع عشر من يونيو ،، لأنه أصبح من المـــهم جـــدا أن نصل المكلا بأسرع ما يمكن . وتحركت القافلة فى الرابعة والربع واتخذنا خطا مســتقيما إلى ساحل البحر ، نتعثر بمشقة فوق جلاميد الجرانيت . ووصلنـــا ميفـــع عنـــد الثامنـــة والنصف ، قرية بائسة على البحر عند مدخل وادى حجر .

يعيش الجزء الأكبر من سكان ميفع فى أكواخ بائسة ؛ والمنازل الطينية القليلـــة متهدمـــة وفقيرة ورثة . جهزوا لنا المنزل الذى يسكن فيه الجنود ؛ وهو أحسن ما يمكن أن نلقى ،

لكنه أيضا بائس بما فيه الكفاية . بقي جندي واحد فقط ؛ فقد مات رفاقه من الحمى التي تتمتع ميفع بسمعة عنها لا تحسد عليها . فالجنود اليافعيون من المرتفعات الصحية هم أقل الناس مقاومة لحمى المناطق الساحلية الرطبة الحارة . وعندما توفي آخر رفاق هذا الجندي، هرب من المنزل ، فلا يجرؤ على السكن فيه بعد ذلك . ولا يمكن الحصول على الطعام من القرويين لا من أجل المحبة ولا من أجل المال ، ولكن الجندي أشركنا في تموينه من الأرز والبيض . وقال إن أهل المنطقة فقراء لدرجة اليأس وغير أصحاء . صحيح يأتي المهاجرون إلى هنا , ولكنهم لا يتحملون البقاء لفترة طويلة ، وجزء يسير من الأرض الصالحة للزراعة مستغل . يعتبر الجنود اليافعيون أن النقل إلى ميفع بمثابة عقوبة الإعدام . فتركيبهم الجسماني لا يمكنهم من مقاومة الحمى الوبائية ، ومرتباتهم لا تكفيهم لإعاشة أنفسهم جيدا ، وسكان القرية فقراء جدا وبائسون ولا يمكن الحصول منهم على أي شيء .

بينما كنت مستلقيا فى ركن الغرفة الصغيرة ، التى تفوح برائحة النيلة ، شعرت بمغص حاد فى البطن، وأحسست بأنى لا أستطيع مواصلة الرحلة . ولحسن الحظ كان لدى الناس دواء أعلنوا بالإجماع أنه فعّال ، وهو ملعقة كبيرة من الفلفل المسحوق . قاومت شكوكي وتمكنت من ابتلاع نصف الملعقة . لم يكن العلاج سريع المفعول كما توقع مستشاري الطبيين ، لكن استطعت على الأقل أن أواصل الرحلة مع القافلة فى العصر ، وغادرنا هذا المكان الموبوء بارتياح كبير .

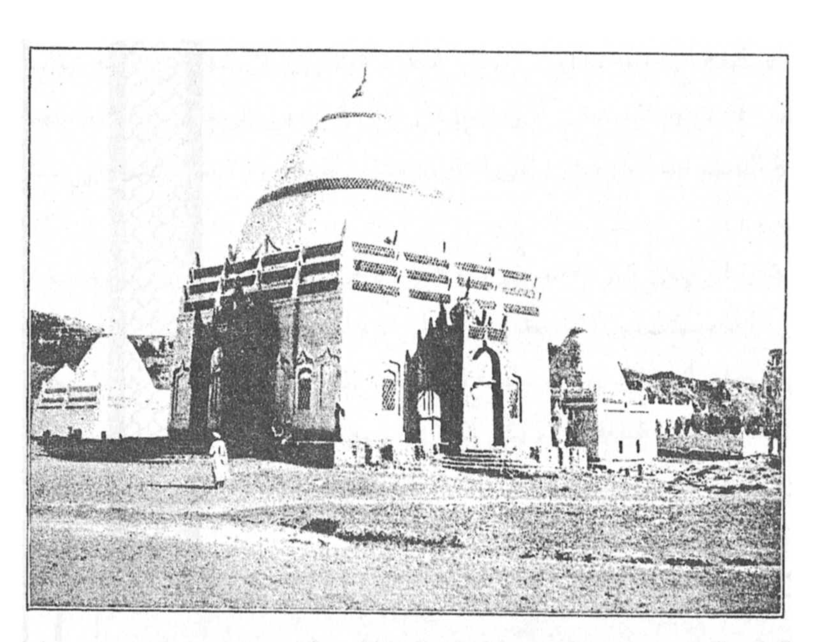
هوامش

(١) هناك نوع من النخيل لا ينتج تمرا ، وإنما ينتج نوعا من الثمار ، وعندما تفصد يخرج منها عصير يجمع فى علب تغطى بأكياس سوداء حماية لها من الضوء ، لأنه إذا وصلها الضوء يصبح شرابها مسكرا ، وإذا لم يصلها الضوء يكون شرابها حلوا . ويستخرج منه الخل أيضا .

(٢) يقال للزنوج فى حجر الصبيان . ويبدو من مظهرهم أن أصلهم زنجي ، ولعلهم من بقايا عبيد الدولة الكندية وغيرها من الدول التى تقوم وتسقط فى حضرموت .

الفصل الثامن عشر

عبر الساحل عائدين إلى نقطة البداية



نموذج لأضرحة الأولياء في منطقة عينات

عبر الساحل عائدين الى نقطة البداية

رجعنا الآن نحو اتجاه الجبال ، مخترقين سهلا عريضا مغطى بحجارة صغيرة . وعندما حلّ الظلام إستلقينا على هضبة من الجرانيت وهدهدتنا أصوات الأمواج للنوم وهي ترتطم بالساحل بعدما دفعتها الرياح الموسمية التى بدأت تهب الآن تدريجيا .

فى العشرين من يونيو ، استيقظنا عند الثانية والنصف وغادرنا معسكرنا فى الجبال عند الثالثة . استرحنا عند "الغبر" ، و يتخذ الوادى الذى يصب فى البحر اسمه منها ، وأكلنا وشربنا . وكانت هناك ماء بئر على عمق بضعة ياردات من سطح مجرى الوادى ، لكن الماء مالح ، ليس هذا بمستغرب، حيث أن البئر على بعد بضعة مئات من الياردات من البحر . وغفونا تحت بعض الأعشاب ، لكن سرعان ما دفعتنا الشمس التى ارتفعت عالية فى السماء ، لمواصلة السير .

أخذنا استراحة ما بعد الظهر بالقرب من بئر بها ماء حالى عند مدخل وادى آخر . ووجدنا ظلا تحت صخرة معلقة ثم تحول إلى عذاب بفعل حشد من قراد الجمال ؛ لكن وجدنا على الساحل كهفا جوّفته الأمواج . وهناك بعد أن تخلصنا من القراد حلمنا -- مع الأمواج المتكسرة ترشنا بالرزاز -- أننا نبحر فى بحر متلاطم ، متجهين إلى عدن .

وصلنا بروم عند الثامنة مساء . هذا هو الميناء الشهير الذى تلتجئ إليه البواخر التى لا تستطيع أن تعبر ممرات المكلا والشحر ليلا أثناء فترة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فترسو هنا يحميها راس بروم من الرياح .

نصبنا معسكرنا للّيل فوق سطح صخري خارج المدينة . ولم يجرؤ أحد من السكان على مغادرة حماية القرية ليلا ليشبع فضوله ويزعجنا بالأسئلة . وأصبنا بخيبة أمل عندما ما لم نجد طعاما نشتريه ، ولكن ... نأمل أن نعود مرة أخرى إلى قصر السلطان المضياف فى المكلا فى صباح الغد .

كان الحادى و العشرون من يونيو آخر يوم فى أسفارنا واليوم الخامس عشر منذ مغادرة تريم . تحركنا عند الرابعة وعشرين دقيقة ، والتففنا حول القرية نحو البحر ، فوجدنا بعض الصيادين منهمكين على شباكهم . وبروم بها بضع مئات من السكان وكانت لها أيام أفضل . يوجد الآن جنود فى قصر السلطان الأبيض . و يعطيها المسجد الأبيض وكذلك

بعض المنازل الحجرية البيضاء ، مظهرا جذابا عندما تشاهدها من البعد . وتقوم بساتين النخيل ومزارع الذرة بين القرية وحائط الجبل ، لكن ليس أمامهم مساحة للتوسع فى هذا السهل الساحلي الضيق الذى تطبق عليه الصخور . وتسيطر المكلا على بروم عن طريق إجراءات نقدية . تجارة السمك المصدر الوحيد للدخل الذى بقي للناس. رأينا أحجاما ضخمة من رؤوس سمك القرش المجففة ملقاة فى كومة ، ومن بينها رؤوس "رأس المطرقة".

يصعد الطريق من الساحل إلى جدار الصخر بجانب البحر . و فى القمة الصخرية بقايا قلعة وبعض المدافع الصدئة . ينحفر الممر فى جزء من الطريق من الجرف . تلكأ محمد الصغير خلفنا باستمرار، لأنه لم ير البحر من قبل، فهو مأخوذ بالدهشة لهذه الأعجوبة الجديدة . يصعد طريقنا مرة عاليا إلى الصخور ،ثم يقود مرة أخرى إلى الشاطئ برماله الملتمعة البيضاء . وكلما واصلنا السير تراجعت الجبال ، أخيرا صرنا نمشى فوق الساحل الرملي المسطح . الطريق مطروق بكثرة وبه العديد من السقايات . ثم ظهرت فوه ، آخر نقطة توقف قبل المكلا . تقع المدينة البيضاء المحاطة بمنطقة زراعية شاسعة، فى مدخل وادى فوه .عبرنا خلال مزارع خضراء نضرة نحو أشجار ظليلة ، اخترناها مكانا لتوقفنا، لكنها برهنت على أنها حارة جدا وأرغمنا على اللجوء إلى المنازل . فسوف نجد الضيافة فورا فى تلك المنازل العالية البيضاء ، لكننا لن نتمكن هناك من الراحة ومن التحرك سريعا ، لذلك بحثنا عن ظل من أشعة الشمس فى أكواخ القرية حيث يسكن الزنوج العبيد. وخصصوا لنا كوخا خاليا بل تمكنا من شراء أرز وبعض البيض وشرائح من السمك . وأعد صالح وليمة عادية من هذه المؤن واحتفلنا بها فى أخوة مع رفاق قافلتنا فى كوخ الزنوج . ثم سرنا مرة أخرى منتشين فى الفرن الملتهب من ظهيرة جنوب الجزيرة العربية .

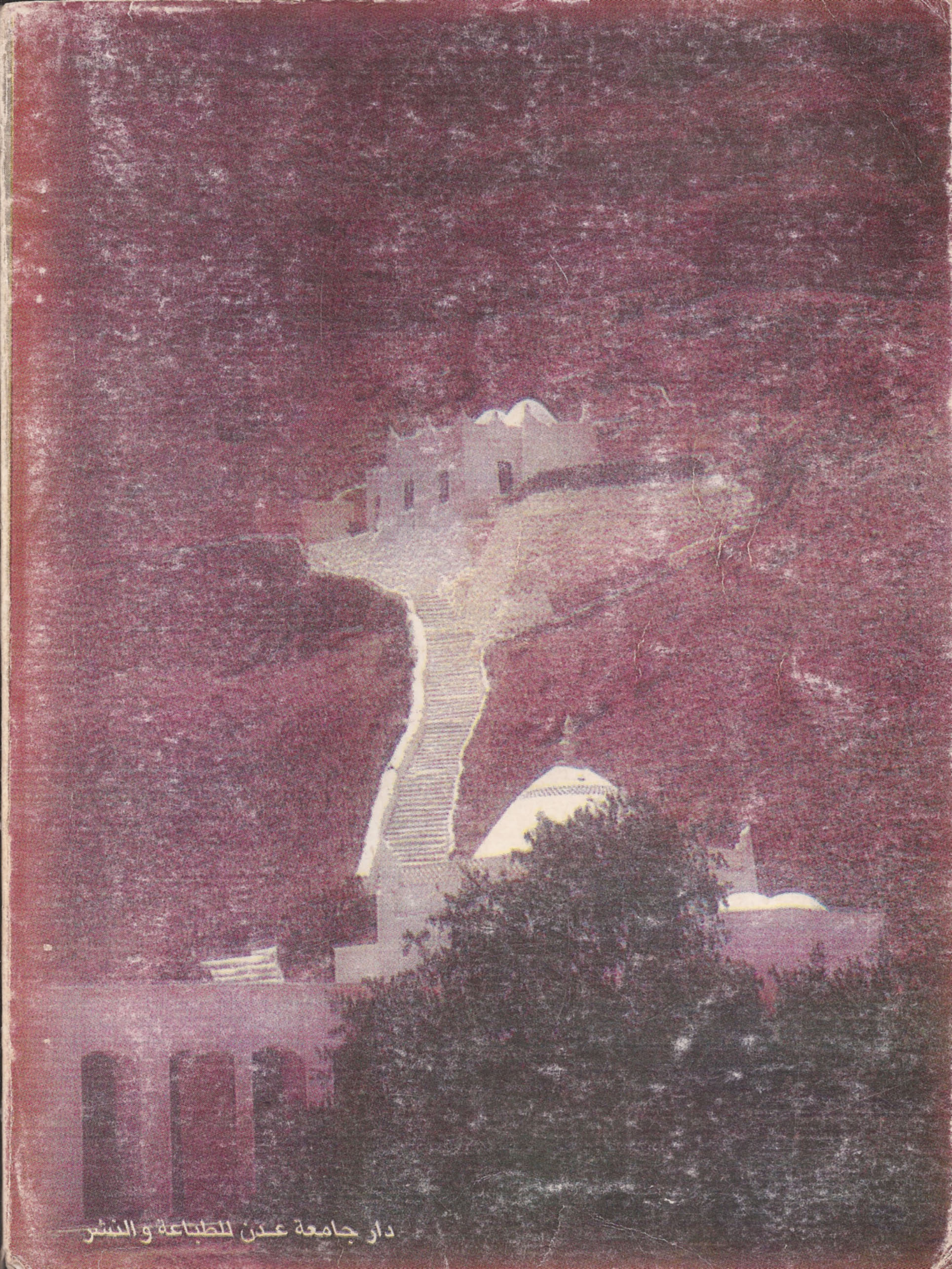
عبرنا بالقرب من فوه على مطار بريطاني ، تم تسويته تماما وأخلي من الحجارة ويمكن الوصول إليه من المكلا بالسيارة . وينحنى الممر نحو الساحل حتى يصل المدينة . ونراها من البعد مثل ضباب أبيض ، معتمة ترد ى غيم حرارة ما بعد الظهيرة . تخاف الجمال من الأمواج ولا تجرؤ على المشي فوق الرمال المبتلة المتماسكة بالقرب

من البحر. و هي أيضا مرهقة حتى الموت ؛ الجمل الصغير الذى يقوم برحلته **الأولى يئن** باستمرار أثناء السير ، مثل الطفل الباكى ، وسكت فقط عندما تحدث إليه ذيب **مشجعا.**

فى ظهر الأحد كنا نقترب من نهاية إرهاقنا , والمضايقات ، والجوع والمخاطر . **وعلينـــا** أن نشعر بالسعادة والعرفان ونحن نعود إلى نقطة بدايتنا . كان يجب أن يعطينـــا **منظـــر** نهاية رحلتنا طاقة جديدة تجعل أعيننا تشع بالفرحة ، لكن جاهدنا بدلا من ذلك **ببلاهة فـــى** صمت فى أحذيتنا الممزقة وحملقنا بأعيننا المجهدة المتعبة نحو المكلا عبر البحر ، **الـــذى** يعكس وهج الشمس . والجمل الصغير يئن ويجاهد بآخر ما تبقى له من قوة . كنـــا **فـــى** غاية التعب لنفكر ، لكننا نشعر أن شيئا جميلا جدا وحسنا ينتهى بالنســـبة لنـــا . **وعنـــد** الخامسة عبرنا بوابة المكلا الطويلة ودرنا رأسا إلى اليسار نحو قصر السلطان العتيـــق . وكان أول من جاء لاستقبالنا هو طبيب الميناء ، علي عبد الله حكيم و صافحنا بحــــرارة وهو يقـــول :الحمـــد لله " .



المؤلف مع السيد مصطفى بن احمد المحضار


دار جامعة عدن للطباعة والنشر